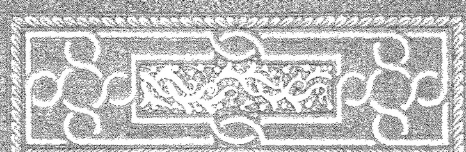




العلّامة

رواية

بنسالم حِمّيش



- جائزة الأطلس الكبير 2000
- جائزة الأديب العالمي نجيب محفوظ – الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2002

إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

بنسالم حِمّيش

العلّامة

رواية

- جائزة الأطلس الكبير 2000
- جائزة الأديب العالمى نجيب محفوظ - الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2002



الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عربية (59)
(شهرية)
نوفمبر / 2002

العلامـــــة

بنسالم حِميش

المرسلات باسم مدير التحرير :
على العنوان التالى :
١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الطبعة الأولى
رقم الإيداع / ٢٦٥٣/ ٢٠٠٣
I.S.B.N: 977 - 305 - 363 - 6



المنطقة الصناعية الثانية – قطعة ١٣٩ – شارع ٣٩ – مدينة
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ – ٨٣٣٨٢٤٢ – ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

قالوا .. عن الرواية :

« رواية **العلاّمة** للأديب بنسالم حميش بحث في ذات مفكر كبير في تجلياتها المختلفة ، وهي عمل فني يتمحور حول سيرة ابن خلدون ويتناص مع مقولاته ليقدم رؤية للعالم لا تقل ثراءً عن النصوص الإبداعية العالمية عبر التناوب بين السرد على لسان الراوي ولسان البطل الروائي »

هدى وصفي

« وفق الأديب بنسالم حميش في روايته **العلاّمة** على مستوى التشكيل الجمالي في دفع التقريري إلى التصويري ، والمباشر إلى المجازي ، والمجازي إلى الرمزي ، وبذلك يفصح عن تحريك الموقف الذي يتبدى في الشخصية من المحلي إلى المشترك الفكري والثقافي الإنساني » .

عبد المنعم تليمة

« تعالج رواية **العلاّمة** مشكلة الصراع بين المثقف والسلطة . وقد حقق كاتبها الروائي بنسالم حميش عملاً أشبه بقطعة موسيقية تتألف من لحنين : لحن تاريخي ولحن عصري . والرواية بذلك تخاطب عصرنا من خلال قناع شفاف من التاريخ » .

رجاء النقاش

« يستنطق الأديب بنسالم حميش ي روايته **العلاّمة** قناعات المفكر العربي الكبير ابن خلدون . ونتعرف عبر سرده الفني المتميز بالسهولة الممتنعة على شخصية تاريخية فذة بجوانبها الإنسانية الحميمة وفلسفتها في التاريخ والاجتماع وتفاعلها مع التصدعات الكبرى في عصرها » .

فريال غزّول

الكاتب : د. بنسالم حميش

- بالرباط وباريس تلقى بنسالم حميش دراسته العليا في الفلسفة وعلم الاجتماع إلى أن حصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة.
- الدكتور بنسالم حميش كاتب ومؤلف بالعربية والفرنسية، متعدد الاهتمامات الفكرية والأدبية واللغوية. حاضر في عدة ملتقيات عربية وأروبية وأمريكية.
- في 1983 منعت من الصدور مجلة "**الزمان المغربي**" التي ساهم في إنشائها ومجلة "**البديل؟**" التي أسسها وأدارها.
- له أعمال متميزة في البحث التاريخي والفكر الفلسفي وأخرى في الإبداع الشعري والروائي والسيناري.
- عضو في عدة جمعيات ومؤسسات عربية وأروبية وخبير في أكاديمية المملكة المغربية.
- في 1990 نال الأستاذ بنسالم حميش جائزة الناقد العربية على روايته "**مجنون الحكم**" التي اختارها اتحاد الكتاب العرب من بين أحسن روايات القرن العشرين، وترجمت إلى الإسبانية والفرنسية والأنجليزية.
- في 2000 حصلت روايته "**العلامة**" على جائزة الأطلس الكبير، وهي الآن قيد الترجمة الفرنسية.
- د. بنسالم حميش يعمل حاليا أستاذا للفلسفة بجامعة محمد الخامس - الرباط.



إلى شاعرتي الخنساء

فاتحة

في منحى حياة عبد الرحمن ابن خلدون المغربي، كانت الرجّات والمشاقّ كثيراً ما تبدأ أو تنتهي باكفهرار الجوّ بينه وبين أهل الدولة. وكان الرجل، خلافاً لمعظم علماء العصر وسياسييه، ميّالاً إلى استسهال عواقبها وأخذها مأخذ السعة والرحب، بدل الاستيحاش واليأس. لذا كان صوت العلم كثيراً ما يصيح فيه طالباً فرص التفرّغ والخلوة وتمديدها إلى أجل غير مسمّى.

لم يكن عبد الرحمن متمرّساً بأفانين السعايات والكيد، ولا ذا باع في أساليب التآمر والنصب، لأنّه لم يغرق قط في سياسة وقته حتى الأذقان، ولم يقبل في المعرفة بضعف البضاعة وهزل الزاد. ولو فعل هذا وذاك - لا قدّر الله - لكان واحداً من فقهاء الظلام وقضاة الجور وسماسرة السوء، وغيرهم من الذئاب والثعالب الذين تعجّ بهم دواليب الدولة ومطابخها.

من أواخر الحلقات المظلمة بين حكّام الوقت وعالمنا حلقة جلوس هذا العالم ببرنسه المغربيّ قاضياً للمالكيّة بالصالحية بين القصرين، وذلك

بتعيين من السلطان الظاهر برقوق، سنة ست وثمانين وسبعمائة.

وهنا، من على هذا المنصب، اكتشف المالكيَ الوجه الآخر للقاهرة، المدينة التي وصفها، حين دخلها منذ أقلَ من عامين، بـ«حضرة الدنيا» و«بستان العالم» و«إيوان الإسلام»، ومثَل بحر النيل فيها بنهر الجنة؛ اكتشف وجهها الآخر، أي الفساد مستشرياً في العادات والتقاليد، والغلبةَ كلَها لذوي المال والسلطة، والحيفَ نازلاً على كواهل المعوزين وأهل الفاقة، فكتب في *التعريف* بمداد الثبات والخيبة:

[فقمت بما دفع إليّ من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يَزَعُني عنه جاهٌ ولا سطوة، مسوّياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحقّ الضعيف من الحتكمين، مُعرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحاً إلى التشبّث في سماع البيّنات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمّل الشهادات؛ فقد كان البَرّ منهم مختلطاً بالفاجر، والطيّب متلبساً بالخبيث؛ والحكّام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يموّهون به من الاعتصام بأهل الشوكة؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمةٌ في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنّون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظّ من الجاه في تزكيتهم عند القضاة، والتوسّل لهم؛ فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين النّاس منهم].

كان الرجل في تلك الحلقة العصيبة يقف بين حدَين قاطعين: حدّ أحكام الله وواجب تطبيقها بما يرضاه الشرع والمذهب، ثم حدَ السلطة الزمنية المتعبّدة بمواقعها ومصالحها المخصوصة. والحدَان كالضدّين لا يلتقيان إلا في مصطدم التنافر والتنافي. فكان على الواقف أمامهما أن يختار أقربهما إلى روحه وكيانه، متحمّلاً كل التبعات والعواقب. وهكذا اختار المغربيّ الحدَ الأوّل، المطلق والأسمى،

فانحاز له وانتصر، معولا على الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم. وبيده الأوراق كلّها والمفاتيح. وكيف لا يفعل وهو الذي ما أتى ديار مصر إلا متذرّعاً بالحجّ إلى أمكنة الله الحرام، وذلك حتى يفلت من السلطان الحفصي أبي العباس، الذي كان يأخذه في حله وترحاله زينة في صدره ووساما.

لكن كم كان الثبات على القضاء بالعدل صعبا مرهقا! وكم أثار من ريح عجاج سلّطها على المالكي أرباب القلم والعقار والقطعان وكل الجاه، مستعملين في تسعيرها حثالة القوم والساعين بالكيد والنميمة! وكان أغرب ما اتّهم به- علاوة على أفدح ما أشيع عنه من تجاوزات- أنه جاهل بمعاني الأحكام الاصطلاحية، فلا يتكيّس ولا يتكيّف ولا «يطوّل باله»، كأنما العدل عندهم صنفان: صنف حقيقيّ أو خالص لا يخدمهم في شيء؛ وصنف مجازيّ مصطلحيّ هو المتعارف عليه والجاري به العمل في البلاد، وهو المعوّل عليه في قضاء حاجاتهم ومآربهم.

القاهرة، قيل للمغربي قبل وفوده عليها: من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام؛ وحين عاينها وقف عند هذا العزّ في عمرانها ومآثرها ورسومها؛ لكن ما إن نزل في بواطنها مكبّاً على شؤون العدل الذي هو أسّ الحكم حتى قاس اغتراب الإسلام بين أكابرها وأعيانها، فرثى لانقلاب القضاء إلى ألاعيب احتيالية وصفقات دنيوية، ورثى لانسحاق الحقوق وزهقها تحت أقلام الزور وبطون الحرام.

كان من طبع الرجل الصبر والتحدي في الوقوف ضد رياح المكاره والمنكرات الهوجاء، حتى يصيح بالحق ولو تعرض للعزل واللائمة. لكن حدث له هذه المرة، أواسط سبع وثمانين، مصاب جلل لم يكن في الحسبان. إذ غرقت أسرته الصغيرة في البحر، بعد أن نفعت شفاعة السلطان برقوق إلى أبي العباس صاحب تونس في تخلية سبيلها وبعثها إلى ربها. وكدأبه في ذكر مآسيه الخاصة، لم يشر عبد الرحمن إلى مصابه ذاك إلاّ على جناح العجلة والاقتضاب، كأنما الكلمات في مقام الحزن تدير السكاكين في الجرح، فقال: «*فكثر الشغب عليّ من كلّ جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة. ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود؛* ***فعظم المصاب والجزع. ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج من المنصب ...***».

مطالبة حكام الوقت أن يعطوه ما يسميه في سريرته الاتساع – حسب تعبير سائر في قطره - هي ما بات يرومه ويتوق إليه لتنفس الصعداء والانطواء على محنته في رحاب الإعراض عن الدنيا والأمل في العلم وفي أعلم العالمين. وقد وفّق في نيل هذا المبتغى بعد لأي وإصرار، فاعتزل في بيته القريب من الصالحية، المطلّ سطحه على النيل، لا يدخل عليه من الناس في كل يوم إلاّ خادمه شعبان السكيت، القائم بكلّ الحاجات والأغراض، بما فيها جلب جرايته ونصيبه من زرع وقف القمحيّة.

كان عبد الرحمن يعلم أن حالة نفسه القانطة الثكلى لا ينفع فيها إلاّ الحج إلى بيت الله. لكن أعصابه الخائرة المنهارة كانت تعوقه في

إعداد العدة لذلك. وتستوعر في خاطره أعباء الرحيل. فكان كلما حل أوان الفريضة أدّاها ماكثاً في بيته على توهم، كما فعل الحلاّج وغيره من الأولياء سالفاً.

مضت على اعتزال الرجل بقية السنة القمرية الأولى وتلتها سنة أخرى. وهو يعلّمُ الوقت بأداء نسائك «الحج العقليّ»، أكبره أصغره. وبين حجّ وآخر كان يصرف الأيام في عبادات متواترة وقراءات صوفيّة متّصلة، كانت كلّها تتفاعل في تقريبه شيئاً فشيئاً من أنوار الحق، فلم يكن يلهو عنها إلاّ لفترات وجيزة، يستقبل فيها زائراً ملحاحاً أو يخرج ليلاً مرّة إلى النيل، ومرة إلى الأزهر أو مشهد الحسين، ومرّة أخرى إلى أزقّة الأسواق، حيث يمشي هرولة تتبعه ضوضاء الآدميين، وتحفّ به الأبخرة وروائح التوابل والعطور، وشتى أنواع المأكول والمشروب.

ذات ليلة ربيعية من ليالي مروقه من بيته وتنقله بين محطّاته المفضّلة، ليلة مقمرة ذات بشر مضيء، خطر لعبد الرحمن أن ينزل إلى ماء النيل سائحاً، فاكترى قارباً صغيراً، وركبه جالساً وبمعيّته خادمه الماهر في فنّ السياقة والتجذيف. ثم ما لبث أن تمدّد متدثّرا ببرنسه، فشعر بين هدأة الليل وهدهدة الموج أنّ القارب يتحرّك من تلقاء ذاته، وأن الخادم الصموت كأنّه اختفى وراء مجذافيه. فقضى المتمدّد ما شاء الله من لحظات الغفوات ورؤى اليقظة، لحظات هي أشبه ما تكون بذرّات الخلود، يحضر الكون كلّه في لمعانها، ويحسّ مُعانيها أنه توضأ من دم الشهادة، واستوطن حجر الحق، مع صحابة إسلام الفجر ومبعوثي الصفاء والعدل.

وحين أطالَ السحر وتاخم أولى الأنوار، انتبه المتدثّر، فإذا بخادمه يرمقه بعينين مشعّتين، ويقابله بوجه بشوش ريّان، مليح السمرة، وديع الحضور، ينطق فمه بالتصبيح والتهليل، ملاحظاً أو سائلاً:

«سيّدي نام أو سها عما حوله، ونطق بكلمات ربّانية حفظتُ بعضها. سيّدي قال: ربّ، كيف أقبض بيد على الميزان وبأخرى على الصمصام، وقد وهن العظم مني، وبلغت الإحن مني كل مبلغ؛ وقال: ربّ أمطر هذا البلد بشآبيب رحمتك، أو اجعل آخر الداء الكيّ.

اتّخذ عبد الرحمن هيئة الاتّكاء وسأل خادمه عن كلمات أخرى، فاعتذر هذا عن استظهارها بسبب عدم وصولها إلى سمعه، ثم استفسره:

- منذ متى وأنت في خدمتي يا شعبان؟

- منذ ما يناهز العامين يا مولاي.

- وكيف قبلتك في تدبير شؤوني؟

- أتيتُ سيّدي بقلب كظيم وعينين عامرتين باليأس، فنظر إليّ نظرة، ثم سلمني مفاتيح داره وعلى أمورها ولاّني.

- أتذكّر هذا كلّه يا شعبان، لكن هل تعلم أنّي أجهل عنك الكثير، ولا أكاد أعرف عنك إلاّ اسمك ووجهك. لمَ لمْ تحدّثني يوما عن حالك ومآلك؟

- لم أفعل ذلك لأنّ أمثالي هم السواد الأعظم، لا يُعدّون ولا يُحْصون، وأنا معهم في الهمّ سواء. ثم إن سيّدي قد ألمّ به من السوء ما يكفيه، فلمَ أُثقل كاهله بأخباري وكلها بائسة لا تَسُرّ؟

- في قلب المؤمن دائما متسع لبلايا الناس وأضجارهم. فحدّثني عن همك ولا تُبال، حدثني عنه عساك تخفف عنك.

توقف الخادم عن التجذيف، واستوى في جلسته. وقال:

- هو همّ واحد ورأس كلّ ما سواه، أقوله لسيّدي بوجيز العبارة دفعاً للكلام الكثير والتذكّر الأليم... فتحت عيني على الدنيا في بيت الفقيه العدل سراج الدين الفيومي الشافعي، المشهور بين أهل علمه بما اشتهر به سيّدي من حرص على إقامة حدود الله وأحكامه. كبرت في ذلك البيت الكائن بالفسطاط معزّزاً مكرّماً، حتى إذا بلغت أشدّي أخبرني مولايِ بأنه اشتراني من نخّاس وأنا في الرابعة من عمري، وأنه لا يعرف شيئاً عن والدي وأهلي. وبعد أن أعتقني عرض عليّ أن أبقى في خدمته أو أنصرف عنه إلى غيره. فرجوته أن يتركني في كنفه، لاسيما أنه كان قد ترمّل ولم يُرزق ولداً. وحين شعر بدنوّ أجله ورثني بعقد أرضاً في الصعيد من نصف فدان، هي ثلث ما كان يكسب. لكني لم أفلح أبدا بهذا الإرث للأسباب التي تكرّر مشهدها عند سيدي في هذه البلاد.

- خرج عليك الورثة من كل حدب وصوب، وطعنوا في صحّة الوصية أو سلبوك إياها بدعم من قضاة الحيف والزور، فسلّمت بالأمر ودخلت في صمتك الدفين.

- هذا عين ما جرى لي يا مولاي، وهو قليل إذا قيس بأكل أموال اليتامى وبظُلامات أشد وأعتى... لا أكتمُ سيدي أني، بعد أن تيقّنت أن حقّي ضاع منّي، قضيت ساعات في المقاهي أو في بيوتات الله أهمهم مع المهمهمين: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة» و «هم

يأكلون الدجاج ونحن نحشر في السياج»، وغير ذلك مما لا أجرؤ الآن على ذكره. كما لا أكتم سيدي أني رأيت غير مرة فيما يرى النائم أني أتحول تارة إلى عنترة أو سيف بن ذي يزن، وتارة أخرى إلى عمر بن الخطاب سيف الله المسلول، فأهجم على المناكر والخروقات وأرديها قتيلة، أو أستعدي عليها كل مغلوب وكلّ مقهور. وحين أستفيق أجد يدي تكيل الضرب المبرح للحافي ومخدتي، فأبكي بشدة لضعفي وعجزي».

سكت الخادم بغتة وجذف صوب مرفأ الانطلاق، بينما عبد الرحمن يتلو آيات يسمع منها ﴿إن اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرة﴾، أو ﴿وعنت الوجوهُ للحيِّ القيوم وقد خاب من حملَ ظلما﴾. فكان بها كأنه يهوِّن من طفو رؤى منامية على سطح ذاكرته، قريبة من رؤى خادمه، مع إدراكه أنه يبقى دون هذا الخادم في باب الاكتواء بنار الغصب والحيف.

بعد مغادرة النيل والعودة إلى البيت، أدى الرجلان صلاة الصبح معا وتناولا فطوراً خفيفاً في صحن واحد لأول مرة، ثم انكب عبد الرحمن على مقالات الصوفية وشطحاتهم، آمراً شعبان بتعويض ما فاته من النوم.

قريبا من عيني القارئ، كانت الكتب المفتوحة هي ***نهج البلاغة***، ***والرسالة القشيرية***، ***وطبقات الصوفية*** وشرع ينتقل فيها بين هذه الشذرة وتلك وبين حكاية وأخرى. وتابع انتقاله متمدداً على فراشه، جانيا الدقائق واللطائف، مستمتعا بوقعها المؤثر على قلبه وبصيرته. وشيئاً فشيئاً كان تدفقها الميسور يحمله على الإحساس بالقراءة

وكأنها قارب ميمون يحقق له الإبحار نحو أعزّ ما يطلب: التفرّغ للعلم والانقطاع إليه. وما هي إلاّ لحظات حتى توقّف القارب متهاديا، إذ وضع الراكب كتابه على جبهته وعينيه، ولاحق ذكرى خلوته بالعُبّاد عند رباط الولي أبي مدين الغوث، هروبا من مضايقات السلطان عبد العزيز ومن وجوه الأمراء جميعهم. وهناك، وقبل أن يخرجه المريني من اعتصامه، لتوليته استئلاف قبائل رياح، تذكّر أنه عاش لحظات خارقة للعادة، زاخرة بالتجرّد والبهاء. فأرض المغرب وقتئذ بدت له معلّمة، في وهادها ومنصّاتها وجبالها، بإشارات الحضور المباشر المرئيّ لأولياء الله ومحبّيه. القباب البيضاء المتناثرة في المجال ينشر بروزُها نداوة الوجود الأجلى، وتعلّق حول ما يشبه التجنيحات الثابتة قطعا من حياة الناس الكادحة، وسجلا متواتراً مفتوحاً على آلامهم الثكلى وآمالهم الطافحة؛ وتراءت للمفتون بعض وجوه سادة الموهبة والكرامة، المعرضين عن ساسة الدنيا ومديري الفنّ النظريّ والكلام المذهبيّ: تراءى له وجه أبي مدين مقيما في غاره بين الخرابات، صُحْبَة غزالة أليفة وحيوانات تالفة مؤنسة. وتذكّر قبل هذا الزاهد زاهداً أميّا هو أبو يعزى مروّض الأسود، الماشي على الماء، النافع في البرء والاستشفاء. ثم مال به الخاطر إلى استحضار معاصره في الوقت وليّ سلا ابن عاشر، هذا المليء بما هي عليه نفوس الناس وأحوالهم، هذا المشير إلى الهوّة بين السكان والسلطان. هذا الذي أبى مقابلة أبي عنان وهرب منه يوم لاحقه على قدميه هرولةً.

فتح عبد الرحمن عينيه بعد غفوته، فظن الوقت ليلا أو قريبا من الليل، فأشعل شمعة وتابع القراءة في ***نهج البلاغة***: [وعن نوف

البكالي قال رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم، فقال يا نوف: أراقد أنت أم رامق؟ فقلت بل رامق يا أمير المؤمنين، قال يا نوف: طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة. أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشا، وماءها طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً. ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح...].

فجأة تناهى إلى سمع القارئ المتأمَل نقر على باب داره، تلاه هرج تبيَن له فيه صوت خادمه شعبان. ظنَ، متطيَراً، أن أعوان السلطان يطلبونه في شيء، فانتفض واقفا وهرع نحو الباب، فرأى رجلا وامرأة يطلبان لقاءه، والخادم يواجههما بالمنع والصدَ. رحَب عبد الرحمن بمقْدم الزائرين ودعاهما إلى شرب الشاي معه، فامتثلا متردَدين شاكرين. قال بعد أن استرعى انتباهه طول قامة المرأة وقصر مرافقها:

«شعبان قسا عليكما، لا مؤاخذة. هو يبعد بعض الناس عني حرصا على خلوتي، أو خوفا من طمع زائر في منصبه بهذا البيت. أنتما ولا شكَ متزوَجان أو تربطكما قرابة... هل من حاجة أقضيها أو مشورة أقدَمها؟

تلعثم الرجل لحظة بفعل اندهاشه من تواضع عبد الرحمن، ثم قال جاهدا:

– سيَدي العالم الأعظم والقاضي الأعدل... منذ أكثر من عامين زرتك مع وفود معزَيك في وفاة أسرتك الصغيرة، طيَب الله ثراها وأدخلها فسيح جناته؛ واليوم أقف بين يديك لأعرفك بنفسي

وبقضيتي مع هذه المرأة التي يشهد هذا الكاغد أني بعلها... اسمي حمو الحيحي، وعمري أربعون سنة. هاجرت إلى هذه الأرض منذ عامين مع زوجتي هاته. بعد أن تزوجتها لأقلّ من سنة في فاس مدينة مولدها وترعرعها. قضينا هذه السنوات في هناء لا بأس به، رغم أنّنا لم نرزق مالاً كثيراً ولا بنين: هي تقوم في البيت والمطبخ لا أنازعها في تدبيرهما، وأنا أجلب أسباب العيش من حرف الحلال، أولَها عندي الخط والنسخ. أما ما حدث خلال هذه الشهور الأخيرة، فخلاف بيني وبين هذه المرأة في قضية لا ينفع فيها إلا حكم فقيه من بلادنا مثل سيدي. فتقبّل سماعها من فم المعنيَة بها حتى تفكّها لنا على مذهب أنس ابن مالك.

خفضت المرأة لثامها إلى فمها. فرمقها عبد الرحمن خلسة، ملاحظاً جمال عينيها وملامحها، ثم قالت مصطنعة حياءً متدلّلاً:

– تكلّم أنت أوّلاً، والبركة في سيدي القاضي.

– هوذا الخلاف الحادث بيننا: زوجتي تريدني في التنزّه معها على ضفاف النيل والساحات جنباً إلى جنب. أمّا أنا، فيعسر عليّ طلبها يا سيدي ولا تطيقه قامتي، هذا فضلاً عن أنّ الدّين لا يحبّذ ذلك، ولا أظنه يتوعّد رجلاً يأبى المشي مع زوجة تعلوه بذراعين. تكلّمي يا امرأة.

– سيّدي القاضي، البقاء في البيت وحدي يعييني، والخروج منه للتنزّه يفرّج عن نفسي. لكن إن خرجت وحدي، يتبعني بعض الشباب والكهول بالغمز ولغة "الصيادة". فأضطر للرجوع إلى بيتي حتى

أحفظ عرضي ولا يقال الكلام القبيح عن المغربية بنت صالح التازي... أنا وهذا الرجل عشنا كالسمن على العسل، ورغبتي أن نبقى كما كنّا بشرط أن يمشي معي حذاء النيل.

– لا مشي لي معك خارج الدار ولا مصاحبة. وإن ضاقت نفسك فاصعدي إلى السطح ودوري فيه. اللعنة على مصريات التبرّج والتجوال!

– كلّ الرجال يرافقون زوجاتهم يا حمو، ولا عيب في ذلك. إسأل سيدي القاضي يخبرك أنّ العبرة في الرجولة لا في طول القدّ والقامة.

– صدَقت كلامك هذا يا أم البنين مرّتين، فاجتزت الشوارع والشطوط في صحبتك وكأنّي أجتاز الصراط، لا أسمع إلا طَنْز النسوان، ولا أرى إلاّ نظرات الرجال السّاخرة. فاعفيني بجاه مولاي إدريس من أمر لا تطيقه نفسي، وكوني، كما كنت في فاس، امرأة طيّعة مسالمة.

– في فاس يا حمو كان لي الأهل والأحباب، أختار من إخواني من ينوب عنك في خروجي. أمّا في هذه البلاد فأنت كلّ أهلي يا حمو، ولا حبيب لي غيرك.

أخذت المرأة تذرف دموعها مخلوطة بالكحل، والرجل يضمها إليه محتشما، ويعدها بتسخير خادمة تنوب عنه في الصحبة والحراسة. أمّا عبد الرحمن فبقي واجماً أمام مشهد الزوجين، لا يعلم بِمَ يفتي ولا بِمَ قد يقول به مذهب مالك في هذه النازلة. وخطرت في ذهنه فتوى علماء الرأي من الكوفة في حالة محيّرة مماثلة، مع وجود الفارق، قال

رجل لزوجته: إن لبست هذا الفستان فأنت طالق، وإن لم أجامعك فيه فأنت طالق. قالوا: يلبس الرجل الفستان ويجامعها فيه، فلا هو حنث، ولا هي تحيَّرت. حل توفيقي قد يجوز قياس الحالة الراهنة عليه! فهل يفتي عبد الرحمن فيها بأن يذهب الزوجان إلى التنزّه والتفسّح وقد تنكّر كلّ منهما بزيّ الآخر؟ فتوى ما إن عبرت باله حتى طردها نظراً لعبثها وسخفها. ثم ما لبث أن سمع المرأة تردف وقد مسحت دمعها وبدت كأنّها تغالب الضحك:

- احك يا حمو للفقيه رأي ذاك القاضي «كيتو و يشويني فيه»، قال أن ألبس لباسك وتلبس لباسي كلما خرجنا معا، وجاء لنا بآية قلت كلُ كلامه فيها بهتان. ذكرني بالآية يا حمو، يذكرك الله بالشهادة.

- ﴿ هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن ﴾ من سورة البقرة.

- ويلي! مولاي يعطيه اللقوة.

-اخرسي يا امرأة. لا تشهري بمن أفتى في أمرنا الغريب حسب اجتهاده.

- والآن نسمع رأي سيدي الفقيه. لكن لا ثم لا لكلامك يا حمو عن خادمة تمشي معي عوضك. المرأة لا يحميها من الرجال غير الرجل. هل قلت العيب يا ناس!

ظنَّ عبد الرحمن الفرصة سانحة لاطلاع الزوجين على مقدار اهتمامه بقصّتهما، فقال مندفعاً:

- خلاص.. «طاحت وجبرناها». أقول قولي هذا وأستغفر الله إن لغوت أو تعجّلت؛ أقوله لا من باب القضاء، فأنا ما عدت مقيما فيه،

ولا حتى من باب الفتوى أو النصح ؛ أقوله على سبيل العرض، ولكما فيه واسع النظر . . . خادمي شعبان ذاك تجاوز السبعين، لكنه قويّ البنية واليقظة، واعٍ بواجب الستر والأمانة ؛ هذا الخادم إذن يصاحب للاّ أم البنين في خروجها مقابل أن يقبل السي حمو إملائي بتعويض أقدر عليه. إذا كنت تحسن الخط والنسخ، كما قلت، فأنا أطلبك لهذا الغرض عند متمّ كلّ شهر إلى أن يحلّ موعد ذهابي إلى الحجّ. وأكرّر أن ما أقوله عرض ليس غير.

انفرجت أسارير الحيحي وأبدى فرحة مشوبة بالدهشة، قال:

– سيّدي، لم أنتظر منك كلّ هذا الخير. أقبل عرضك على الرأس والعين، وأقوم به قبل حجّك الميمون وبعده، وحتى من دون تعويض. يكفيني شرفا أن أجالس سيّدي العلامة وأن أسمع منه وأقيّد ما يأمرني بتقييده.

– إذن اتفقنا، لكن يهمّني أن أسمع رأي سيدتك.

وجهت المرأة إلى عبد الرحمن نظرة ودّ وابتهاج، قالت:

– لولا حيائي منك يا سيّدي لزغردت أو لقلت لك رأيي بالرقص الفاسي.

– إذن اتفقنا، وموعدنا يا السي حمو في متمّ هذا الشهر، أي بعد مضي عشرين يوماً.

– مهلة أرجو من الله أن ييسّر لي فيها إعادة الاطلاع على «المقدّمة»، ياقوتة العقد في أعمالك. أما وقد اتفقنا على عرضك الكريم، فلا بدّ

أن أشهد سَيدي على شرط بيني وبين أمَ البنين: تذهب إلى الحمام متى شاءت، لكن ليس إلى غير حمّام زقاقنا، تذهب إلى التنزّه صحبة شعبان، لكن ليس أكثر من مرّة في الأسبوعين».

مال عبد الرحمن على أذن الحيحي وهمس فيها:

- زد عليها مرّة تجالس زوجتك في قارب يقوده شعبان.

- أقبل بالتجوّل معها فوق الماء ولا أعارض.

- إذن يا سيّدتي، اعلمي أن جهاد المرأة حُسْنُ التبعّل.

- هل سمعت يا أمَ البنين حكمة هذا العالم الأجلّ؟ سأشرحها لك في البيت، انهضي حتى لا نأخذ من وقت مضيفنا أكثر ممّا نستحق.

نهض الجمع، وخطوا نحو الباب حيث كان يقف شعبان كالصنم لا يتململ، وهنا قبّل الحيحي كتف عبد الرحمن شاكراً، في حين انهالت المرأة على يده تقبّلها وتمرّغ حنكيها عليها بشغف كبير وهو يحاول إيقافها عبثا، وأخيرا استقامت وتلثّمت قبل أن تتبع زوجها متنهّدة متعثّرة.

قال عبد الرحمن للخادم، وهو يغالب انفعاله وتأثره بدفء تلك الأنثى:

- إلحق بي يا شعبان بعد صلاة الظهر أحدّثك في أمر؛ أما الآن فهيّئ طعامك وسخّن ماء طهارتي».

الفصل الأوّل

الإملاء في الليالي السبع

" رجل فاضل، جمّ الفضائل، رفيع القدر، أصيل المجد، وقور المجلس، عالي الهمّة، قويّ الجأش، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدّد المزايا، شديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصوّر، بارع الخطّ، حسن العشرة، مفخرة من مفاخر المغرب" .

لسان الدين ابن الخطيب / **الإحاطة في أخبار غرناطة**

" ولازم (ابنَ خلدون) كثيرون في بعض عزلاته، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم، وتردّد هو للأكابر وتواضع معهم ومع ذلك لم يغيّر زيّه المغربيّ ولم يلبس بزيّ قضاة هذه البلاد لمحبّته المخالفة في كلّ شيء" .

شمس الدين السخاوي / **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**

حاشيتان

-1-

حمو الحيحي، هذا الذي أصبح كاتب عبد الرحمن، يمكن تشبيهه من حيث الخلقة بابن جزي كاتب ابن بطوطة الطنجي. فكلاهما رجل حـزُقَّـة، ذمـيـم الوجـه، أعـمـش من كـثـر القـراءة والنسخ، إلاَّ أن الأول-والحق يقـال- يمتـاز عن الثَّاني بتـوقـد ذكـائـه ومـرحـه ورباطة طبعه.

حمو الحيحي ليس من الكتاب الذين يسلكون في تقييد الإملاءات منهج السمع والطاعة، أو يباركون في عمر مشغليهم كلَّما فتحوا أفواههم وركبوا الجمل والفقرات شفاهة، أو يقيدون كلام هؤلاء ولو أطلقوه على العواهن جزافاً، ورصَّعوه بغرائب اللفظ والمعنى.

مثلاً، لو أنَّ المصادفة شاءت أن يحلَّ هو محلَّ ابن جزي أو ينوب عنه، لسجَل على مضض حكاية ابن بطوطة عن النقابين عن الجوهر بالغوص في الوادي العميق بين سيراف والبحرين، ولتابع رواية هذا المُحال بنوع من التباطؤ والكسل: [*ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغيلم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم*

أيضا شكلا شبه المقراض يشدّه على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين ما دون ذلك، فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديدة عنده معدّة لذلك...] . أمّا حكاية ابن جزي عن تصدّي ذلك السلطان بمفرده لبني عبد الواد أثناء معركة حول تلمسان، فلو أملي صنوها على حمو لآثر طرح أوراقه وكسر أقلامه على نقلها بنصّها وفصّها ومضى بدون رجعة، لاعناً التزلّف والمتزلّفين، تاركاً فم التخريف يقول: [*وأمّا مولانا، أيّده الله، فإنه أقدم على عدوّه منفرداً بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحقّقه أنه لم يبق معه من يقاتل. فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الأعداء، وانهزموا أمامه. فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد*] .

الواقع الذي لابدّ من توضيحه أن الحيحي لا يقف مثل هذا الموقف تعنّتاً أو وقاحة، بل لأنّه يمتهن الكتابة عن اقتناع وحبّ، وليس للارتزاق أو السخرة. وهكذا لم يدخل في خدمة من بات يسمّيه ألفة المعلم أو العلاّمة إلا بعد إعادة الاطلاع على كتاب «المقدمة» الذي أعجب بما فهمه منه.

-2-

كانت لقاءات عبد الرحمن بكاتبه تتمّ غالباً في غرفة مكتبه بمنزله المتواضع، مكتبه الذي أثّثه على الطريقة المغربيّة مع إضافة رفوف ومرافع على الحيطان تأوي ما عزّ من كتبه. أمّا المواعيد فكانت عادة بعد

صلاة العشاء بساعة. وتستمرّ أحيانا ساعة بعد منتصف الليل. والجدير بالإشارة أن جلساتهما الشهرية لم تكن كلّها مخصوصة للإملاء والتقييد، بل كان يتخللها كذلك كلام الرجلين في موضوعات شتّى متفرّقة؛ فالحيحي، الآتي دوماً بصحون أكلات مغربية من طبخ زوجته، كان عند المناسبة يتحدّث عن سوء معاش الناس وبذخ السلطان وحاشيته، أو عن سعادة زوجته بجولاتها بصحبة شعبان وإصرارها على أن يأكل العالم من طعام يديها. أما عبد الرحمن فكان يقضي بعض الوقت في استخبار كاتبه عن أحوال مصر، أو في الإنصات إليه وهو يقرأ فصلا من كتاب ملبّياً دعوته إلى ذلك.

ليلة متم صفر

في جلسة ليلة الإملاء الأولى، كانت تتوسط عبد الرحمن والحيحي صينيّة القهوة وطبق تمر وحلوى، وتنير أوراق الكاتب وأقلامه شموع متفاوتة الحجم والضوء. وبعد أن دار بين الرجلين حديث ذو شجون، تعاونا على نسخ مقاطع من *مروج الذهب* للمسعودي وأخرى من مخطوط *رحلة ابن بطوطة*. وحين انتهيا قال العلامة :

«هل يتّسع عقلك، يا حمو، أو حسّك الطبيعيّ، لتصديق نزول الإسكندر في صندوق زجاجي إلى قعر البحر، وذلك بغية تصوير الدوّاب الشيطانيّة، التي تمنعه من تشييد مدينته، ثم وضع تماثيل لها تناط بها مهمّة تخويفهما وتطريدهما؟

لم يتردّد الحيحي في الإجابة نفياً بحركات من رأسه وكلتا يديه وقال :

-لم أصدق قصّة ابن بطوطة عن تغلّب أبي عنان بمفرده على جيش كامل، ولا حكايته عن الأمير نفسه أن قتل الأسد عنده أهون من قتل الشاة، فكيف أقبل ما هو أوغل منهما في الاستحالة؟

ابتهج العلاّمة لموافقة كاتبه له في هذا الباب. واسترسل قائلا:

«أسقط القصّتين اللتين ترمز إليهما من حساب رحّالتنا، فهما، حسب النصّ، من بنات أفكار كاتبه ابن جزي ومستملحاته. واعلم أنّ ابن جزي قد عيّنه للتقييد السلطان أبو عنان نفسه، ثم أكمل البقيّة من رأسك.

- هذا الإيضاح لم يكن في علمي، إلاّ أنه لا يبرّئ ساحة الرحّالة تماماً.

- اتركنا الآن من هذا وسجّل ما يلي: في الحدود بين الممكن والمحال، كما في جلّ المسائل الخلافية، لا غنى لنا عن الاحتكام إلى التجربة. من عارضنا في قصّة تمثال الزرزور، فلنطلب منه أن ينصب صنوه وينتظر خروج الزيت منه بعد أن يأتيه الزرازير بالزيتون. ومن خالفنا في حكاية بناء الإسكندرية، فلندعُه إلى تكرير فعل الإسكندر، حتى نرى إمكان تنفّسه داخل تابوت زجاجي في الماء مقرونا بإمكان عودته إلينا حيّاً يرزق، وهكذا إلى آخر الخرافات المناقضة للعقل وللمجرى الطبيعي ومستقرّ العادة، المانعة لقيام العلم.

كان من ديدن ابن خلدون أن يُطرق متأمّلاً كلما لجّ كلامه في الجدّ، فيطلب من كاتبه تقييد ملحوظات وتدقيقات، قال هذه المرة:

«سجّل عليَّ يا حمو هذه اللطيفة، سجّلها حتى لا يظن أني من وجوه العلم الكالحة المتشنّجة، أو من الذين يفكّرون بطرق دائرية أو مربعة، ولا يدركون الوجود إلا في ظل المعادلة وهيمنة الأرقام. سجل أني لا أنفر من الحكايات الممتنعة، ولا أشهّر باستحالة مدلول لفظها إلا

حين أراها مؤثّثة أمّهات المصادر في التاريخ. جائلة صائلة من دون راع محقق ولا ناقد مدقّق. أما خارج هذه السياقات، فما أروع أن نختلي بها في أوقات ضيقنا وقنوطنا - الكثيرة في هذا العصر العصيب - ؛ فنطالعها ونركبها من زاوية الإمتاع والمؤانسة! زاوية لا اعتدال ولا هواء في حياتنا إلاّ بها.

مهارة الحيحي في مجاراة الإملاء لا تضاهى، وقدرته في سرعة التقييد يضرب بها المثل؛ لكنه، هذه المرّة، اضطر إلى تأجيل التنقيط والتنميق لما رآه من غليانٍ وفيض في شجيّة جليسه وخاطره. وسمع هذا الجليس يردف قائلا:

«سجّل يا حمو، فما انتدبتك لغير هذا: سجّل أني حلمت مرات نائما أو يقظا، بالزرزور وقد حلت روحي فيه، فطارت حاملة الزيتون تلو الزيتون إلى أفواه البطون الجائعة على امتداد قطري.

«سجّل أني رأيت يوما فيما يرى النائم مدينة النحاس بصحراء سجلماسة، وقد ولجتها من أحد أسوارها، فلم أصفق ولم أرم بنفسي حتى لا أغيب فيها آخر الدهر، بل سمّيت من له الاسماء الحسنى، وفاوضت حرّاسها الصناديد في جولة سياحيّة، فقبلوا شريطة أن ينسوني مشاهداتي داخلها ما إن أغادرها. وهكذا كان: رأيت المدينة رافلة في الروائع والعجائب التي لا تنضب ولا تحصى. رأيت من الجمال والعدل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولا تسألني عن متون ما شاهدت، فقد امّحت كلّها من ذاكرتي، ولم تبق إلا ذكرى روائحها العبقة الزكية...

، سجّل كذلك يا حمو أني في بعض ساعات تصدّعي وتحسّري أجلس حذاء البحر، فتتكاثف في ذهني استيهامات تفضي بي إلى تابوت زجاجيّ، فترسلني إلى قاع المياه، لا لمطاردة دوابّ شيطانية، بل لاستقبال الكائنات والنباتات البحريّة الباطنيّة، وتلقّيها على الرأس والعين وبالترحاب والراحة. ولا أخفيك أنّ فضولي الفطري يحدو بي إلى توهّم الهبوط إلى البحر، لا للتفرّج فحسب، وإنما أيضا للتنقيب والتحقيق في أعلام المياه وأعيانها، كما في عامتها وسوادها، لا سيّما وأن بضاعتي في هذا الباب دون بضاعة أرسطو أو الجاحظ. لكن وضّحْ أن ارتيادي لعالم الماء على توهّم ليس للتأكد من أن للسقنقور أيرين وأن لحمه يداوي العاجز عن النكاح، وليس لمراقبة الدوابّ البرمائية الأخرى من خيل ودخّس وكلاب وخنازير، وغيرها من سكّان البحيرات والأودية والأنهار والخُلجان؛ فهذا كلّه لا بأس بعلمنا فيه، والمزيد منه يواتي جهازنا ويوافيه. لا، بل فرضيّتي إنّما أضعها في أعماق البحار وأجوافها، حتى أرى: هل ينم صمتها المطبق اللامتناهي عن عصبيات ومصطدمات الأهواء الرياسية في حومات حيتانها وأسماكها وحشراتها، وربما حتى في مروج أو تضاريس نباتاتها المقيمة والمرتحلة... قد تغلبني زحمة الصمت لقصور الآلة وضعف الباع، إذ ذاك سأطوي افتراضي المكسور الجناحين، وأبقى ما شاء الله ناظرا في لوحات الجامد والحيّ تحت الماء، مؤولاً حركاتها وسكناتها من باب الحمد لله والصلاة على النبيّ، أو من باب الغمزات والخلاعات...

هل تتابعني يا حمو؟

أجاب الكاتب والعرق يتصبّب من وجهه:

- أقلامي وأوراقي معك تحت الماء يا معلّم!

- إذن أختم هذا الفصل مقيّداً أني لست من ناكري كنه الحلم العجيب، بل من مستطيبيه عند مقامه الأنسب الأرضي. ولست من افضي الحكايات الغريبة اللطيفة، ذات الإيحاءات القديمة- الجديدة، ل من مستقبليها بالتهليل والترحاب في دوائر التخيل والإيهام... لخلط بين المعايير والأقيسة، وتسطيح العتبات والأقضية من سلوكات لمصحّر المترسّب فينا، سلوكات الأعرابي عاشق الطيّ والإخلال، لتي لا خلاص لفكرنا إلا بإزاحتها وتطهير منهاجنا منها. وللكلام في هذا بقية».

راودت حمو رغبة مساءلة عبد الرحمن عن شغفه بالعمق في كل شيء، لكنه صدّها أو قلْ أجّلها مخافة أن يزيد يده تأليما ويتسبب في تمديد جلسة أعلن المعلم رفعها.

حين بقي عبد الرحمن وحده، تمدّد في مكانه متكئاً على مخدّة، وشرع يهمهم بموشحه المفضّل منشداً، فسمع منه:

في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى   بالدجى لولا شموسُ الغررِ
مال نجمُ الكأسِ فيها وهوى   مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ

حين لذّ النومُ منّا أو كما   هجمَ الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارتِ الشهبُ بنا أو ربما   أثرتْ فينا عيونُ النرجسِ

حاشية

حين عاد الحيحي إلي بيته وأكل وشرب، قفز كعادته في حضن زوجته، وحدّثها طويلاً عن نقائب مشغله الجديد، عن ذكائه الثاقب وقدرته الفريدة على التمييز وإدراك الأمور في مقاماتها ونصابها، وعلى التحلّي بازدواجيّة محمودة طلب من محتضنته عبثاً أن تسأله عنها، فقال إنها انغماسه في العصر وخباياه ثمّ انفلاته منه عند ضرورة الاعتصام والعزلة. وحين لاحظ أنّ زوجته منصرفة عنه إلى فلي رأسه ودلك يده اليسرى (يده العاملة)، همس لها أنه قد يبقى في خدمة المعلّم ولو من دون مقابل، فضحكت استهزاءً وقالت: «ونعيش بإيش؟ ببركتو ونفحاتو!».

على فراش النوم سأل حمو نفسه بصوت مسموع: «لماذا المعلّم شغوف بالعمق في كلّ شيء؟»، فنطقت زوجته وقد جذبته إليها وأطفأت القنديل: «سل واحده من عشيقاتو العميقات».

ليلة متم ربيع الأول

في مطلع هذه الليلة دار بين الرجلين كلام، بعضه كان عبد الرحمن يطلب من كاتبه تسجيله، وبعضه كان ينصح بتركه في مهبّ ريح اللحظة الفانية.

بدء الكلام كان السبق إليه للحيحي، الذي طوى عوائق التردد والتلكّؤ وبادر جليسه بسؤال عجز هو وزوجته عن حلّه: العمق! لماذا يجنح عبد الرحمن في كلّ شيء إلى العمق؟

«جوابي يا حمو- وسجّله إن شئت- قد فكّرت فيه من قبل طويلاً، فلم أجد فحواه إلاّ في كون العمق، أي دنيا اللبّ والأس والقواعد، هو الذي يجنح بي إليه ويجذبني. ولولاه أو بدونه، ماذا يبقى غير المسطّحات والأزباد؟ ماذا غير بيداء القشور والأوهام؟

«تصوّر لو كنت حيال العمق في مجهلة، أو حتى في سهو أو مغفلة، تراني أقدر على أكثر من اللزوق بالمظهر والتخندق فيه، مصرّفاً الأيام بشتّى أنواع التلهيات والسكرات! لو حدث لي هذا -لا قدّر الله! لكنت مثل ألوف الفقهاء من قطري، أتمذهب وأحشر ذهني كلّه في وضع المختصرات والحواشي، أو لكنت نقّال أخبار السير السلطانيّة والمفاخر والمآثر الأميريّة، كاتبا بماء الذهب عن أرباب الوقت والرقاب، عن حركاتهم وسكناتهم واستعمالهم لليل والنهار. لو حدث ذلك

لربما كنت أيضا رحالة على وجه البسيطة. جماعة للحكايات والصور الغريبة العجيبة...

سيدي (قال الخيحي مقاطعاً)، هل أحيل القارئ في هذا المقام الأخير إلى ***تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار؟***

- دع عنك الإحالة وخفف عن ابن بطوطة تسلمْ من قلة الفطنة والفهم.

- أفهمني كلامك حتى أفطن لسرّ اعتراضك.

- صاحب ***الرحلة*** وعبد ربه هذا، كلانا شكا من غمّة العصر الشديدة، وكلانا حاول كشفها على قدر طاقته وجهده، هو بهجر الأحباب من الذكور والإناث والمهاجرة إلى محطات السياحة في أرض الله الواسعة، وأنا برحلةٍ - من صنف آخر - إلى العمق الذي حدّثتك عنه، أي بطواف داخل قطر قائم محدد، جدَ إنساني من دون أن يكون عادياً، وجد مغاير من دون أن يكون متوحشاً... لكلٍ منا إذن عصا تسياره، يمشي بها حيث يرى البصيص من الأمل، أو يتوهم اليسر مع العسر والفرج بعد الشدة؛ فادركْ هذا واتعظ.

- يخلق الله، يا سيدي، ما يشاء ويريد، ولكني، على كلّ حال، أكثر ميلاً إلى إملائك وارتحالك، وإن كنت في فترات بطالتي أرجع إلي حكايات الرحالة الطنجي، فأضحك سني أو أتعجب لبعضها، وأرويها لزوجتي أم البنين، فتولول مرددة «سكيكو حادة»، أو تهرب ثافلة في صدرها. مثلا، قبائل السودان التي تتمرّغ في التراب إجلالا لأميرها، عجيبة !وآخرى تستعمل الملح كنقود، عجيبة ! وأخرى تأكل جيف الحمير والكلاب أو اللحوم البشرية، عجيبة !

- الإنسان يا حمو ابن عوائده بالتأكيد، وربما كان حتى ابن مناخه. وكم من أفعال نأتيها نحن قد تبدو للسود أو الصفر شاذة غريبة !

- تدقيقات الرحّالة عن تلك الأصقاع لا تنسى ! كقول قبائل هناك إن أكل الأبيض مضرّ لأنه لم ينضج، وأكل الأسود أنفع لأنه أنضج.

- إذن لا خوف عليك يا حمو إن سقطت بين أيديهم.

- وكقول قبائل أخرى إنّ أطيب ما في لحوم الآدميات الثدي والكفّ. . . أمّا حين يقرّر رحّالتنا أنه كان يرى بأمّ عينه حتى في رمضان الخدم والجواري والبنات عرايا باديات العورات، فأمر عجيب والله من وجهين: حدث العراء في حد ذاته، وتسريح النظر نحوه من طرف الزائر الفضولي المحقّق. ألم يكن من الأليق بهذا الفقيه المالكي أن يغضّ طرفه، خصوصا في شهر الطهر والعفّة!

ابتسم عبد الرحمن وقال:

«عجيبة ! لكن لم لا تحفظ من رحلة زميلي قصصاً أخرى قد تفيدك في دينك ودنياك ؟

- وهل هي عجيبة؟ .

- هي كذلك من وجهة غير وجهة التعرّي أو أكل اللحوم الآدمية. أذكرك بواحدة منها حتى تعتبر: إنها تلك التي رواها ابن بطوطة في حضرة السلطان أبي عنان عن كرم ملك الهند محمد شاه ابن تغلق تجاه رعيته، وهو كرم خارق للعادة، بحيث كان إذا سافر أحصى سكان دلهي، ورصد لهم من ماله الخاص رزق نصف عام، ثم إذا عاد إليهم أمر

بنصب المنجنيقات في الحقول لتقذف بها شكائر الدراهم والدنانير على المحتاجين وأهل الفاقة.

- قصّة حقا عجيبة ! ولا سيما أنها تشير إلى استحالة الهند في المغرب. وكيف استقبلتها حاشية السلطان يا سيّدي؟

- بكثير من التغامز ، والحق يقال، وبإدارة السبابات في الأصداغ، هذا فضلاً عن الطنوز والقهقهات المنكرة.

- حاشية الخساسة والتقتير، حاشية الفساد والبراطيل، هل كان لها أن تلقى مأثورات الكرم بغير السخرية والتكذيب! وأنت، سيدي، كيف وقفت من القصّة؟ موقف العمق ولا شك!

- حقّقت فيها وفاوضت، فرأيتها إلى الاحتمال أقرب وعن الإنكار أبعد.

- والسلطان أبو عنان، هل ظلّ، بعد سماعه القصّة، متربّعاً فوق سريره على عادته في التربّع أم تململ وتضايق؟

أطرق عبد الرحمن برهة، مبدياً بعض التبرّم والتردّد، وأردف الحيحي قائلا:

- جوابك إن كان لغير التقييد أو الإفشاء، فبُثّه سراً إلى قبر صدري، ولا عليك .

- تحكّ الدبرة يا حمو، وتعصر الحنظل في الجرح. أمير المؤمنين لم يستنكر القصّة أو يعاقب راويها، بل تلقّاها بالتأمّل والخشوع، كأنّما هو تهادى بين عينه البصيرة ويده القصيرة، أو غبط ملك الهند وشعر بالعجز عن تقليده... والآن اترك ما أبعدنا عن الإملاء وعد بنا إلى تقييده.

- إني أذن صاغية. ويد متحركة من يمين الورق إلى يساره، حتى مطلع الفجر إن رضيت.

- حرك يدك إذن بهذا الاستدراك: حقًا، رغبت دوماً أن أتعمق في معرفة الواقعات والمادة التي للأشياء، وأن أرصد سنن التبدل والانقلاب، لكن، في المقابل، كم مرة كبوت وتسطحت !

مثلك، يا معلم، يكبو ويتسطح؟

- لا تقاطعني يا حمو، وسجل أني ابن عهدي على أيّ حال، رغم أن لي في التملص والقفز استطاعة. ابن عهدي، أي ابن حسناته، وهي لسوء الحظّ قليلة، وابن مثالبه، وهي لسوء الطالع كثيرة، نظرا لتفكك العهد وضعف منحناه.

«ففي باب المثالب، الذي أخصص الإملاء فيه، كم تركت العاطفة تتلف عقلي، وتعمي بصيرتي أمام الواقع. هكذا، مثلا، أطنبت في الدفاع عن خلفاء عباسيين ضد تهم تعاطي الخمر والتهتك والفسق، وكان الأحرى بي أن أسكت أو أفوض الحكم إلى الله الأعلم، لا سيما أني في النظرية أعتبر تلك الزلات وليدة كل حضارة مترفة باذخة، كما كان الحال بالذات مع أولئك الخلفاء. ثم إني من جهة أخرى تكلمت في اختلافات الفرق المسيحية حول وضع المسيح عليه السلام، وحكمت فيها وكأني أنتمي إلى إسلام الفجر والفتوحات، وليس إلى عصر تلاشي الأندلس بفعل المدّ المسيحي الكاسح: ففي مقطع من مقدمتي- أتمنى حذفه- أرمي تلك الفرق كلها بالكفر وأقول بالحرف: [*لم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال، إنما هو الإسلام أو*

الجزية أو القتل]. كلام في غير وقته ولا سياقه يا حمو، كلام أشبه ما يكون بمنطق العاجز المتنطع.

«ولا ريب أني تسطحت في مواضع أخرى وكبوت، فتنكرت لمبدئي الداعي إلى تأمل الأخبار وعرضها على القوانين الصحيحة حتى يقع تمحيصها بأحسن وجه، فسهوت عن وصية علي كرم الله وجهه: «اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية، فإن رواة العلم كثير ووعاته قليل».

«من مواضع سهوي وكبوي الأخرى يا حمو أني تعبدت بعصبية النسب، رافعاً مفهومها إلى سدة المفاهيم الطاغية، فأرتني أشياء وحجبت عني أخرى. وما حجبته كان من صعيد ما لا يجوز للمؤرخ تحقيره أو إهماله، منه على سبيل المثال حقيقة التمردات غير الموفقة، وحقيقة الثوار ودعاة المعروف الذين نعتهم بأفدح الأوصاف القادحة المسفهة. فكنت في هذا الموضع المخصوص أقف مع المتغلب الأقوى، فأحصر التاريخ في الأخبار عما يكتبه منطق الغلبة والقوة، وأبقي خارجه جماهير المغلوبين ومن لا تعضدهم عصبية.

«أما ذنبي البليغ، فقد اقترفته في بعض كلامي عن صوفية أبرار. لذا يحق من يقول إن رسالتي ***شفاء السائل*** عمل فج هزيل، محكوم باستجابة لدعوة سياسية إلى مناهضة فشو التصوف الشعبي والزوايا، وإلى تقرير شروط كل مريديه داخل حدود التعليم والتربية السنية السائدة. ومن أراد فهم سكوتي عن تلك الرسالة فلير سببه في كوني أستصغر نتاجاً كان وليد قضية سيئة الانطلاق، زاخرة بالمزايدات، قضية دفعتني في آخر المطاف إلى تشريع العنف في حق

كتب صوفية من الأمهات. فأفتيت بما لا يشرفني، وقلت ما نصه:

*[وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة، وما يوجد من نسخها بأيدي الناس، مثل **الفصوص والفتوحات المكية** لابن العربي، و**البد** لابن سبعين، و**خلع النعلين** لابن قسي. فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار، والغسل بالماء، حتى يمحي أثر الكتابة، لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين، بمحو العقائد المختلة، فيتعين على وليّ الأمر إحراق هذه الكتب دفعاً للمفسدة العامة، ويتعين على من كانت عنده التمكين منها للإحراق].*

«ولا رجاء لي اليوم إلا أن يقدم كل قارئ لهذه الفتوى على تحريقها، أو غسلها بالماء، حتى يمحو أثرها ويريحني من إثمها.

«في السياسة وشواغلها، كثيرة كانت أيضا معاطبي وزلاّتي. لا أعيب على نفسي أنّي في مصطدم أهوائها وعقدها كنت ابن جيلي، ألعب مثله على حبال المتناقضات، وأتلوّن بألوان الظروف والملابسات، متقلّباً بين حال وحال، متحالفاً أو متنكّراً بحسب ما يقتضيه المقام أو غريزة البقاء. العهد في المغرب كان ولا يزال مشحونا بسنن التآمر والقتل، معتوراً بشقوق التداعي والصدع، حتى أن الهروب من شرك هذا الأمير يوقعك حتما في مصيدة آخر. فلا يبقى على من هو في موقفي إلا مهادنة الأحوال ومطاوعة الرياح، ملبّيا أوامر أرباب الوقت باستئلاف الأشياخ وإجلاب القبائل، متحيّنا فرص الحج أو الخلوة في الصحراء والبوادي. لا، ليس هذا ما أهجو به نفسي، بل بميلها إلى استهواء السلطة الملذوذة والطمع في المناصب الرفيعة،

التي رأيت من هم دوني معرفة وكفاءة يبلغونها بالتسلّط والزلفى وإحسان فنون الدسائس والسعايات. وهكذا استسهلت، وأنا في بلاط أبي عنان، التفاهم مع ضيفه المعتقل أبي عبد الله أمير بجاية المخلوع على أن أيسّر له فراره إلى إمارته وأقبل حجابته ما إن تستتب له الأمور. [ومعنى *الحجابة-في دولنا بالمغرب- الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وأهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد*].

«قبلت بالصفقة السرّية بسبب ما كان بين أسرتي وسلف ذلك الأمير الحفصيّين من عروق الودّ والتراحم. لكن سرعان ما انكشف أمري وانفضح، فألقاني المريني في غيابة سجنه نحواً من سنتين. وهنا تبيّن لي أني كنت أضمر لهذا السلطان، رغم بأسه وعزمه، كرها نقبت في مبرّره فألفيته على وجهين: وجه قريب يقوم في كون المريني لم يكن يعهد لي إلا بأعمّ المناصب وأوسطها، كتلك التي عهد لي بها الحاجب المستبدّ على تونس بن تافراكين في بدء احتكاكي بالوظيفة؛ ووجه يتمثّل في كون ذلك السلطان اغتصب عرش أبيه أبي الحسن، طاعناً إيّاه في الظهر، وطارده في جبال المصامدة، بعد أن فشل أبو الحسن في إحياء النهج الموحدي، وذاق مرارة الهزيمة في القيروان على أيدي الأعراب المتّحدين، وعاد على جناح الكارثة إلى مغربه، كما رويت في كتاب *العبر*. وصحابة هذا السلطان الأكحل من العلماء لن أنسى ما حييت فضلهم عليّ في إيقاظ همّتي وتجرّدي للعلم.

«لم ينته اعتقال أمير بجاية إلاّ أواخر عهد أبي عنان، أمّا أنا فتلقيت وعداً من هذا بتحريري على أثر قصيد تضرّع وشكوى من مائتي بيت نسيت لحسن الحظّ معظمها. ولم يطلق سراحي إلاّ بعد موته خنقاً على

يد وزيره الغودودي. ثم كانت توليتي على الكتابة عن السلطان أبي سالم في السرِّ والإنشاء فالفيئة إلى غرناطة عند بني الأحمر. وهنا خصني أميرها محمد الخامس ووزيره ابن الخطيب بحفاوة استقبال منقطعة النظير، وحسن ضيافة قاربت السنة. حتى إذا حلت سنة خمس وستين وسبعمائة، كلفني الأمير بسفارة وهدية معتبرة إلى الطاغية ملك قشتالة، بطره بن الهنشة بن أدفونش، بإشبيلية، مدينة أجدادي. وكان غرض المهمة تمتين الوفاق بين أمراء العُدوة وبين هذا الطاغية حتى يقوى به على محاربة الأرغونيين أعداء المسلمين. وأثناء إقامتي بإشبيلية معززا مكرما، قابلت إبراهيم بن زرزر، وهو طبيب يهودي كنت تعرفت عليه من قبل في بلاط أبي عنان المريني، وأذكر أنه حدثني في السر عن قساوة الطاغية المتأصلة وحياته الهوجاء الماجنة، وأكد لي ما أتاني من أنباء عن تزايد الشرور التي يتبارى الأرغونيون والقشتاليون في إنزالها بالأهالي المسلمين واليهود تحت حكمهم، وحتى بمن تظاهر من هؤلاء تقية بملة الصليب... طاغية غير مأمون الجانب والعشرة هو بطره القاسي! فكيف لا أقابله بالإمتناع وكل الأعذار الصحيحة والمختلقة، حينما عرض عليَّ تمليكي تراث سلفي بإشبيلية بشرط أن ينتظمني في بطانته!...

«أما الغرض من هذا التذكير وما حام حوله. فبرِّزه يا حمو بدءا من إظلام الجوِّ في غرناطة بيني وبين صديقي لسان الدِّين، الغيور على انفراده بالمنصب العالي والحظوة الأميرية، ثم نزولي إلى بجاية متلهَفا لأرقى وظيفة، طامعا في جني ثمار معاضدتي لأميرها أبي عبد الله أيام محنته. وفعلا ما إن دخلتها حتى نلت منه ما ابتغيت، فقضيت وقتا في

الحجابة على الاستبداد، من جمادى الأولى ست وستين إلى شعبان سبع وستّين وسبعمائة. ويا ما تعاظمت في هذا المنصب وتبخترت، حتى أن نبراتي الصوتية تصلّبت وتسلطنت، وأوداجي امتلأت وانتفخت، وإشاراتي تعجرفت واحتدَت. وكيف لا تحصل لي هذه التحولاَت وأخرى وأهل الدولة أصبحوا يباكرون بابي، والهامات والظهور أضحت تنحني أمامي، وأمارات الأبّهة تحوط سيري وقعودي!

«لحسن حظّي أنَ انخداعي واغتراري لم يعمر أكثر من سنة ونصف، إذ تبخَر مع مقتل أبي عبد الله على يد ابن عمّه أبي العبّاس سلطان قسنطينة، فاضطررت إلى مشايعة الظافر وتمكينه من بجاية، حتى إذا تحيّنت الفرصة التجأت إلى أحياء الدواودة، ثم إلى بسكرة عند ابن مزني.

«على ضوء تجربتي الفاشلة تلك استخلصت عبرتين: واحدة عملية والأخرى نظرية؛ أمّا الأولى فقد حدث بي بعد عامين تقريبا إلى رفض عرض الحجابة عليّ من سلطان تلمسان أبي حمو، مردّدا في نفسي (المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرّتين)؛ وأمّا الثانية فقد ألهمتني فكرة وعدت نفسي بتحريرها ما إن يخلى سبيلي ويتمّ لي الإعراض عن الخوض في أحوال الملوك: [*في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها*]، هذا ما كتبت على وجه بطاقة، وعلى ظهرها قيّدت: [*الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيويّة والشهوات البدنيّة والملاذّ النفسية، فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلّمه أحد لصاحبه إلاّ إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب*].

«مجمل القول، يا حمو. أني في المعرفة ذو أخطاء وفي السياسة كمن يكثر الحزَ ويخطئ المفصل، ولا كمال لمن انتمى إلى زمن أفسد من السوس».

توقّف الحيحي لحظة لإراحة يده أو لصرف جليسه إلى موضوع آخر غير تأنيب الذات ونقدها، قال:

- العصمة لله ولرسوله يا سيّدي، وما أوتي النّاس منها إلاّ القليل، وأما مقاديرك منها فمعتبرة، وأمّا هفواتك أو فلتات لسانك فلا شيء هي أمام عمقك المجيد.

- تريد التخفيف عنّي، لا شُلّت يمينك.

- لو أردت مجرّد هذا لما تركت سؤالا محيّرا يطوف بذهني منذ عرفتك، إنه عن تعلّقك بشجرتك، أستسمحك في طرحه عليك، لا سيما أني لا أعرف عن شجرتي شيئا، أو ربّما ليست لي شجرة على الإطلاق ... لا أحاجج في أنك حضرمي منسوب إلي جدّ من أقيال العرب، هو الصحابيّ وائل بن حجر، الذي بارك سيّد الخلق فيه وفي ذريّته، وخلف من بين ولده، بعد أن قتله معاويةَ، جدّك خالد خلدون الداخل من الشرق إلى الأندلس. لا أحاجج في هذا كلّه، ولكنّي أفترض جدلا أنّك ولدت بغير ذلك النسب العريق، لا شجرة تظلّلك، ولا جذور توثقك، فهل كنت ستفقد شيئا في القدر العميق، أو في الطاقة والجدارة؟

صمت عبد الرحمن لحظة، ثم تخلص من عمامته وقال طالباً الكتابة بإشارة من يده:

،قيد أني في مدخل *التعريف* إنما ذكرت شجرتي من باب التذكير بقول النسابين الثقات فيها، وليس للتبرج والمباهاة أو لجر أذيال الخيلاء. وكيف أفعل هذا وقد كتبت بالقلم الأجلى تبدل الخصال في الأعقاب وبالقلم الأعلى الغليظ: [*البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه*]، و [*البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم*]، إلخ؟ ثمَ لو كنت متعلقا بجذوة الشجرة وجدواها أو بكفايتها في تثبيت التميز إما للفرد وإما للدولة، لما طعنت في ذيوع الشرف الموهوم، ولما رويت إعراض الأمير يغمراسن الزياني عن رهط من المتزلفين حاولوا إقناعه بانحداره من أصل شريف، إذ قال لهم بالبربرية ما فحواه: [*أما الدُنيا فنلناها بسيوفنا لا بهذا النسب. وأما نفعهما في الآخر فمردود إلى الله*]. قولة، والله، ما أبلغها وأروعها في هذا الباب ! ... تراني إذن أفلحت في رفع الحيرة عن ذهنك يا حمو؟

– رفعتها وحقَ إله النور والصفاء، وأعطيتني جواب القرع وكشف الغطاء.

–إنما دقّق أني أحب أن أنعت في المغرب بالحضرمي، وفي المشرق بالمغربي، فأكون في هذا الزمن المتصدَع ذاكرة الوصل والتلاقي».

قال عبد الرحمن كلامه هذا وانتصب قاصدا الباب، مودّعاً، ذاكراً كلمته الختمية: للحديث بقية.

ليلة متم ربيع الآخر

ما إن استوى الرجلان هذه الليلة في الجلوس وتسالما، حتى بادر عبد الرحمن إلى الكلام من دون أن يأمر بالتقييد. لكن كاتبه انكبَ على أوراقه وأجرى قلمه في اللقط والمتابعة.

«سيأتي يوم يا حمو، إن أطال الله العمر، أحكي لك فيه بعض محطات حياتي من زاوية قلاقلي وأتعابي. هي محطَات في المغرب على وجه، وفي المشرق على وجه آخر. فهنا إن نسيت، فلن أنسى مصادماتي مع الحضريِ المتفننَ في أساليب التآمر والخداع والتمويه؛ أمَا هناك، إن نسيت، فلن أنسى معاناتي مع الأعرابي المكشوف أو المتستَر تحت عباءة أمير أو وزير أو فقيه. العنف في الجهتين واقع وسنَة، وإن كان متنوَع التربص والحصول. لكن ليس هذا ما أريد محادثتك فيه. بل في مفهوم يلاحقني حتى أثناء مدد خلوتي واعتزالي.

«سجِل هذا المفهوم يا حمو بالقلم الغليظ: إنه التاريخ، ولا تهمل مشتقَاته من جنس التغيَر والتبدَل والانتقال والانقلاب والتحوَل... يطغى عليَ هذا المفهوم ويملأ أيامي وأعمالي حتى إني بتَ أحلم أحياناً بالركون إلى أضداده أو الانتساب، على الأقلَ، إلى أدباء المسالك والممالك أو صورة الأرض. فكم هو جميل ومريح أن تهدهدنا شهوات

السكينة والسلام. وتستهوينا رحاب بياض البدء أو انطفاء الكل في الثبوت.

«لكن كيف لي أن أستطيب تفسير سلوك الإنسان وطبعه بموقعه في المعمور وتحت النجوم؟

«كيف لي أن أربّي ذوقي على الانجذاب إلى عجائب المخلوقات والآيات الباهرة؟

«كيف لي أن أتفانى في تثبيت الطرق والأمصار، مطوّحاً بالتقلّبات في سلّة النشازات، معرضاً عن الثورات وأمواج حدوثها بالتجهّم والنكران؟

– سيّدي (لاحظ الحيحي)، تجاهل البكري المطبق لقطب المرابطين، يوسف بن تاشفين، حالة حدّثتني عنها يوماً عرضاً، وإني أضعها في هامش للتمثيل، بعد إذنك.

– همّش إن شئت، لكن ذكّر أن أبا عبيد الله، الذي يتحدّث عن مغرب لم يره قطّ، قد نجد له العذر في كون [*الأمم والأجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغيّر*]. أما عنّي فسجّل أنّ عهدي المرجّ الزاخر بخطير الحوادث والنزوعات ما كان ليتركني في ذهول عنه أو يعفي عقلي وحسّي منه. السكوت عنه يا حمو كان يستلزم منّي قدرة خاصّة في التجردّ الصوفيّ وإماتة الحواسّ، أو في الاعتصام بما لا يحيا ولا يتحرّك. أما وقد وُهبت نقيض تلك القدرة، فإني شددت لأمر التاريخ حزامه، ونَهَجْتُ في تلقّيه وتمحيصه طريقاً مبتدعاً، لا ألهو فيه بالحديث عن الحدث ولا بالحدث عن الحديث، بل أفوّض توافقهما إلى عقلي، من دون غبن حقوق بصيرتي وحدسي. النظر إلى الحياة من

زاوية توديعها أو فسخ العقود معها. هذا ما لا أتبناه أو أدرجه في جدول أعمالي، ما دمت أصبّحها وأمسّيها، ما دامت سارية في عروقي وأنفاسي... لكن، لا تحسبن أني بهذا القول أستخف بالخلود أو أقذف فيه، بل إني فقط أنعته في مقامه الرفيع العلي: حيث لا تبدل ولا تاريخ.

توقف عبد الرحمن فجأة، كأنه أدرك انفتاح كلامه على هوّة شائكة عويصة، فاغتنمها الحيحي فرصة لدلك أصابعه وحك رأسه، مفكّرا في ابتعاد أمّ البنين عن فهم أفكار جليسه. وخامرته أسئلة قد تكون أسئلتها في حالة إخراجها من مطبخها ومناظراتها النسائية، لإشراكها في حوار نظريّ هادئ هادف حول التاريخ من حيث فوائده وعبره ومعناه. قال، وعليه كلّ علامات التواضع والتردّد:

«منذ وظّفتني، يا سيّدي، وأنت تفتح صدرك العامر الرحب لاستفساراتي وملاحظاتي، بل إنك كثيرا ما تشجّعني على طرحها، حتى ولو كانت خفيفة الوزن أو ساذجة إلى حدّ كبير. هكذا تكون شيمة العالم الحقّ وإلاّ فلا.

– لا ريب يا حمو أن لك الآن حصّة منها. سُقْها إذن واستعدّ لتقييد ما طاب من أجوبتي عليها.

– أفكر الآن بالذات في أمّ البنين، فأرى معرفتها بالماضي هي والعدم سواء. إلا أنّ جهلها هذا لا يمنعها من تدبير الحياة كما تأتي، ولا من التبرّج في الحاضر وحتى الاستمتاع ببعض لحظاته. قد تقول لي إنّ الدوابّ غير الناطقة هي الأخرى تعيش في آنية مطلقة، لا معرفة لها بالماضي ولا اهتمام لها بالمستقبل. لكن لو نعتّ أمّ البنين في هذا الباب

بانتمائيا لتلك الدواب لنطقت في حقي بما لا أطيقه من القدح والتعبير، المتبوعين ولا شك بزلزلة في ركن الأواني وقطيعة شهر أو أكثر؛ وأنا لا أقدر على هذا كلّه في سبيل مدح التاريخ وترغيب زوجتي فيه. أضف إلى ذلك، أيها العلاّمة الأبرز والصدر الأرحب، أنّ بضاعة اطّلاعي، ولو أنها يسيرة، لا تعصمني دائما من ملّة الثاوين في الحاضر، الجاهلين بأخبار الملوك والزمان.

أطرق عبد الرحمن مفكّرا برهة، ثم ندّت عنه ابتسامة متلطّفة وقال:

«تؤكد لي ما لاحظته يا حمو من كون أفواه السذاجة والبراءة تنطق أحيانا بحقائق يتعب العالم في تحصيلها، أو بأسئلة مشروعة بقدر ما هي محيّرة.

- تواضعك هذا، يا سيّدي، هو بدوره فوق ما أطيقه، فلا محلّ له في أوراقي.

- أمّ البنين، أطال الله عمرها، هي في وضع جمهور النّاس، لا جناح عليها إن جهلت من الوقت ماضيه، أو اكتفت بالساعة التي هي فيها. أما أنت، فعلمك أكبر ممّا تتصوّر، لأنك نسّاخة فهّامة، تلوي على الشاذة والفاذّة، وتدفعني دوما بحذقك المعهود إلى الكلام في الهَام من الأمور.

«تريدني الآن في معضلة العبرة من التاريخ. قيّد أني قطعت حول التفكير فيها طورين على الأقلّ: طور هو الأطول لازم عهد فتوّتي وحتى كهولتي الأولى، وآمنت فيه أن التاريخ ذو فوائد شتّى، وأنه

مخزون الدلالات الكبرى وكتاب العبر المثلى؛ وطور هو الحاصل اليوم، بتُ أشك خلاله في قدرة أولي الأمر وأرباب الدول على مكاشفة التاريخ والنظر إليه كما وصفته، أو تريبني قابليتهم في ذلك. فكأني بهؤلاء، سواء مارسوا استبدادا موفقا أو بئيسا، ينهجون حكما بلا ذاكرة، ويتبارون في نسيان معاطب الماضي وزلاّته، أو في القفز عليها؛ كأني بهم يا حمو يتأبون الإنصات إلى التاريخ، أي إلى الماضي، كسلطة تحذير وتنبيه، كديوان للمعايير والأقيسة المضادة للأهواء والغرائز المتلفة. وهنا بالذات تكمن المعضلة: عامة الخلق يجهلون التاريخ بحكم معاكسة الظروف والضرورة؛ وخاصة الخلق من مدبري شؤون العباد والبلاد يرغبون في جهله، حتى لا يكون الماضي عندهم حقل تذكر وتفكر، بل ما يلزم أن يصير بالمآثر والغزوات ماضيهم هم. فماذا يبقى للمؤرخ؟ وماذا يبقى عليه فعله؟

ظنَ الحيحي أن السؤالين موجهان إليه، فبادر إلى زم شفتيه تعبيرا عن عجزه، ثم انشرحت أساريره بعدما عاد عبد الرحمن إلى الكلام:

«قيّد يا حمو أنَ المؤرخين أمام تلك المعضلة أصناف: صنف لم يصله خبرها على الإطلاق، فظل هائما في الخبر، ضائعا بين ثناياه، لا يبرحه ولا يتأمله كيما يعرضه على القوانين الصحيحة؛ وصنف أدرك معضلة العبرة، فحلها بتركها وغض الطرف عنها، خوفا منها على عاداته ومعاشه؛ وصنف لا يزال يعاين المعضلة ويعالجها بالنظر الصبور والسعي الدؤوب، أملاً في تحسّن ذهنيات الساسة وفي نهوض التاريخ أو علم العمران لدى الناشئة وفقهاء الأمة.

- لكن. ألا يرى سيدي. الذي هو من صنف الوعاة القابضين على الأمل رغم كلّ شيء، أن لجمهرة المؤرخين في انحراف علمهم عن مراميه نصيبا لا ينكر؟

-لهم في هذا نصيب، وأيّ نصيب! يحكى عن أحدهم- وهو من أهل الشكائر واللزوق، الذين ما أكثرهم! - أنه سئل: لم أنت زربيّة في قصور ذوي الجاه والسلطان؟ فقال: لأنّ وعيي غارق في أوعية حضرتهم، ومعدتي لا ترتاح إلا إلى موائدهم.

خنق الحيحي ضحكة بالعياذ بالله من الزلفى والمتزلّفين. ثم أتاه صوت المملي مشوباً بشيء من المرارة والتعب:

- هلاك فنّ التاريخ إنما يكون على أيدي محترفيه المنتظمين في سلك التعيّش والارتزاق، ومثلهم كمثل العساكر والكتبة والجواسيس، أو كمثل أدباء البلاط ومنجّميه وسائر خدّامه. الحقيقة لديهم ليست ما نقاربه بعد لأي واجتهاد، بل ما تمليه القوّة القائمة والسلطة المتربّعة؛ إنهم دوما مع الغالب، يسبّحون بواقعه على أنه الحق، ويلهجون بمنطقه وكأنه عين المعقول... لكن هل نلقي عليهم اللوم وحدهم. كما لو أنّهم مخيّرون في مذهبهم، أم نجد لهم العذر أو بعضه في قساوة الزمان وتسلّط السلطان؟ أجبني يا حمو.

- سيّدي، سؤالك عويص لا حيلة لي فيه، فهو مردود إليك: أنت الأدرى بشعاب المهنة وطباع سالكيها.

- سجّل، حياك الله، أن حكمي على المؤرّخين ليس بالجملة أو على وجه الإطلاق، بل أخصّ به اللاصقين بركاب الدولة كالغراء، سماسرة الأخبار والإشاعات، عبدة رنين الدينار وأمكنة البذخ واللمعان. هؤلاء

هم الذين أعني. لأنهم يتبعون - بالريق الناشف - أسلاك القسر والإكراه، فيقتلون مواهبهم بالعمى والدوار. ويفقدون كلَّ قدرة على معرفة الواقعات أو لمس أحوال عباد الله والبلاد... قوى البلع والضغط كثيرة يا حمو. لكن من المؤرخين من يهواها وينشدها بدافع الجشع وملء الشكائر، ومنهم من يفرّ منها أو يسلك بين تضاربها مسلك الساهر على صحّة روحه وعلمه.

- وسيّدي كان بلا ريب من هذه الفرقة الثانية، فرقة العميقين الناجين.

- لا يجوز أن أكون طرفا وقاضيا، وإذن لا تحقيق لقولك عندي، بل عند الذين سينظرون في أسباب تنقّلاتي بين عواصم العدوتين ومدائن أخرى. إنما سجِّلْ ثابتاً في حياتي، واستنبط منه ما قد يسعفك؛ إنه الكامن في نزوعي الحادّ إلى الانسلال كالشعرة من العجين، والمشي على رأس قدمي، وذلك كلّما تلبّدت حولي سحب الضغينة والحقد، وتربّصت بي دوائر القبض والفتك. الفرار الصريح في الحالات الخطيرة كان دوماً مطلبي، وحين لا يستقيم، فالتذرّع بالسفر إلى العلم أو إلى الحجّ كان من حيلي، ولا جناح على الراغب في النجاة وإعتاق الروح من أيادي الطيش والبطش».

أذن عبد الرحمن بختم الجلسة ولديه إحساس قويّ أنّه لم يستوف موضوع التبدّل والعبرة في التاريخ، ولم يطرقه من كل وجوهه. وانصرف على أمل الرجوع إليه مستقبلاً، مدفوعاً باستفسارات كاتبه التلقائيّة الذكية.

ليلة متم جمادى الأولى

حين جالس العلاّمة كاتبه، وأتى الخادم بصينيّة القهوة وبقدري تلبينة، كان المكان كعادته آمناً ومزداناً هذه المرّة بأنوار شموع مضافة، وفانوس حديث النصب. ودار بين الرجلين كلام ذو شجون كان السبْق فيه للحيحي الذي لم يدخر جهداً في إخبار معلّمه عن بعض أحوال العباد والسلطان، مبرزا وقوف هذا موقف المتفرّج أمام سوء أسباب الكسب والمعاش، ذاكراً ركون أولئك إلى سنن الكفاف المطعّم بالتنكيت عن الأكابر والأعيان وتمريغهم في وحل الإشاعات المغرضة. وفجأة انتصبت فرائص ابن خلدون كأنّه تذكّر شيئاً، قال:

«كلامك هذا يا حمو يحيي ثبتاً ظلّ منذ مدّة ثاوياً في ذهني كالسهم الثاقب، فإليك شحنه: إذا كانت أرض الكنانة لا عصائب فيها، وإنما هي راع ورعية، وكان أهاليها ليسوا أقلّ ضيقاً وانقباضاً من سواهم في بلاد المغرب، فلا سبيل إذن إلى ردّ كلّ البلايا إلى العصبيّة، ولا إلى تعميم هذا الردّ و حمله على دغم أو مسخ منطوق الوقائع... ذكّرني مستقبلا بهذا الثبت الثاقب حتى أستلهمه في موضعه.

«أما الأقرب إلى التقييد هذه الليلة، فهو التوق عندي نحو اتّساع الرؤيا كيما أنظر أكثر ممّا نظرته من قبل. هذه الأنوار الجديدة في

مكاننا هذا عربون بهي واستنزال للفأل الحسن. ولكن. واحسرتاه! الجسم في سنّي كدرٌ ثقيل، ميال إلى تعكير صفو الفكر ودفعه إلى التراخي أو الكبو. لهذا تراني كثيرا ما أكتفي بهذه التلبينة في وجباتي، راجياً من نخالتها ولبنها وعسلها أن تقي عدتي من أي داء خبيث، وتغنيني عن أطعمة قد توقظ قرحتي وتسيء إلى أمعائي. تلبينتي، عليك بها الآن حتى تشكر صانعها شعبان، وترى كيف يُوفَق في إنجاز دواء ليتني في باب الاجتماع والسياسة أستطيع تركيب ضريعه لبرء بعض معاطب المعنى وصدوع المسار».

أنهى عبد الرحمن شُرب حسائه، والكاتب يدعو له بالعافية وطول العمر، ومسح فمه ثم شرع في الإملاء المخلَل بعبَات القهوة على الطريقة المغربية :

«إني بلغت من العمر عتبة الشيخوخة، لكنّي أحسّ وكأن بداخلي ناراً تمنعني من أن ألقي على الدنيا نظرة مستوحاة من سنّي وعيائي. الغضاضة والريعان، لابدَ للحياة منهما، وإلاَ فهي والهشيم أو الغثاء سواء بسواء. لهذا، لا أراني، وإن تأخَرَتْ بي الأيام، أدقَ خيمتي في أصقاع الإعراض عن الفهم والتفكير في المصير.

«حدّثتك في المرّة الفائتة يا حمو عن مثالب العصبيّة، وبحت لك بانجذابي اليوم إلى تلمّس بديلها الأرفع. ورغم أنَ نظري لا يزال ينقب هنا وهناك في انتظار أن يختمر الفكر ويتلاءم المفهوم والوجود، فإني أستعلم حقلي بما يلزم من إشارات التنبيه إلى السقوط في ما انتقدته عند كتَاب الأحكام السلطانية ونصح ملوك الإسلام، كما عند فلاسفة المدينة الفاضلة والسياسة المثلى. فكم هو ميسور أن أدشّن الخطاب

وأحتمه بما يجب أن تكون عليه مراكب التاريخ ومراسيه! وكم هو سهل أن أحشو العرض بالآثار وأرصعه بشذرات حكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس. أو بمذاهب مفكري اليونان في التدبير والحكم. ليس هذا هو المطلوب، لاسيما أن الممتطين صهوة ذلك الفنّ والمتفقّهين علينا فيه ما استفادوا من علم العمران شيئاً، ولا غيّروا بمواعظهم من أمر الدنيا شيئاً، وإنّما خبطوا وما دقّقوا، ووهموا وما نفعوا.

«النهج في ما أتوق إليه وأبغيه أن آتي إلى التشريع لما يلزم أن يكون، لا من منصّات الجهل بما هو كائن، بل من بوّابة طرقتُها سابقاً، ودخلت منها إلى حقول معرفة طبائع العمران والواقعات، حقول سلخت فيها عمراً وحصلت ما يمكن تحصيله بالعقل والحواس الخمس، وأعملت الاجتهاد والنظر ما وسعني الإعمال، فحقّ لي اليوم، بناءً على كلّ ذلك، أن أصوّب الرؤية إلى كيفيات الفكاك من أعناق المخاطر، والخروج من دوائر العسف والانتكاس.

«اليوم أستخبر عمّا حولي وأرى الشواهد والقرائن، فلا أستنتج إلا ازدياد النخر في جذور الأخلاق والآداب؛ والحضر على وجه العموم هم كما وصفتهم من قبل، بل و[*يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجه ومن غير وجه، فتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له*]. لكن هل يلام مَنْ هدّه الكدّ والتعب وبلغ منه اليأس أو فساد الآمال كلّ مبلغ، فدبّر حاله متلوّناً بألوان الشرّ، مدفوعا كالدابّة بغريزة البقاء والعيش! إني أستنتج ما هو أدهى من هذا وأمرّ، لأنّه مجمع العلل كلّها والأسباب،

أستنتج النكوص والوهن متفشيين في قوام الدول الخائبة. هذه الدول التي صارت لا باع لها إلاّ في تسخير النّاس بغير حقّ، وتصريف الآدميين طوع الرغبات والشهوات، وإرهاق التجار المعتمرين بالمغارم والمكوس الجائرة، وغير ذلك من آيات الظلم الذاهب بأسباب الرجاء والانشراح، المؤذن بخراب العمران، العائد بالوبال على دوائر السلطان.

«قد ذكرتُ كلّ ذلك في مقدّمتي وفصّلت القول، ولا أبغي اليوم إلا التذييل عليه بشذرات مرارتي حيال سير الزمان لغير صالحنا، كأنّما هو يعمل ضدّنا ويعدُ لنا مزيداً من الهزّات والكبوات.

«انظر معي، يا حمو، إلي دول الحفصيّين وعبد الواديين والمرينيين اليوم في بلاد المغرب، أنظرها وقس معي تنافسها في التشتّت والتصدّع، قسْ معي حتى يستبّد بك، كما يستبدّ بي، حنين إلى دولة الموحّدين العظمى قبل هزيمة العقاب مع الناصر واحتضارها زمن المأمون. كم هم صغار سلاطين هذا العهد ومبتئسون حتى في استبدادهم! كم هم ضعفاء في تدبير شؤون السياسة العامّة والرعايا، ومهرةٌ في حوك المؤامرات وبث الدسائس!

«مفكرا في أولئك السلاطين، لعلي اليوم أقول مستدركاً إن الاستبداد صنفان: صنف يوافق انفراد الأمير بالملك وتوفّقه في المزج الذكيّ بين الغلبة القاهرة والغلبة المعنوية؛ وصنف تذهب فيه الهيبة عن ربّ الملك بفعل ضعف شخصيّ وتسلط الوزراء عليه، فيباشر العنف مجرّداً صريحاً. الاستبداد الأوّل ناجح في تأثيره وسريانه، وهو الذي يوجد في طوره المخصوص؛ والاستبداد الثاني فاشل وبائس يوجد دون

ذلك الطور في كل ما يليه من أطوار حياة الدولة. وعندي أن السلطان أبا سالم، الذي تقلّبتُ في بعض دواوينه ونظمتُ في أيامه بعض الشعر المتصنع، هو بالذات نموذج من أسميه اليوم بالمستبد الفاشل. ذلك أنه، بعد أن استرجع سريره بفضل دعم بطرهَ الطاغية ملك قشتالة، مارس الطّغي متعرّياً خالصا، فرمى إلى البحر إخوانه وأولاد أعمامه وكل من يمتّ إليه بقرابة من الأمراء والأعضاء البارزين في الأسرة المالكة الكبرى؛ ثم إنه خضع لتأثير الفقيه الخطيب ابن مرزوق وتوجيهه، وانصاع له بالرغم من أنه اتّخذني من بين أعيان كتّابه. ولما طغى عليه القلق والتحيّر، طلب من ابن رضوان أن يؤلّف له كتابا مرشداً كان هو *الشهب اللامعة في السياسة النافعة*. وأمّا الرعايا في عهد أبي سالم، فقد [*استولت عليها المغارم ونزفها الحلب حتى عجزت عن الفلح وضعفت عن الإثارة والبذر*]، كما سجّل بحق صديقي الأعز ابن الخطيب. وشاءت الظروف أن يكون هذا السلطان هو من تلقّى من ملك مالي منسازاطة هدايا من بينها زرافة بهرت الجمهور وأطربت الشعراء. وقد رأيت في هذا الحدث شارات رخاء السودان في مقابل تدهور أحوال المغرب... وأخيرا تمكّن فودودي آخر من أن ينال رأس أبي سالم في قفّة بفضل مساعدة قائد عسكر المسيحية غرسيا ابن أنطول، فصار ذلك الوزير يحكم البلاد فعلاً باسم أمير معتوه هو تاشفين، ثم أمير مزيّف هو أبو زيّان. ولم تتخلّص منه الدولة إلاّ بعد أن قتله السلطان عبد العزيز، الذي استطاع أن يعيد للمرينيين سلطتهم، وإن لأجل قصير...

«انسقت وراء هذا التذكير. لماذا؟ اللهمّ ثبّتنا على الشهادة... إيه. أردت أن أظهر أن الدولة، إبّان دخولها في أطوار الاستبداد البائس، تكشف عن عورتها حقا. بل وتضحو مع الأمراء الأطفال الأغرار مهزلة وأضحوكة. من ذلك ما حكاه لي لسان الدّين عن السلطان الطفل السعيد بن أبي عنان وهو في ضيافته: [*أسمع صوتاً ولا أرى أحداً. عهدي به يتدحرج بين يدي الوزير إلى مصلّى الجمعة، أو يجلس للعرض كفرخ حمام المطوّق مخضوب الرِّجلية، مشمّر الذيل، حسن القبض على المنديل والمدية، قد دارت العمامة منه على قمر، لا يزال في الأريكة يتوقّد كالذبال في مشْكاته نبلا وهشّة*]. ولعمري إنّ هذا بعضٌ من مهاوي المُلْك العضوض».

تعمّد ابن خلدون التوقّف لحظة حتى يتيح لكاتبه أخذ قسط من الراحة، ونادى شعبان أن يأتي بإبريق قهوة جديد، ثم تململ في جلسته حتى استقر متكئا، مركّزا نظره على الأرض تارة، وعلى السقف طوراً. أما الحيحي فقد أخذ، كدأبه وقت كل استراحة، يطقطق أصابعه معتذرا وينظر في حال مداده وأقلامه.

«عد بنا الآن يا حمو إلي ما كنّا فيه...

- إلى النظر في الخروج من قمقم الزمان العامل ضدنا.

- أحسنت التذكير والتعبير... لا ريب عندي أن من بين عظماء السلاطين من عملوا على الخروج من عنق الزجاجة، أي كسر دائرة التاريخ ذي الوقع الانتكاسي، هذا بترشيد الخراج والجبايات وإرساء بعض قواعد الاعتمار والعدل، وذاك بغزو المجالات النافعة وإنعاش الخزينة بعائداتها، وآخر بتضييق الخناق على العصبية وتعويضها

باصطناع جيش محترف متجانس. وكلها خيارات يأتي سلاطين آخرون يخاطرون بتعميقها رغم كلّ العوائق والمثبّطات. وسيظهر مجدّدا من بين هؤلاء مصلحون مهتدون بسنن الخلافة الراشديّة المثلى. وأتخيّل ظهور سلطان قوي في المغرب يرى انسداد السبل أمامه شمالاً وشرقاً، فيأمر جيشه بالزحف نحو بلاد السود طمعاً في خيراتها؛ كما أتخيّل آخر يظن الفرج كلّه في تطويق البلاد والعباد بجيش من العبيد لا يأتمر إلاّ بأمره، ولا يطيع أحداً سواه.

«لكن- والعبرة بالعواقب والخواتيم- ما يقرّه التاريخ في باب الإصلاح هو أن أَمَدَهُ في بدء الدولة قصير، ونفسه متقطّع، فلا يلبث أن تذروه رياح الاستبداد والأهواء.

«أما ما يثبته التاريخ في باب التوسّع والغزو، فهو أنّ كلّ مدّ يعقبه في الغالب الأعمّ جزر قد يلحق أحياناً أوصال المركز نفسه بالتفكّك والتمزّق.

«وأما ما يقوله التاريخ في باب اصطناع العبيد الأرقّاء جيشاً متراصّاً، شديد القبضة والبأس، فهو انقلاب هؤلاء إلى سادة وحكام ذوي جاه وعروش. والعيب- في ملّتي واعتقادي- ليس في تولّي المعتوقين زمام أمور العباد، بل في تعلّقهم بعصبية ليست أقلّ تشنّجا وطغيا من أي عصبيّة أخرى. وانظر هذا عند مماليك عهدنا البرجيّة، كما عند أسلافهم البحريّة، تلحظه بالعين المجردّة؛ انظر كيف يدفعهم ارتيابهم وتوجّسهم من بقيّة المسلمين إلى تقديم اليهود والنصارى في دواوين القلم والمال؛ انظر كيف يُحتكم إلى السيف في فضّ نزاعاتهم، فيكثر القتل بين سلاطينهم وأكابرهم؛ انظر إلى القضاة والمدرّسين

تحتهم كم يمخضهم التعيين والخلع، كما سيحدث لي بلا ريب. وهذا بسبب تأثر المماليك بفقهاء التآمر والكلوح، الذين ما وقف خلف محنة تقي الدين ابن تيمية سواهم.

«هكذا تمرَ أشباه الحلول وبروقها، ويبقى السؤال معلّقا حول الخروج من قمقم التاريخ العامل ضدّنا. وأذكر بالمناسبة أن ابن عرفة- وهو ممن تزخر صدورهم بالتزمّت والحقد- بعث إليَّ ذات يوم من يلعلع في وجهي بتنبيه كان نصّه: «تبحث عن الحل وهو أقرب إليك من حبل الوريد»، ويقصد هذا الفقيه التونسي بالحل العودة إلى السلف وخلافة الراشدين. وهنا لا مناص من وقفة أكشف بها عن تهافت المزايدين وأردَ عن أقوال المخلّطين. وقفة كنت أبديتها في *المقدّمة*، لكن لا من قارئ ولا من معتبر.

«تمييز يفرضه علينا تمثّل مجرى التاريخ لا بدّ من وضعه بين الإسلام الغضّ، أو البدئي، والإسلام الفرقي العادي. الأول كان عبارة عن ثوران وإعصار حقيقة، يخرق قوانين الطبيعة وقواعد التاريخ الحسّي، ويستمدّ قوته أساسا من كلام الحق وإعجاز القرآن... إلاّ أنَ هذا الإسلام الأوّل لم يدم أكثر من أربعة عقود، قام بعدها مُلْك بني أمية، فانحلَ الوازع الديني وظهر إسلام مستقرّ العادة، المنقسم المتجزّئ، المحكوم بصراعات المذاهب والأحزاب والعصبيات. ألم يقل النبيَ عليه السلام: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تعود ملكاً عضوضاً»!

«إني، وأنا أسجّل ذلك الفارق الأليم في حياة الإسلام، أمسك عن محاكمة المسؤولين عليه. وبدل الحلم بعودة غضاضة إسلامية مستحيلة، أجتهد في إدراك واقع صار من الصعب نكرانه، وفي فهم

تغير أملاه منطق التاريخ الخيثي. وإذن، حيال قضية الخلافة الشائكة الحساسة أؤثر تعليق حكمي، معتبراً كلّ خيار من زاوية نصيب الحقيقة فيه. وسرّه أني أرى الوجدان والهوى قوّتين حيويتين دافعتين في مصطدم السياسة والتاريخ.

«باختصار، كما فات أن سجلت: [*لما انحسر مدد الدين الأول بذهاب معجزاته، ثم بفناء الصحابة الذين شاهدوها، استحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً، وذهبت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان*].

«أقول قولي هذا مستنداً إلى الواقعات، وأوضح، رفعاً لكلّ لبس، أنّ دين هذه الأمّة في عباداتها يبقى على الدوام هو الإسلام الحنيف، كما أن فقه الأحوال الشخصية والمواريث والأوقاف يبقى مستمدا من الدين نفسه ومن قوامه، على أن يكون الاجتهاد سيد الموقف، في تلك الفروع وفي أخرى، مراعاة للضرورة والمصلحة الوقتية، وعملا بما ذهب إليه رائد النظر والبحث في الفقه، أبو حنيفة النعمان، إمامي الآخر، القائل في السلف «هم رجال ونحن رجال ... فقوم اجتهدوا وأجتهد كما اجتهدوا». قول بهي هو عين الحكمة، ما أعظمه وأجداه!

«أما أن يزايد علينا فقهاء التعتيم أو يتنطّع أمامنا الموسوسون الصفّاعون، متشدّقين بأنّ الحلّ كلّ الحلّ أقرب إلينا من حبل الوريد، فهذا ما يجوز الاعتراض عليه من وجوه: **أوّلها** – أن دول الإسلام قاطبة من عرب وفرس وأتراك وبربر ومماليك ومغول تنافست في ادّعاء الدفاع عن بيضة الإسلام والاهتداء بأنواره، فلم يغنها ادّعاؤها عن تكريس الغُمم وادّخار المآزق والزلات؛ **الوجه الثاني** – أنّ الإسلام الحقّ

لا يلحقه إلاّ الأذى من الزج به بين كراسي الحكم ومطابخ السلطة أو في السياسة المحترفة، التي هي مصطدم الإرادات والأهواء والشهوات المتعارضة المتناقضة المتنافرة. ذلك المصطدم الذي اغتيل فيه الخلفاء الراشدون أنفسهم باستثناء أولهم مات حتف أنفه؛ **الوجه الثالث** أنّ جذوة الإسلام الغضّ لا يمكن أن تبقى متقدة إلاّ بين صفوف الأهالي، يحتجّون بها أمام القابضين على مقاليد القرار وسلط القلم والسيف والمال، ويعوّلون عليها في إيقاظ الضمائر وتقوية وعي الإنسان بقيمته وحقوقه.

«السياسة يا حمو أمانة وتفويض، ولا مجرى لها إلاّ بين تضاريس المحاسبة والتوضيح، فليس لأحد الحقّ في امتلاك أركانها قصد تحويل المذكّر إلى مُسَيطِر، أو باسم استخلاف إلهي وما شابه، وإلا فستبقى دواوين التاريخ مفتوحة على أخبار قوى التسلّط والتحكّم، المناقضة لشرائع النقل والعقل.. هذا ما أراه لهذا العهد الذي أنا شاهده. ﴿ربَّنا إنّكَ تعلمُ ما نُخفي وما نُعلن﴾.

«تراني هل أحسنت التعبير ودقّقت المعنى في موضوع حسّاس، يكثر حوله التراشق بالنعال واللغط بل يكثر التكفير؟ وللكلام صلة».

ليلة منتصف جمادى الآخرة

في هذه الجلسة، على عتبة بدء الحديث بين الرجلين، قوي بغتة عند الحيحي شعور بأنّ عبد الرحمن كائن دماغيّ، يفكّر دوما ويناظر، وخلايا عقله في حالة اشتغال واستنفار قد لا يخدعها إلاّ النوم. لهذا فكّر أن يستدرج جليسه إلى الكلام في ما لا يستلزم نظراً ولا جهداً، كتوافه الحياة وشؤونها الصغرى، هذا رغم أنّ لسانه ثقيل بسؤال حول غاية التغيّر في التاريخ قد يسنده افتراءً إلى أم البنين. لكن ما لبث أن فغر فاه مدهوشا وهو يتلقّى كلمات مخاطبه الأولى:

«لا ريب يا حمو، أن كلامي السابق في العبرة والتبدّل لم يرو غليلك، وقد تسألني، معزّزاً بملاحظات حرمك البريئة إذا كان التاريخ ديواناً لا تحتلّ العبرة فيه حصّتها الوضّاءة، ولا دورها الدافع المفيد، فأيّ معنى يكون للمتغيّرات أو التقلّب بين الأطوار والفترات؟ سؤال والله شائك عويص، يثقل كاهل فكري منذ أمد بعيد، فلا أنا قادر على تركه، ولا الأيّام والواقعات تسعفني في فكّه.

ظنّ الحيحي الفرصة سانحة لترغيب العلاّمة في إراحة ذهنه بالهزل والإنصات إلى آخر ما روته أم البنين من نكت مليحة، فدعاه إلى أن يعفي دماغه من الكدّ والإرهاق، ويطلب راحة البال في سماع

الطرائف والمستملحات. لكن عبد الرحمن حدج كاتبه بنظرة ثاقبة حزينة، وأجاب:

«تمرَ النُكَتُ يا حمو وتبقي المعضلات. قلّة قليلة من النّاس يفكّرون في المصير والمآل، فلا حقَ لي في هجرهم وأنا أرى أُولِي الأمر، فرسان الأنانيات الهوجاء، يتركون الحبل على الغارب، ويستهترون بالكوارث من بعدهم. لا بدَ لي، في البحث، من اللّج والإصرار، لا بدَ لي من تمرين فكري على الصبر والأناة، مفترضاً أنَ الأنفاق والسراديب في آخرها مخارج، مردّداً صبح مساء «ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً»، ولا خلقتنا عبثاً. لكن، قبل الافتراض والترجّي، سجّل يا حمو واقع الحال، قيّد ملامحه المنذرة، سجّله مذكَراً أن معرفته فرض عين على كلّ مصلح ومدبر. التفاصيل في كتبي واجهتُ زحمتها وسقتُ أفيدها؛ أمّا الآن فلا وقوف لي إلاّ عند مصبّاتها وأركان دلالاتها. ومن هذه المصبّات، كم هو مرهق ومتصدّع واقع الحال يا حمو ! كم من علامات تشهد له بضعف الهمّة وتردّي المنحنى !

«أعمدة السلب والنخر – مع تفاوت في الدرجة – هي دوماً نفسها: سلطان يستبدّ أو يهون، يحوطه أرباب السيوف والأقلام، ويدور في فلكه ملاك العقار والسلع والقطعان؛ وهكذا دواليك من دولة إلى أخرى ما دامت العصبيّة، أم البلايا، كالفينيق المنبعث من رماده، تأتي تباعاً بالمحن ذاتها والأطوار نفسها. أما الرعيّة، فوامعتصماه ! لا عيش لها إلاّ بين شظف الأيّام وعسف العساكر، ولا تصريف لآدميّتها إلاّ طوع أطماع الخابطين واستبداد الأكابر.

«القوام الداخلي، رغم انتفاضات خاطفة، منهك حقا، فكيف لا أخاف عليه من حملة الصلبان غرباً وأقوام التتر شرقا؟

«توقّعاتي- سحقاً لها ! - لا تبعثني على التفاؤل والاستبشار، وأنا أعاين من الأحداث وأتلقى من الأخبار ما ينذر بالسوء ويوطّنه أمداً بعيداً. أرى موانئنا عرضة للاحتكار البرّاني، ومناطقنا الحيوية سهلة على التغلغل الإفرنجي، وأرى التشرذم بيننا مستفحلاً والعجز متفشّياً، فينكسر قلبي وأطلب اللطف من الرحيم الجبّار.

«هذا يا حمو عن واقع الحال، أحدّثك عنه اختصاراً كيلا يدفعني الغوص في وصفه الآن إلى تطيّر منه أبلغَ من ذلك الذي فات أن قيّدت في قمّته: [*الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء*]. لكن تطيّري في كلّ الحالات - أبرزْ هذا جُوزيت خيراً- يهبني (سبحان الله!) حيوية لا خمولاً وإقبالاً لا دبوراً، فأهمّ- رغم المثبطات- بعبء السؤال وأضطلع. ذكرني بصيغة السؤال يا حمو حتى أحقّقه:

- سؤال سيّدي في هذه الجلسة كما سجّلتُه: إذا كان التاريخ ديوانا لا تحتلّ العبرة فيه حصّتها الوضاءة، ولا دورها الدافع المفيد، فأيّ معنى يكون للمتغيّرات أو للتقلّب بين الأطوار والفترات؟

- قد حرّرت في **المقدّمة** بالقلم الدقيق مقالات شتّى تروم فكّ السؤال قيد علل محايثة، اجتهدت في ترتيبها وتمييز أولّها من ثانيها، مستشكلا على وجه المثال الدّالّ ائتلاف الإيجاب والسلب في الحضارة التي هي غاية العمران بقدر ماهي آيةُ تصدّعه وفساده. ووقفت الاستشكال بالأساس على بلاد المغرب الأقرب من سواه إلى حواسي حتى لا أتّهم بالتعميم المجحف، أو الحكم في ما لا أزال أطلب معرفته

من جهة هذا الجناح المشرقيَ الذي فيه مثواي. واليوم وقد بلغت من العمر أطواراً، أراني لا أبرح ذلك السؤال ولا أغلقه بما قلت وحبَرت في باب تعطُل العبرة تحت توتر العسف الجبائيَ وتسلُط السلطان والوزراء، أو عموما بفعل فساد إنسانيَة الإنسان. فكأنَي بهذه العلل هي إلى صعيد المظهر والنتاج أقرب، مثلها كمثل العرب البدو أو كارثة الطاعون الأعظم؛ وكأني بتلك العلل تُخفي عللاً أو علّة واحدة هي الأشمل والأعتى. وريثما يتأكدَ حدسي بهذه الحلقة المتستّرة ويتيسّر لي رصدها في نور النظر بالقلم الأجلى، هأنذا أقضي ما شاء الله من الأوقات وجهاً لوجه مع المفارقة الأليمة: مجتمعات لا تستفيد أيَ تقدَم ذي بال من تواتر الزمان وتعاقب الأجيال؛ والعمران الحضري يقوم، من جهة، كمعنى لحياة التاريخ، ومن جهة ملازمة كميدان يتلاشى فيه هذا المعنى وينكسر.

«منذ عامين أو يزيد، وبالذات منذ ابتلع البحر الزوجة والبنين، ضيَعت معظم الرغبة في النظر مجدَدا إلى مسائل وعرة عويصة من شاكلة التي تطالعني اليوم، بل أمسيت زاهداً حتى في آخر لذَة تبقى للعجائز بعد ذهاب متع المأكل والمشرب والنكاح منهم، وأعني لذَة سماع العجائب، سماوية كانت كالجراد والخسوف والكسوف، أو أرضية كالطواعين والزلازل والحرائق والقحوط... أمسيت لا ألقى الأخبار إلاّ دائرة في أسلاك التناسخ والعود والتكرار، يتيمة الجدَة والجدوى، ضاربة في شبه الماء بالماء. سُنة سرمديّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها! هذا ما كنت أقوله منشداً على لسان الشبلي: [ألف عام ماضية في ألف عام واردة: هو ذا الوقت، ولا تغرنّكم الأشباح].

كرَر عبد الرحمن كلمة «لا تغرَنكم الأشباح» مرَات عديدة، كأنما هي شطح أو ذكر ربَانيَ، كررَها مغمض العينين، ثائر الوجد. وبقي الحيحي معلَق القلم، لا يدري ما يقدَم أو يؤخَر، حتى إذا سكت الذاكر فجأة، ران صمت مطلق في جنبات البيت، وبدت الجلسة على وشك الانتهاء. وبينما الكاتب يشوَش على رهبة اللحظة والمقام بخشخشات أوراقه وحركة طيَها، إذا بصوت المملي يأتيه وديعا جهوريا:

«سجَلها يا حمو قبل انصرافك، سجَل علَة العلل الحيثيَة قبل أن تفلت منَي ناصيتها، أو يعميني نور نصاعتها وتميَزها. أمَ العلل في تعطَل العبرة وتراكم الأزمنة اللامجدي، أراها الآن في فساد بذرة التاريخ ودفعة أطواره؛ أراها في عُوار هذا الأصل المتنطَع المتناسخ، العائد دوما بنفس المعاطب والخروقات؛ أراها يا حمو في بلوى العصبيَة بالذات والصفات».

ارتعدت يد الحيحي، فاعتذر قائلا:

– اعذر اضطرابي يا سيَدي، ولا تأبه لزيغ مدادي، فأنا بكلامك الأخير دائخ متحيَر.

– لا عليك يا حمو، لا عليك. في الأمر حقاً ما يحيَر ويدوَخ حتى القائل به. لكن ما حيلتنا أمام انبجاس الحقائق الجلَى من أكوام الغلطات والعادات؟ لا محيد لنا عن تلقَيها بصدر رحب وذهن عاقل. أليس كذلك؟

– بلى يا سيَدي، لكن كيف تفرَط في فكرة تقوم في علمك مقام المهماز وقطب الرحى؟ صراع هي العصبيَة وعنف أكيد، ولكن غاية

شوكتها ستظلَ دوماً الرياسة والملك . ولا أرى لهذه السُنَة في الدنيا تبديلاً.

- بل هذا بالذات ما يلزم أن يتبدّل. لا بدَ للتاريخ من بذرة أحسن وأرقى حتى يبدلَ جلده ومجراه، وإلاّ فلا اشتغال للعبرة فيه ولا تقدَم يرجى من تعاقبه وسيره. دار لقمان تبقى على حالها، وقد تسوء إن ظلَت العصبية بين الأقوام تصول وتجول، وتستبدّ بالكلمة الفصل والموجة العليا. أما ما كتبته عنها في مقالاتي - وهو كثير - فاضبط أنّي ما رفعتها إلى سدَة المفهوم تعبّداً أو تقريظاً، بل من جهة لوحة الرصد والوصف، ذات القيمة الحضريّة لا غير.

«بلوى العصبيّة، انظر معي في عواقبها المدمّرة تفهم ما أراه. أولاها أنَ الدولة حين بلوغها طور الترف والدّعة تجد نفسها أمام اختلال بين تصاعد نفقات حياة الرّغد ونفقات العسكر والإدارة وبين استقرار المداخيل الجبائية أو تقلّصها. ولإبطال هذا الاختلال، حتى الإعلاءات الجائرة للضرائب والمكوس لا تفيد شيئا، مادام تجاوزها، إلى حدّ ما، يؤدّي حتماً إلى إثارة التمرّدات وتخلّي الفلاحين عن خدماتهم وانقباض الأيدي عن الاعتمار جملة. العاقبة المدمّرة الثانية: نظراً لتدهور مداخيل بيت المال من الجبايات، بسبب عصيان المكلّفين وعتوّ القباضة المسلّحة، فإن السلطان يرمي بكلّ ثقله في المضاربة التجارية، محوّلاً الدولة إلى سوق أعظم، ثم يأخذ في استثمار الرسوم البحريّة استثماراً أقصى، وذلك بإعطاء التجّار الأجانب تسهيلات في المتاجرة والتنقلّ. غير أن هاتين المحاولتين للتخفيف من عجز الخزينة باحتكار التجارة تثيران حتما انقباض عامّة التجار المحلّيين

وانسحابهم، وكذلك غضب الغيورين على حمى ملة الإسلام. أما العاقبة المدمِّرة المتوِّجة، فتقوم في إقدام الدولة على إصلاح أخير لا يلبث أن يظهر هو بدوره كتناقض أكبر من غيره، فنراها تجري تخفيضا في أعداد العساكر لمواجهة ارتفاع مصاريف الجيش، الذي يصبح جنوده عبارة عن مرتزقة لا يشغل بالهم إلا بيع خدماتهم بأثمان يرتضونها. وهذا الإجراء ليس أقلَّ بؤساً لأنه يضعف القوة العسكرية، ويعرض بالتالي أمن البلاد في الداخل والخارج لأخطار حقيقيّة. وبتبنّيه تعرض الدولة ضعفها في واضحة النهار، فتهلكها عصبيَة جديدة تقيم دولة أخرى لا دور لها إلاّ إعادة الكرة في استنساخ المعاطب والأطوار ذاتها، مع اختلاف في المدد والأشكال لا غير.

«لا أظنني أضفت جديداً لما فات أن كتبته في الباب نفسه من قبل. لكن حسبي أن أعلن الآن أن رأس الداء يكمن في العصبيَة، طبيعيَة كانت أم مصطنعة. القبيلة في السلطة والسياسة العامة، تلك هي المعضلة!

«قد تسألني يا حمو أو يسألني سواك: إذا ما سلّمنا معك أن العصبيَة أم البلايا، فبم نستعيض عنها لتحريك ناعورة التاريخ أو تسخين مجاريه؟

«إنه، والحقَ أقول، سؤال الأسئلة! سؤال كان، من قبل، يلمع في ذهني، ويقضّ أحياناً مضجعي، لكن كثرة الشواغل و «المطارق» كانت تصرفني عنه صرفاً. ولا أحسبني اليوم بقادر عليه ولما أخرج بعد من عوائق عسري ولا من إسار نقاهتي. لكن سجِّلْ أن اضطرام شعوري بلزوم زوال ما لا يخدم الحياة ويعليها لابدَ أن يهديني، آخر المطاف،

إلى خيط رفيع أستبين به بديل العصبية الأنفع والأثرى. ما لا يخدم الحياة ولا يعليها شاخصٌ في عيوب أذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر: وازعُ القرابة والدم في الظفر بالملك عيب؛ اصطناع المرتزقة والموالي في إدارة دفة الحكم عيب؛ الاستبداد موفقاً كان أو بائساً عيب؛ التعويل في الحكم على الهرمين والفاسدين ممن طبختهم سياسة العسف السائدة عيب؛ تفضيل المتزلِّفين على الأكفاء المضطلعين في الدواوين عيب؛ البذخ في محيط من العراء والفقر عيب؛ تنزّل الحضر منزلة النسوان على ظهورها عيب، إلى غير ذلك مما لا مناص من قطع دابره وهجره من دون رجعة. وعطفا على هذا، كما لعَلّي سطرته في *المقدمة*، أقول إنه [*متى توقفت العبقرية وتعطل الطموح وتقلصت التطلعات، توارى النور وأفل الأمل وحكم الأموات الأحياء*].

«أما خيط البديل الأرفع، فإني أمسك ببعضه وليس بكل تلابيبه، وأدرك منه نتفاً وليس منظومته وتشاعيبه. والمعوّل على الله في رفع الغمة عني حتى أعمق فكري فيما أمسكه وأدركه حول أمة الشورى والحلّ والعقد، حول دولة العدل والقسطاس المستقيم، حول وازع الأخلاق في مجمل السلوك والتعامل؛ وكلّها مفاهيم لا بدّ من تأصيلها حتى لو كانت لترشيد بلاء ضروري كالسلطان العصباني وتطويقه بها مؤسسةً بحيث لا يتجبّر ولا يزيغ. وأطلب منه تعالى أن يعجّل باجتماعي بها في أخصب جلسة وأعلاها، شبيهة بتلك التي عرفتها منذ بضع سنين خلت في قلعة ابن سلامة، موقع الهدوء المتواتر، المرغّب في التأمّل وتحرير الدلالات حول ما كان إذذاك شغلي

الشاغل: أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية. وأطلبه تعالى أن يمنّ عليّ مجدّداً بهواء طلق وخلوة ممزوجة بنَفَس كونيّ حتى تسيل في لبّ اهتمامي اليوم شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، فتمتخض الزبدة ويتيسّر الوضع، آمين».

كان الدعاء إيذاناً بوقف الإملاء والاجتماع، فعبّ حمو بقية قهوته، وخبّأ كعادته أوراقه وأقلامه في كمّ جلبابه، ثم انصرف مسلّما مودّعا.

ليلة مَع رجب

في مطْلَع جلسة تلك الليلة، دار بين عبد الرحمن وكاتبه حديث حول تسلّط الجراد على منطقة الفيّوم واقترابه من ضواحي الفسطاط والقاهرة، وكذلك حول تدنّي مياه النيل وظهور القحط. ثم رفع الرجلان أكفَّ الضراعة إلى اللّه استنزالا للرّحمة والمغفرة. بعد ذلك ران صمت كان الكاتب خلاله يظهر علامات استعداده للسمع والتقييد.

«أخشى أن تبقى أوراقك، يا حمو، بيضاء هذه الليلة. فالجراد في الجوّ، كأن بعضه اقتحم ذهني وهدّ عصبه، والنيل الهابط كأنّما انعكست حاله بالسلب على نفسي، فلا اتّساع في خاطري للتوثّب والفكرة ولا غَلَب له على القحط والنضوب إلاّ أن يفرج الله الكربة...

«فيما مضى شاهدت بأرض المغرب مالا يطاق من الكوارث العظمى، وعاينت خلالها أسياد الأنانيات الهوجاء والدسائس كلّها، عاينتهم أثناء المجاعات والقحوط يخزنون الزروع والزيوت وغيرها احتكاراً أو يصدرونها إلى بلاد أخرى؛ عاينت فيما مضى منكرات فادحة شتّى، لكن سنّي آنذاك كانت تمنحني من القوّة والحماس ما

يقيني شرّ الانحباس أو التصدّع. وأمّا اليوم فخلايا دماغي، المائلة بطبعها إلى الانكماش، لا تزيدها أخبار الواقعات العصبية والطامات إلاّ خللاً وانقباضاً، فلا تقوى عليها إلاّ بالتسليم والمهادنة أو بالطيّ والانسحاب.

– وقى الله سيّدي كلّ مكروه، لكن يبقى في ذمّتك أمران: أمر التّثبّت الثاقب، وأمر النظر في الخروج من عنق الزجاجة.

– ذكّرني بالأوّل، واترك الثاني إلى حين عودتي من حجّي القادم، إن شاء الله.

– نصّ الأوّل: إذا كانت أرض الكنانة لا عصائب فيها، وإنما هي سلطان ورعيّة، وكان أهاليها ليسوا أقلّ ضيقا وانقباضاً من سواهم في بلاد المغرب، فلا سبيل إذن إلى ردّ كلّ البلايا إلي العصبيّة، ولا إلى تعميم الردّ وحمله على دغم منطوق الواقعات، أو مسخها.

«من دواعي حلولي بهذه الديار رغبتي في ضبط معرفتي بها قراءةً وعياناً. ولا أظنّني قد استكملت بعد هذه المعرفة أو توغّلت فيها، لذا لا تنقل عنّي القول حتى أزيد في تدقيقه. لكن ما أراه منذ الآن أن خلوّ مصر من العصائب المسلّحة (كتلك التي تعجّ بها بلاد المغرب وتضطرب) يخوّلها مبدئياً- أكثر من غيرها- حظوظاً في ترسيخ العمران وإشاعة ثماره بفضل الجباية الميسورة، وعون مياه النيل الميمونة، وندرة التمرّدات والخوارج؛ إلاّ أن الشّوكة المملوكيّة، القائمة بالنسب والولاء معاً، القاضية في الداخل على ما سواها، إنما تخطئ الإصلاح وتعوقه بتضارب أطرافها واستننانها سبل التوجّس الشامل

والفتك الوقائي، فيصرفها ذلك عن رعاية حقوق النَاس وأغراضهم. ولا تزال كذلك حتى يتمَ كسرها على يد أقوام يأتون من خارج البلاد كالسيول الجارفة المدمَرة... هذا ما يسمح لي عيائي بقوله، وللحديث بقية.

انتبه عبد الرحمن إلى كاتبه فنهاه بإشارة عن التمادي في تقييد أقواله، ثم استرسل:

«هناك شيء مكدِّر آخر، لا حرج أن أبوح به طلباً للتخفيف عن نفسي وتحسين مزاجي.

- قُلْه يا سيِّدي، فقلبي مفتوح لك دون أوراقي، والأمل عندي أن استسهل وأواسي. أما كلامك السابق أو الآتي في حقيقة المماليك، ففي صدري تجد خطوطه قبرها وحجابها عن ذريعي الفتك، سريعي القتل».

أبدى عبد الرحمن علامات الثقة والإطمئنان، ثم تابع:

«تعلم يا حمو أني درَست في أمَهات الجوامع والمدارس، في الزيتونة والقرويين والعبَاد والحمراء والأزهر والقمحيّة، واليوم في البرقوقيَة. فكنت لا أنهي درساً إلاَ [*لاحظتني بالتجلَة والوقار العيون، واستشعرت أهليَتي للمناصب القلوب، وأخلص النَجيَّ في ذلك الخاصَةُ والجمهور*]. أما متوسِّط الأسبوع المنصرم، فقد برز لي بين حضور الطلبة رجلان غريبان لم أرهما في حلقتي من قبْل، فتناوبا على مناوشتي بالأسئلة المستفزّة والاعتراضات المغرضة، فكان ممّا أذكره منها بعد درسي عن ***موطّأ مالك***:

«قال أحدهما : يا معلِّم، إذا كانت الحقيقة في كلام الله ورسالاته واحدة، فكيف يعقل أن يذهب فيها الأئمَة كل مذهب ويتأوّلوها بطرق متعارضة متنافرة؟

«أجبت : حسبك أن تحفظ حديثًا معادًا! وأن تفهم بمزيد من العمق أن اختلاف أئمة السنَة إنما كان في الفروع وليس في الأصول، وأنه كان رحمة في حدّ ذاته وانعكاسا لاختلاف النّاس في أقطارهم وأسباب عيشهم ومعاشهم.

«قال الثاني : فسّرتَ، يا أستاذ، نجاح المالكيّة في المغرب الإسلامي بعاملين: أنَّ الحجَ إلى مكة، المرفق بمزار إلى المدينة مسقط رأس مالك ومهد المالكيَة، كان في نظرك يتيح لأهل المغرب والأندلس الاحتكاك الحيَ المباشر بالفقه المالكي، ويعصمهم بالتالي من تأثير مذاهب العراق؛ ثم أبرزت التقارب بين أشكال الحياة في كلّ من الحجاز والمغرب، والذي كان يجعل النّاس هنا أكثر قبولاً لمذهب مالك السهل الميسّر. سؤالي : هل هناك من عامل آخر أعمق وأصدق؟

«أجبت : فسّرت في درس سابق لم أرك فيه، أنت ولا صنوك، عاملاً دقيقا يساوي صدق العاملْين المذكورين، إنّه المتمثّل في المكانة التي يخصّصها مالك في فقهه لمفهومي العمل والعرف، وكذلك وبالأخصّ في معارضته الصريحة للمزابنة في علاقات الشراء والبيع، نظرا لما تنطوي عليه من غَرر وضَرر...

«قال الأوّل مقاطعاً : قد تكثر الدعاوي وتتعدّد، وتنشط الأحاديث المنحولة في تمجيد مالك وتتمدّد، لكن الحقيقة في انتشار المالكية في المغرب الإسلامي إنما تعود إلى تحكّم السطان لا غير، كما

أظهر علاّمة ذلك القطر، العارف بشعابه، ابن حزم القرطبي، نفعنا الله جميعا بعلمه.

«أجبت: قول ابن حزم أعقد مَمّا تذكر. أما الحقيقة في الأمر، إن كنتَ تعلمها، فلمَ تطلبها؟ !

«قال الثاني: نرى تلك الحقيقة ونرى أخرى أشمل وأعلى: محمّد سيّد الخلق كان خاتم الأنبياء وناسخ الأديان، وأحمد ابن حنبل رضي الله عنه هو من هزم الدعاة والمتقوّلين وألقمهم الحجر، هو خاتم المذاهب وناسخها جملة وتفصيلا. هذا محصّل قول المجاهد الأتقى والداعية المذكِّر الإمام تقي الدين ابن تيمية قدّس الله روحه.

«استل هذا الأخير من كمه ورقة وراح بلهجة الشماتة والهزء يقرأ فيها كلاما لي واردا في *المقدمة*: «*وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال. ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها*». وعلّق القارئ: «انتهى نص كلامك يا أستاذ في مدح مصنف كله فحش ومنكر، مدح يسقط عنك أحقية التعليم بل القضاء. ونعوذ بالله من شر كل كلام يلزم أن يطوى ولا يروى ولا يؤدى...»

، قام الرجلان فجأة، فرماني أحدهما ببطاقة، ثم لاذا بالفرار بعد تعاظم تهديدات الطلبة لهما.

«صرفت هؤلاء إلى حال سبيلهم، ناصحا إيّاهم بالترزّن والانضباط، وواعدا بتخصيص درس حول *الأغاني*، حتى يعلموا المقصود من كلامي؛ ثم رمقت البطاقة، فإذا فيها من الشتم والقدح ما لم أسمع به من قبل على الإطلاق؛ وممّا فيها من السفه والبهتان: *[عري من العلوم الشرعية أنت، تبسّطت بالسكن على البحر في مدينتنا، وأكثرت من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث ...]*».

ارتعدت فرائص الحيحي، ولهج بالاستلطاف الكثير والدّعاء على الرعاع المشنّعين، قال:

- فسد الزمان حتى صال فيه محترفو الطعن الفائل والزعم المكذوب. وسيّدي المؤيّد بالعزّة والشموخ لا يأبه للغط ألسنة السعايات والسوء.

- ألسنة لاحقتني حتى تخليت عن خطّة القضاء، وهي الآن تروم عزلي عن التدريس، لكن حمداً للّه على كلّ مكروه، وبشرى لي بدنوّ التحاقي بالرفيق الأعلى وربّ العالمين.

سكت العلاّمة لحظةً متنفساً الصعداء، مسترداً بشاشته المعهودة، ثم قال:

«ما بحت لك به منذ برهة ليس أقل وقعا على النفس مما حدث لي مع بعض طلبة فاس ذات يوم. فاسمعه حتى تستعيض به عن التقييد.

«تعلم يا حمو ما قلته في *المقدمة* عن باعة الأوهام والطلسمات ومحترفي أفانين الشعبذة والسحر. وفي هذا الموضوع كنت ألقيت درسين: الأوّل في شأن الكيمياء التي أظهرت أنها ليست سوى اصطلاحات وعمل صناعي يدّعي أهلها قلب الأجسام المستمدّة من المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضّة، مستعملين حتى بقايا الحيوانات وفضلاتها من بيض ودم وشعر وعذرة، أي ما يصلح عندهم لصناعة الحجر المكرّم، الذي إذا انقلب إلى إكسير حوّل، في زعمهم المريض، الفضّة المحمّاة بالنّار إلى ذهب أو النحاس المحمّى إلى فضّة؛ أما الدرس الثاني فكان حول الكنازة، هؤلاء المهوّسين والحمقى الذين نجد من بينهم كثيرا من طلبة البربر بالمغرب، العاجزين عن المعاش الطبيعي.

«ما حدث لي إذ ذاك مع ذينك الدرسين: هو أنهما أثارا ردود ثلاثة طلاب، أتت وكأنّها سيلجسموس أو قياس حيّرني إلى حدّ كبير، وهو:

«قال الأوّل: إنّ من المتاع، أيّها العلاّمة الأجلّ، كالمعادن النفيسة، ما لا يفنى بطبيعته إذ يبقى بعد انقراض مالكيه. فإذا كان القبط من عادتهم دفن أمواتهم مع خيراتهم الغالية، فإنّ الشعوب الأخرى، كالإغريق والفرس والروم، إنما لها طرائقها في حفظ تراثها وصيانة نفائسها. وبالتالي فكنوز العالم، إذن، مازالت موجودة، ولكنها مدفونة في خفايا الأرض.

«قال الثاني: بما أنّ التنقيبات العمياء، يا معلمنا الأكرم، لا تؤدّي إلى شيء، فلا بدّ من افتراض أنّ للكنوز حرّاسها من الجنّ يسهرون على أسرارها وأختامها، ولا بدّ من معرفة التواصل مع هؤلاء بلغة الطلاسم

السحرية، أي بالبخورات والعقاقير والدعاء والقرابين، حتى يسلموا مفاتيح الكنوز أو يدلّوا على أماكن الثروات ومنابع العيش الرغيد.

«قال الثالث : إذن أيها الصدر الأرحب، كلّ فشل في العثور على الكنوز ليس مردّه إلى غاية البحث نفسها، بل فقط إلى سوء قراءة الطلاسم أو إلى عناد الحرس من الجنّ.

«أتذكر كلام أولئك الطلبة- الذين قيل لي من بعد إنهم من الكنازة-ولا أتذكّر بمَ أجبتهم وقتذاك. وفي الأسبوع الموالي وصلتني ورقة يقول مقطعها الأساس:

«من الطلبة الكنازة إلى أستاذنا العلامة : تصفنا، سامحك اللّه، بأقدح النعوت ليس أمرَها عجزنا عن المعاش الطبيعي. لكن دلّنا فقط على حيلة نطوي بها عجزنا وأنت القائل : [*إنّ السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملّق*]، و [*إن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب*]، وأنت القائل : [*إنّ الفلاحة من معاش المتّضعين وأهل العافية من البدو*]، وغير ذلك. وعليه، يا أستاذنا المبجّل، فإن تعذُّر المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب هو ما يدفعنا، بالذات، إلى استيهام الاغتناء واللهث وراء المستحيلات، حتى لو أوقعنا ذلك في شتى أنواع المتاعب والعقوبات».

«الحقّ أن هذه البطاقة جعلتني أرى أنّي لم أفكّر بما فيه الكفاية في موضوع ممارسات الإخفائيّة والسحر. ولو فكّرت وقتذاك لتساءلت بدءاً عن وظيفة تلك الممارسات من حيث الاجتماع والوجود، وعن أيّ ترقّبات وهموم عند الإنسان كانت تعبر وتجيب؛ ثم لو فكّرت

لأدركت في ظاهرة البحث عن المعادن النفيسة مجهودا يائساً لإرغام الأرض على تسليم خيراتها لأولئك الذين يغذَون، طوال حياتهم، استيهامات الاغتناء الفيَاض، الخارق للعادة. ولو فكّرت لرأيت أن ذلك كلّه يعطي مقياس الفقر الحقيقي القائم، كما يشير إلى ندرة المعادن النفيسة، مما يجعلها موضوع السراب والحلم. هذا معْ أنّي سجلت فُشُوَّ الظاهرة تلك أثناء تلاشي الدولة التي تأخذ هي نفسها في تعقّب الكنازة من أجل إخضاعهم للمكس.

انتبه عبد الرحمن إلى الحيحي، فألفاه يجري خلسة قلمه على ورقه، فنهره مبتسما :

«نهيتك يا حمو عن الكتابة فلم ترعوِ . أتريد التقاط كلامي حتى طيّ استطراداته ونوافله !

- بل هي درر، يا سيّدي، لا غنى لأقلامي عن رؤوسها حتى أنسخها كاملة في بيتي.

- انفض يديك من ذلك كلّه، وقرِّب إليّ طاجنك حتى أتذوّقه . فوالله لا بد لنفسي من لقمة بعد أن جوّعتُها أياماً .

- هوذا طاجن أم البنين، تهديكه مع المودّة والتبجيل.

- سلمت يداها ووفقها اللّه إلى ما يحبّه ويرضاه .

تفحّص عبد الرحمن الأكلة فإذا بها قطع لحم ممرقة يحوطها الفول والخرشوف، وتزين الكلّ حباتُ زيتون. أقدم على غمس قطع الخبز في الطاجن وتناولها بتؤدة وتمعّن . وبين اللقمة واللقمة كان يثني على صانعة الأكلة ويبارك في إدامها الذي تنزّل في معدته منزل يُسر

وتمكين. وتذكر بالمناسبة أكلات أم البنين السابقة فاستفسر زوجها قائلا :

- ما السرّ يا حمو في كون طواجن حرمك، رغم دسمها، لا تلقاها معدتي المنهكة إلاّ بالقبول والترحاب. مثلاً طاجنك ما قبل هذا، وهو «خليع» بالبيض، أذكر أنّي أتيت عليه متوقّعاً منه سوء المآل والعاقبة، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث، فما السرّ فيه ؟

- سؤال سيّدي في محلّه، ولا علم لي من الردّ سوى أن أمّ البنين، باعتراف كلّ أقاربها في فاس، طبّاخة ماهرة، تستعمل الزيت والبهار بمقدار، ولا تأخذ من الموادّ إلاّ طريّها وأحسنها. لكن سرّ الأسرار عندي يقوم بلا ريب في زيت أرغان ذات الجودة المحمودة والفضائل المعروفة، زيت يأتيني بها الأقارب من إيغيلينغيغيل وهم يعبرون مصر إلى الحجّ أو العمرة.

- أرغان الحيحيين وعسلهم وإباؤهم وذكاؤهم أمور مهمّة سنتحدّث فيها ذات يوم وفي إيغيلينغيغيل وأوانيها الشهيرة، إن شاء الله».

دعا عبد الرحمن لكاتبه وحرمه بالسلامة والوئام، فكان الدعاء إيذانا برفع الجلسة.

ليلة منتصف شعبان

حين دخل الحيحي إلى بيت عبد الرحمن، جلس صامتا في مكانه المعتاد، منتظرا أن يفرغ المعلّم من صلواته وتراويحه، ولم ينتبه المعلم إليه إلاّ بعد أن سبح وسلّم. بعدئذ اقترب منه وجلس راداً عليه التحيّة، مديرا عمامته على رأسه.

«الصلاة يا حمو شفاء للنفس العليلة، فلا تفرّط فيها ولا تقصّر.

– أصلّي يا سيّدي حيناً مع الجماعة، وأحيانا مع زوجتي. ولا أكتمك أنّ متعتي الكبرى تحصل حين أرغّب أم البنين في أداء الصلوات من خلفي.

– لولا الكتب لقضيت في الصلاة معظم وقتي، طلباً لرفع الغمّة ووطء الذاكرة. إن الصلاة في حالتي وفي سنّي لبمثابة قرّة العين، تنسيني متع الدنيا وتأخذني في فضاء استشعار ذرّات السرمد والبقاء، قائلا مع الشاعر :

لا باركَ اللّهُ فيّ إن لـم أصرفِ النفسَ في الأهـمّ

وكثّر اللهُ في همومي إن كان غيرُ الخلاصِ همّي

«عزائي في حزني المتعاظم أني على وشك شدّ الرحال إلى الديار المقدّسة. وأملي في اللّه أن يسعفني ثمّة على تنقية ذهني من حشراته الرقطاء، ونفسي من هواجسها السوداء. أملي كبير في أن تطرد تلك الأمكنة الطاهرة كلّ أبخرتي الرديئة، وتضمد ذكرياتي الجريحة... منتصف شهر الصوم والكدح إلى اللّه أنتظره على أحرّ من الجمر حتى آخذ عصا التيار وأسعى. أمّا الآن فقم بنا إلى سطح الدار، نطلّ منه على البحر، ونتذاكر إن أمكن.

فوق السطح حيث جلس الرجلان على مصطبة مفروشة، تتوسّطها شمعة ضخمة، كان الطقس جافًا دافئا، والنيل يعكس بعض لآلئ السماء، يتصدّرها الكوكب الوضّاء ونجوم مشعّة متناثرة.

«هذا السطح يا حمو، لولاه، لما قدرت على الإكثار من ملازمة بيتي طوال ما يقرب من ثلاث سنين. مقامي فيه بالعشيّ أو الليل ساعة أو ساعتين يهبُني دوما هواء لطيفاً ما أحوج نفسي إليه، ويفتح لي ترعة على الكون ترحل بفكري إلى العناصر الأربعة وخالق كلّ شيء. لكن ما إن أنزل بين جدراني حتى تعود ذاكرتي المكلومة إلى الاشتغال، فلا أخفّف من ثقلها إلاّ بوضع سدّ من الكتب بيني وبينها. والآن سجّل أهم سكاكينها الكاوية لعلّي أذهب إلى رحاب ربّي القدسيّة خلواً مخلصاً منها.

«طبيعي أن موت أهلي كلّهم غرقا في البحر كان وقعه عليّ من الشدّة والعنف بحيث أصابني بالخرس المحزون الأبلغ من أيّ كلام. أما ما لم أحدّثك فيه من قبل، وكانت وطأته تصاحبني في مدارات رحيلي وترحالي كلّها، فهو خوفي المريع من القتل غدراً والبطش العشوائي.

وقد لازمني هذا الخوف طوال حياتي ببلاد المغرب، ولا يزال يتبعني في هذه الديار، وإن بطغي أقلّ، نظرا لغلبة الزهد عليَّ في غريزة البقاء. أما في عواصم دول المغرب ودويلاته فكم مرّةٍ رأيت موتي بالعين المجرّدة ! وكم مرّةً أدركت سيوفه تلاحقني مهدّدة أو مطالبة. ولعل أفدح هذه المرّات وأقربها إلى التحقيق كانت لي أثناء حبسي في زنازن السلطان أبي عنان المريني، كما فات ذكره. فوالله يا حمو لقد أيقنت وقتذاك أني لا محالة هالك، فغالبت يأسي عبثاً بمائتي بيت أرسلتها متضرّعاً إلى السلطان الساخط المتوعّد. وأذكر منها اليوم بيتين يثبتان حالتي تلك :

على أيّ حالٍ لليالي أعاتبُ وأيّ صروفٍ للزمانِ أغالبُ

كفى حَزَناً أنّي على القربِ نازحٌ وأنّي على دعوى شهودي غائبُ

«واليوم أتبيّن بصفاء أكبر سرّ خوفي ذاك من الموت، فأحدّده في عامل هو الأعمّ والأطغى. فسجّله بالقلم الدقيق حتى يعتبر به غيري من حَمَلَة العلم وطالبيه.

«سلاطين هذا الزمان وأمراؤه في هذا الباب هم رأس البلاء، وأحياناً من ضحاياه. سعيهم كلّهم- صَغُر شأنهم أم عظُم- هو لَيّ أعناق العلماء لتسخيرهم في قضاء حوائجهم وأغراضهم، وذلك مقابل جرايات أو إقطاعات يخصّونهم بها على قدر الموهبة والاستطاعة. والويل لمن عصى من العلماء أو تملّص ! وبالتالي فصورة الحاكم المثلى تقوم في نوع من الجمع بين الكرم المشروط والعنف الطليق، كما يعبر عنه بيت منسوب إلى السلطان أبي الحسن الأكحل :

وأعطي الوَفرَ من مالي اختيارا وأضربُ بالسيوف طُلى الرقابِ

«حقا، من أكبر مخاطر مهنة الملك فقدان كرسي الحكم أو فقدان الحياة، فيكون على الأمير أن يتجشَم هذه المخاطر حتي يُحكم الاستيلاء على منصبه يستحقه. فيتنعم بشرف السيادة وملذاتها. وإذن فهو على الدوام حذرٌ متوجس حتى من بطانته وأقرب الأعوان إليه، منصت إلى أصحاب السعايات والوشايات، محوّل هباته وعطياته إلى ديون، نزاع إلى القتل الوقائي والتهديد بالموت.

«أما العالم الداخل في أسواق الملوك، رغم أنفه أحيانا، فهو كمن يمشي على الجمر، تحف به فرص السقوط والكبْو، وترمقه عيون النصب والغدر؛ فلا بدّ له، كلما أظلم الجوّ بينه وبينهم واتّسع الخرق، من التذرّع بالحج والانتقال من مشايعة إلى أخرى بحسب المناسبة والقصد. ولعمري ليس للعالم حيل أخرى كيما يفلت من الانتظام المفقّر في السلك ويبقي متشوّقاً إلى العلم، متفرّغاً إلى التحصيل والوضع.

«السياسة عندنا مَهلَكة وأيُّ مهلكة، ومَيْتَمة وأيُّ ميتمة! أنظر إلى *كتاب العبر* أو إلى تاريخ غيري تر كيف تكثر فيها الفصول والسرود حول نهايات الرجالات من أمراء ووزراء وأعيان وقواد وعلماء. زماننا، زمان القسوة البليغة، يحفل حقاً بوفرة الوسائل في التعذيب والبطش، من ذبح وتغريق وطعن وبعج وخنق وتسميم وتقطيع الأعضاء وحزّ الرؤوس. وبالتالي فلا غرو أن تتكاثف في كتابي ذاك مصطلحات من صنف: السقوط، النكبة، الفتنة، الخلع، المنازلة، الغزو، الفتك، المقتل، الوثبة، الخروج، المَهْلك، الحصار، وغيرها.

«تلك سنةٌ سارية بين أهل السياسة وفطاحل التآمر والدسيسة. أما العالم الحق، فلا دربة له فيها ولا حول. وانظر لهذا حالات كثيرة، أقواها دلالة حالة شيخي محمد بن إبراهيم الآبلي الذي فرَّ هاربا من أبي حمو الزياني أمير تلمسان إلى علماء مراكش ليسكن إليهم ويأخذ من علمهم؛ ومن تلك الحالات أيضا حالة حبيبي (رغم كل شيء) لسان الدين الذي قضى نحبه مغتالا في زنزانة سجنه على يد عملاء أمير غرناطة محمد الخامس، وذلك بعد أن سلَّمه إلى هذا الأمير السلطانُ المريني أبو العباس، مقايضا به تأييده على العرش ... لسان الدين ابن الخطيب، العالم الأجل و الأديب الأبرز والشاعر الأرق: حياته موضوع مقايضة سافرة فظيعة!...وأخي الأصغر يحيى شاهد آخر على عنف هذا الزمان وشؤمه. أوغاد قتلوه طعنا بإيعاز من الأمير عبد الوادي، الذي صدّق ما نما إليه في حق الأخ المظلوم من وشايات ملفقة جائرة...

«أفلا أخاف على نفسي، بعد هذا كلّه، من فخاخ الحبس المريع وأيادي الفتك الذريع؟

«أما همُّ ذاكرتي الآخر، المقيم فيها كالورم الخبيث، فهو: *إما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل. وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعُفت الدول والقبائل، وتبدّل الساكن. وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه. وكأنما نادى*

لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة. والله وارث الأرض ومن عليها].

«حين حلّ الطاعون بتونس، كنت في السادسة عشرة، فتى في سنّ توهّج الحواسّ وتيقّظ الإدراك. ومع هذا الوباء (وأظنّه ساهم في انهزام أبي الحسن المريني في القيروان)، معه يا لهول ما عانيت ! فقد أنزل بي ضريبة لا أفدح منها ولا أقسى، إذ مات أبواي ودرج فيه كثير من مشيختي، رحمة اللّه عليهم جميعاً، فكان يتمي من جهتي النسب والعلم حاداً مؤرّقاً، وكنت، رغم ريعان شبابي، أشعر الهرم متفشّياً في أعضائي والانكسار مقيماً في عينيّ وروحي.

«مشهد الموت بالجملة والفتك الأعمى كان يوقن الأحياء أنهم هالكون لا محالة، وأنّ كلّ يوم يطلع عليهم هو يوم قيام الساعة.

«رأيت، يا حمو، ما يعجز اللسان عن وصفه.

«رأيت المقابر مكتظّة متخمة لا تحدّها الأبصار.

«رأيت المدينة خلاءً مقفراً لا تعمره إلاّ الجثث المتراكمة المتفسّخة، ولا تخظر فيه سوى أشباح آدمية يائسة متهدّمة.

«رأيت الرعب في أسمى آياته مستبداً بالوجوه والأجسام القابعة خلف الطيقان والحيطان.

«رأيت الحيوانات الأليفة، وحتى الطيور الجوارح، تفرّ من الأحياء والموتى ما وسعها الفرار.

«رأيت منكرات أخرى اكتوت بها ذاكرتي وأخرست نطقي ولغتي.

«وأذكر أنّي في لجة الهول كنت أدعو اللّه أن يهبني قدرة على إيقاف الموت الكثير بإجراء الخوارق والكرامات. وكان أن تيسّرت لي هذه الموهبة أثناء رؤاي المنامية وأحلامي اليقظة، فأعتقت أرواحاً، وأزلت آلاماً، واخترعت علاجاً، حتى إذا انتبهت وجدت نفسي تهذي وتعود إلى ضعفها المكين وعجزها المبين.

«ذلك الوباء سماه أهل العصر بأسماء متشابهة الهول والحدّة: الفناء الكبير، والمرض الهائل، والطاعون الوافد أو الجارف أو الأعظم، فسجّل عنه يا حمو ما لم يتيسّر لي قوله في نصوصي السابقة.

«أصله آتٍ، واللّه أعلم، من بلاد قبائل المغول والخان الأكبر حيث أدّت الحروب ثمّة، منذ عقد وأكثر، إلى تكدّسات مهولة للجيف التي حملت الرياح براثينها طاعوناً إلى بلاد الإفرنجة فالمشرق والمغرب. ولا أظن حظ تونس من العدوى إلاّ من صقلية عبر القوافل التجارية البحرية، التي عاضدتها، في نشر الوباء بين بقاع أخرى، القوافل البرّية ومدارج الأهوية.

«وبحسب علمي، ليس هناك أي سجلّ لمواصفات طبّية أو إجراءات قانونية رسمية، هدفها التصدّي لمضاعفات الوباء على النّاس والحفاظ على توازن حيوي في البلاد. وسببه أن الدول في المغرب، وأظنها كذلك في المشرق، خلافا لدول الإفرنجة، عاجزة عن التّدخل لرصد الوباء والعمل على وقف فُشُوّه خصوصا إن وافق طورَ هرمها وتلاشيها أو كانت قريبة منه. وبالتالي فمعارفنا من ذلك الباب لا تسعف مطلقاً في استبانة جسامة الحدث وامتداده في الزمان والمكان.

«أما من جانب الإخباريين والحوليين، فلسنا أوفر حظًا. فالإشارات الكمية، التي يصعب التحقق منها، واللوحات الوصفية المشوبة في الغالب باعتبارات ونقاشات مذهبية خارج الغرض، كلها تدفعنا إلي تعويض نقائصها بنشاط افتراضي وتقريبي في مستوى المأساة.

«ما هو في حكم اليقين أن الانهيار السكاني الناتج عن الطاعون لم يضرب بقوة إلا الأحياء الفقيرة، وبالتالي فقد كان أفتك في الضعفاء وأهل الشظف، وذلك طبعا بسبب تعفن الهواء، ولكن أيضا كما دقق ابن الخطيب بسبب : [*ضيق المساكن والتراكم وسوء التدبير وعدم التحفظ لفشوّ الجهل وعدم العلم بهذه الأمور في طبقات اللفيف*]. أما الأغنياء وذوو اليسر، فإنهم عموماً لا يتعرضون في أرواحهم لعدوى المرض الهائل إلاّ بدرجة أقلّ، وذلك بفضل التجائهم إلى دورهم وضياعهم في البوادي بعيداً عن مجاورة المصابين. غير أن آثار الحدث السلبية عليهم تتمثل في انتقاص مداخيلهم الفلاحية والعقارية بفعل تقلص طلبات السوق وغلاء أيدي الاعتمار الناجية.

«لا عمران بلا اعتمار وانتشاط، كما هو في اعتقادي ومذهبي. وما أوخم العواقب على الأرزاق والأعمال المربحة، وعلى الخدمات وأسباب المعاش إجمالاً في البلاد المعرّضة للطواعين !

«لا بدّ لي الآن يا حمو من ذكر الموقفين اللذين كانا لأهل النظر والفكر أمام الطاعون وأمام الموت :

«الموقف الأوّل يكمن في القول بالإجراءات التطبيبية المتيسّرة، التي تخفّف من الحمّى الوبائية بتبريد الدماميل خلف الأذنين والإبطين والأربيتين بالماء والخلّ حتى تُفصد ويُجفّف ما بها من سوائل

خبيثة. هذا إن كان الطاعون طاعونا خُراجيا. أما إن وقع في الرئة فلا قوّة للطبّ فيه ولا حيلة. وفي الأحوال كلّها، الواقية في عرف الحكماء خير من العلاج، فعلى المسلم العاقل التحفّظ من الوباء قبل وقوعه أو العمل على الحدّ من انتشاره بعد حلوله. وليس له في هذا غنى عن نصائح الطبّ الذي هو نعمة من الله، كإصلاح الهواء بتبخير موادّ مخصوصة تقلّل من فساده، وكإصلاح الأجسام بالأغذية المناسبة، والمساكن بالتهوية النافعة، والعمران بتوقّي عشوائيته وازدحامه وتدهور غذاء الروح الحيواني فيه.

«الموقف الثاني يقوم في المواساة الدينية، وهو موقف يستمدّ نفوذه من القصور الطبّي نفسه، إذ بما أن شَرَهَ المرض مطلق ولا علاج له، فلا يبقى في وسع الإنسان إلاّ أن يقابله بالعلاج الإطلاقيّ الجذريّ، الذي هو قبول الشهادة. وهكذا سنّ صنوف من الفقهاء أنّ كل مطعون يُسْلِم روحه يموت شهيداً في سبيل اللّه.

«هذا الموقف الثاني ما أعظمه إن كان للدعم الروحيّ والتطمين النفسي! وما أبهي حثّه على قراءة القرآن والأدعية وحتى على التختّم بالياقوت المنقوش ببعض أسماء العلي الحسنى: «يا حيّ يا حليم يا حكيم يا حنّان»! إلاّ أن حكمته لا يلزم أن تُبْطِل الطبّ أو تقدح فيه.

– سيدي، هل أذكر ما نصح به الطبري في تعليق ناب الفيل للدراري درءاً للطاعون عنهم؟

– دعنا من هذا وسجّل أن «الدعاء سلاح المؤمن» حقاً، ولكن اللّه يقول: ﴿قلْ يا قومُ اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ فسوف تعلمون﴾. والتشريع لعمل في هذا الباب المنتسب إلى الطامات

الجسام إنما قصده الكدَ في معرفة الوباء من حيث أسبابه الأرضية دون الفلكية أو سواها، كما في التحرّز من تفشّيه بين الخلق بفعل الجهل والعدوى. وهذا كلّه ريثما تتحصّل للإنسان القدرة بالغلبة أو التهوين.

«أما القائلون من الفقهاء والمحدّثين بانتساب الطاعون إلى وخز الجنّ، وبنفي العدوى ضداً على المشاهدة والحسّ والتجربة والاستقراء، فيحضرني حكم صائب لابن الخطيب قاله لي غير مرّة: [*إن التصام عن الاستدلالات العلمية زعارة وتصاقر على الله واسترحاض لنفوس المسلمين*].

«عليّ قبل الختم بدقيقة: علَل الوباء وأسبابه الأرضية المدركة ليس من الصواب ردُّها كلها إلى تعفّن الرطوبات والهواء وحده، بل مرجعها أيضاً إلى معالم هرم الدولة وما يصحبه من جبايات ومكوس منكرة تطال المزارعين وتؤول بانتشاطهم إلى التدنّي فالزوال، ممّا يتأدّى عنه ظهور الندرة في القوت والغلاء والفتن فالمجاعات ثم الطواعين. وأرى أنّ لأهل السياسة في هذا المسلسل مسؤولية، وبالتالي أن للإنسان عليه من باب التحفّظ والوقاية استطاعة».

تمدّد عبد الرحمن متوسّدا مخدّة ولسان حاله يردّد: «إن للإنسان من باب التحفّظ والوقاية استطاعة». وأضاف منشداً [*العالم بستان سياجه الدولة. الدولة سلطان تجيء به السنّة. السنّة سياسة يسوسها الملك. الملك راع يعضده الجيش. الجيش أعوان يكفلهم المال. المال رزق تجمعه الرعيّة. الرعيّة عبيد يتعبّدهم العدل. العدل مألوف وهو قوام العالم. العالم بستان سياجه الدولة*]».

فجأة، خيّم بين الرجلين صمت طويل تظلّله السماء بعمقها وكواكبها المشعّة، ويُسهِّله الليل بصفائه ودفئه. وبعد أن تبيّن الحيحي أن معلّمه غاطٌ في النوم، نادى على شعبان لمساعدته على حمله إلى بيته، غير أنّ الخادم أخبره أنّ سيّده أوصاه دوما أن يتركه في السطح إن أخذه النعاس فيه. وبعد أن تعاونا على تدثيره، نزلا إلى باب المنزل حيث دار بينهما لأوّل مرّة حوار هادئ:

«مسرور أنت يا شعبان بعملك عند المعلم؟

– مسرور ومرتاح... الأفندي والحمد للّه من خيار النّاس.

– هذي مكافأةٌ مني عشان عنايتك بزوجتي.

– المكافأةُ تصلني من سيّدي، ولا أقبل غيرها.

– الحلاوةُ ذي مايعلم بها غيرنا.

– وهذا يا أفندي سبب آخر لأرفضها.

– على زيك يا شعبان. إنما أرجوك تخبر المعلم بأني راجع إليه قبل ما يذهب للحجّ».

تسالم الرجلان بشيء من الحرارة ثم افترقا.

حاشيتان

-1-

في الرابع عشر من رمضان والصباح ينشر أعلامه، كان الإعداد لحج العلاّمة على قدم وساق، والخادم شعبان لا يدّخر جهداً في المبادرة والمساعدة والسعي. كأنه يعبّر مسبقا عن ابتهاجه لوعد سيّده ببعثه إلى الحج في عام قادم.

بُعيد الإفطار بساعتين. فكّر عبد الرحمن في ترزيم بعض كتبه بين حوائجه، ثم تخلى عن فكرته، مكتفياً باقتناء نسخة من القرآن الكريم، وأخرى من ***منازل السائرين إلى الحق المبين*** للهروي الأنصاري. وفيما هو يتردّد في أخذ كتاب ثالث، سمع نقراً خفيفاً على الباب فهُرع نحوه. فإذا به وهو يفتحه يجد نفسه وجهاً لوجه مع أمّ البنين وخلفها شعبان بادي القطوب والاضطراب. سألها قبل أن يبادلها التحيّة عن زوجها، فأجابته، وهي تمدّ إليه قفّتين عامرتين، بأنها إنما تبغي إهداءه بعض مؤن الطريق وحثّه على الدعاء لها بالإنجاب أثناء حجّه المبارك. وأكدت متلعثمة أن حمو لن يعاتبها لو علم بمقدمها.

بقي عبد الرحمن محتارا : تارة ينظر إلى المرأة الملثّمة الراغبة في اجتياز الباب، وتارة إلى الخادم كأنّه يستفتيه في الأمر. وحين انقضّت المرأة على يده تقبّلها بشوق وإصرار، أذن لها بالدخول مخافة أن

يلاحظ الجيران منظرها، وأمر الخادم بأخذ الهدية والبقاء قريبا من مجلسهما.

في غرفة الاستقبال استوى عبد الرحمن على أريكته مهمهما بآيٍ، بينما اقتعدت الزائرة الزَرْبيَة حذاء ركبتيه. قالت بعد أن أماطت اللثام عن وجهها بحركة مندفعة:

«علمت أنّ سيّدي ذاهب إلى الحجّ، فنُبت عن المرحومة زوجتك في تزويد حملك بشيء من مأكول السفر، السمن البلدي والعسل الحرّ و«الخليع» والحلويات الصامتة. ولو كان بوسعي لأتيت سيّدي بهدايا الدنيا كلّها.

- جوزيت خيراً يا أم البنين وهداك اللّه إلى ما يرضاه.

قال الرجل كلامه هذا، وهو يغالب انفعاله الذي يقوّيه نظره المتقطّع إلى وجه المرأة المكشوف الطافح بالحسن والرقّة. وفجأة تشبّثت بيده وراحت تقبّلها من الجهتين بلهف شديد، لم ينفع في حدّه نهي الرجل ولا ترجيّاته. حتى إذا استسلم للأمر الواقع شعر وكأن يده باتت تطاوع المرأة وتستحلي ما تتلقّاه من قبلات طويلة متكرّرة، ومن لمسات بالشفتين والوجنتين ممزوجة بدمع غزير دافئ. سألها متحنّنا متودّداً:

«لم البكاء يا أمّ البنين؟

-لأني، سيّدي، اسم على غير مسمّى. لأني أمّ لبنين لا وجود لهم إلاّ في حلمي ووهمي. عظمت رغبتي في الولادة وملأت أوقاتي كلّها. لا التنزّه يخفّف عنّي ولا احتضان أطفال الآخرين. تراني يا سيّدي في

بعض لحظات خلوتي آخذ مخدة في حجري وأنشد باكية كالحمقاء:

نينَي يا مومُو

حتى يطيبْ عشاء مُو

ويجي بَاه من الجنان

ويجيبْ لهَ خوخْ ورمان.

كلَ سنة تمرَ في العقم تزيد من جزعي وخوفي، وأخشى أن تكون نهايتي مع بلوغي سنَ انقطاع الحيض لا قدّر اللّه..

كانت المرأة تتكلّم متألمة، وهي ترفع من حين لآخر عينيها المحمرّتين إلى مخاطبها المتعاطف السميع. وأردفت متضرّعة:

«بجاه علمك يا سيّدي، بجاه حبّك للّه ورسوله ادعُ لي في حجّك بالإنجاب، ولا تنسنى وأنت قابض على الشبّاك أو في طوافك وسعيك أو على جبل عرفات. اطلب من الكريم الوهّاب أن يرزقني ولو رضيعا واحدا يخرج من أحشائي ويقتات من لبني... ثديي هذا وبطني خراب أن لم أنجب وأُربّ... تراني يا سيّدي أترجّى اللّه فيما لا يقدر عليه؟

اغتنم عبد الرحمن فرصة تضايقه من حدّة سؤالها، فسحب يده سحبا حتى لا يحصل له مكروه في شهر الصوم هذا، قال:

«استلطفي اللّه يا امرأة، ولا تيأسي من رحمته. وأعدك أن أكثر من الدعاء لك في قضاء حاجتك. والآن ارجعي إلى زوجك لتعدّي له وجبة السحور، وأخبريه بقدومك إليّ.

وقفت أمّ البنين فمسحت خدّيها وأعادت لثامها، ثم انصرفت مسبلة العينين، طائعة مرضية. عندئذ أبدى شعبان تردّداً في الكلام، ثم تناوله بتشجيع من سيّده:

«مصاحباتي لهذه الست أيقنتني، والله أعلم، أنها تقية وفية بلا شك. إلاّ أنها تحب التبرج حقاً وتستسيغ كلمات الإعجاب والتغزل فيها. فكم مرة نهتني عن ردع قائلي تلك الكلمات من شباب النيل والأزقة، متعللة بأنَّ كلمات الهوى في تلك الرحاب يمحوها الهواء... أما الشيء الآخر فهو إكثارها من مساءلتي عن أخبارك وأحوالك. ويشهد الله أني لا أجيبها إلاّ في العامّ دون الخاص، وأقول الحقَّ في انقطاعك عن فتنة النساء. أما إلحاحها عليَّ في مرافقتها إليك هذا الليل بدل حراسة تنزهها، فو اللهَ لم أقدر على ردعه».

ابتسم عبد الرحمن متلطِّفاً، وطلب من خادمه النظر في المتاع مجدداً، وتسخين ماء الطهارة ثم الذهاب إلى الجمّال بغية التوكيد على موعده معه بعد صلاة ظهر الغد. ولمّا انفرد بنفسه جهر بالحمد لله على أنَّ أمَّ البنين لم تأته قبل أذان الإفطار، لأنها لو فعلت، لا قدَّر الله، لنقضت يقينا صيامه وطهره، فسبحان مدبر الشؤون والأوقات !

-2-

في صبيحة منتصف رمضان، استيقظ عبد الرحمن على وقع رؤيا منامية غريبة، رأى نفسه فيها وهو يودّع أم البنين- وقد صارت زوجته- ، فيرحل إلى مدينة شرقيّة قريبة حيث يقابل حفيد جنكيزخان تيمور الأعرج. وما إن دخل عليه الحيحي حتى شرع يحكي له الشقّ الثاني من الرؤيا دون الأوّل، قال:

«أمر عجيب والله، يا حمو، لا يزال ذهني رطباً بذكراه ! رأيت البارحة، فيما يرى النائم، أني في إحدى مدن المماليك أجالس الغازي الأعظم، الأمير تيمور سلطان المغول والتتر، وأناظره في أشياء،

وأفاوضه في أخرى لا ألوي الآن على منطوقها وفحواها. وأتذكر بالمناسبة أن شيخي إمام المعقولات محمد بن ابراهيم الآبلي، رحمة الله عليه، قد تنبأ لي برؤية ذلك الكائن الذي سار على نهج أسلافه في تدويخ بلاد الإسلام هدماً وتحريقاً، ومخض عبادها بطشاً وترهيباً. كل هذا حدث أوائل المائة السابعة مع جنكيزخان واستفحل مع حفيده هولاكو مخرب بغداد، ومازال الزحف التتريّ يسري في ظلّ الحفيد الآخر تيمور ويتفشّى ولمّا يمض على خروج المشرق من الكابوس الصليبيّ والمغرب من هزيمته في موقعة الأرك أكثر من نصف قرن. ولا أجد أبلغ من ابن الأثير في التعبير عن هذه الأهوال والهزاهز، ولو أنّه لم يعش حلقاتها المدمّرة الأخيرة.

«أتذكّر الآن، وأنا أحدّثك يا حمو عن رؤياي، أن لقائي بتيمور كان من بين العلامات التي تقول الشيء الكثير عن نصيب المشرق من الانتكاس والشقاء. فاللقاء، وقد تخلّلته مأدبة وحوارات مقطّعة، جرى لي تحت قبضة خوف وإرجاف، ما كنت أقاومها إلا بهمهمة آي من القرآن وحزب البحر عن أبي الحسن الشاذلي تارة، وبتذكّر انتصار المماليك على هولاكو في عين جالوت طورا.

«اللّهم يا كاشف الظلمات بعد تكدّسها، ويا واهب الآمال بعد اندحارها، خفّف عنّي عبء الآتي واجعل رؤياي في مدي عطفك بردا وسلاماً عليّ وعلى أمّة محمدّ. آمين».

كان الحيحي كعبد الرحمن يرفع كفّيه إلى اللّه ويردّد «آمين»، ثم تلوا معاً الفاتحة، وأدّيا بعض النوافل في جو روحي مؤثّر. وما إن انتهيا حتى بادر الحيحي إلى القول :

«لي عندك يا سيدي رجاء...

- خير يا حمو... قله ولا تبطئ.

- منذ عرفتك وأنا أرغب في دعوتك إلى وجبة في بيتي المتواضع. لكنّي لم أتقدّم بها إليك مخافة أن تستثقلها أو تشوّش على صفو اعتزالك. وطوال منتصف الشهر الفائت لم يمرّ يوم من غير أن تلحّ عليه أمّ البنين في طلبك إلى قضاء حفل «شعبانة» معنا، إلاّ أنّي كنت دوما أقمعها متذرّعا بكثرة التزاماتك وأشغالك.

-ليلة البراءة، لو دعوتني إليها لما تأخّرت.

- رجائي إذن أن يكون حفل عودتك من حجّك الميمون في منزلي وعلى نفقتي.

- في منزلك على الرحب والسعة، لكن بشرط أن يكون الإنفاق على من حجّ وتبرّك.

- إن كان هناك من سيشاركني فرحتي بتشريفك لي فهي زوجتي... أمّ البنين ستطلق زغرداتها وتعدّ حلوياتها منذ اليوم.

وضع عبد الرحمن في جيب الحيحي صرّة مال رغم امتناع الحيحي عن أخذها، ثم تحادثا عن أوراق إملاءات الليالي السبع، فقال صاحبها:

«أئتمنك يا حمو على إملاءاتي، فإن عدت من حجّي حيّا دقّقتُ فيها النظر ووسعتُها بمعيتك، وإن وافاني في تلك الديار أجلي فانشرها على النّاس، مضيفاً إليها رسالتي هاته لقصد المصادقة والتصديق.

- ستعود إلينا يا معلم حاجا بارا. موفور العافية والصحة. وإن وجدتني قضيت نحبي فالأوراق كلها عند أم البنين حيث تخبئ حليها.

- ستعيش إن شاء الله أطول مما تظن، حتى تبقى لحرمك ملاذاً وذخراً».

سُمع نقر على باب غرفة الاستقبال، ثم مثُل شعبان فحيّى وأخبر بوصول الجمّال إلى عتبة البيت، فانتفض عبد الرحمن واقفا، واعتزل مدّة في غرفة نومه قصد التزيي بلباس السفر؛ وحين عاد وتخطّى باب منزله الرئيسي وجد الحيحي وشعبان يتنافسان في مساعدة الجمّال على شحن الحمل وتثبيته. وما إن أزفت ساعة الالتحاق بالقافلة الذاهبة إلى مرسى الطور حتى تعانق مع الحيحي ثم مع شعبان، موصياً الأوّل بتفقّد بيته من حين لآخر، والثاني بالاعتناء بالست وإحسان مرافقتها في نزهاتها. وبينما الحيحي يساعده على ركوب الجمل، همس في أذنه يذكره بالدّعاء لأمّ البنين بالإنجاب، إرضاءً لطلبها الثّابت الملحاح.

بإشارة من العلاّمة انطلق الجمّال إلى مقصده راجلاً، وبإشارات أخرى حيّا صاحبيه وودّع.

الفصل الثاني

بيـن الوقوع في الحب
والحصول في ظل الحكم

" إنه (أي ابن خلدون) تبسّط بالسكنى على البحر، وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث، وتزوّج امرأة لها أخ أمرد يُنسب للتخليط، فكثرت الشناعة عليه - هكذا قرأت بخط جمال الدين البشنيتي في كتابه القضاة".

ابن حجر العسقلاني/**رفع الإصر عن قضاة مصر**

" في القاهرة شخص يحبني وأنا أحبّه" (ابن خلدون).

رواه ابن قاضي شهبة/ **الذيل على تاريخ الإسلام**

* *

الحج، ذهابا من مرسى الطور على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء إلى مكّة المكرّمة مرورا بالينبع...

الحجّ، إياباً من مكّة إلى مصر. مرورا بالينبع والقصير وقوص قصبة الصعيد ...

ذهابا وإيابا استغرق حجّي زهاء ستة أشهر. أما أنا فكنت خلاله غارقا في بحر من الشرود والتوهّمات، كما سيأتي ذكره.

في الذهاب كما في الإياب، وأنا بين قبر الإمام الشافعي وضواحي القرافة، أعترض طريقي رهط من الجنود الفرسان، فخاطبني قائدهم بلسان ألكن: «التسليم على الظاهر مولانا، هل ينسى؟ يسبقك الجمّال إلى دارك وتجيء معنا إلى الحضرة».

طلبت منه عند إيابي تأجيل اللقاء إلى الغد حتى أستحمّ وأستريح، فقال بأنّ كلّ ذلك يتم لي في القصر.

أثناء مصاحبتي لهم على أحد أفراسهم، فطنت إلى أنّي منذ مدّة أضحيت مشتّت الذهن طائشه، وأدركت بيسر أن السبب فيه يعود إلى انشغالي القسري بأمّ البنين. فأنّ تُنسيني هذه المرأة واجب المثول أمام السلطان قبل أداء فريضة الحجّ وبعده، أن تطرد من خلدي هذا المملوك بقدّه وعظمته، فمعناه أنها أخذت تفعل ما لا أريده في ثناياي الجوانيّة، وتتسرّب إلى مهجتي وفؤادي. لكني أشهد أن لا شأن لهذا الأمر في نور وعيي ولا واقع إلاّ من زاوية الحنان البريء، والرغبة في أن تنفع دعواتي لتلك المرأة بالخصب والإنجاب.

منذ أتيت مصر لاجئا، لم تتح لي فرصة الوقوف بين يدي السلطان برقوق في القصر الأبلق بقلعة الجبل الأحمر سوى ثلاث مرات خاطفة. لم ألق أثناء ها البناء والمعمار إلاّ بغضّ البصر وقلة الاحتفال. مردّدا في نفسي : أبهة أبهة! والبقاء للّه وحده. وأذكر أنّني في تلك الزيارات ما فتحت عيني واسعتين لغير باب القلّة الذي اجتزته إلى جامع الخطبة حيث أدّيت صلوات، وقضيت لحظات أجوب أرجاءه، وأتملّى زخرفه في رخام أرضه وسقوفه المذهّبة وفي مقصورته السلطانيّة، وأُحصي رواقاته الدائرة بصحنه. أمّا هذه المرّة، بعد أن بدا لي أني في ضيافة شبه إجبارية، فقد تهيّأ لي أن أدقّق النظر في ما يحيط بي وأستخبر عمّا زهدت فيه سابقا، وهذا ما فعلته على الفور، بعد أن فرغ غلمان من مساعدتي في استحمامي وتطييبي ولبس ثياب من الخزانة الكبرى. وبعد أن سددت رمقي بما قُدِّم لي من طعام، أُخبرت أنّ السلطان لن يستقبلني قبل صلاة ظهر غد ليوم الجمعة، وأنّ قضاء الليلة في القلعة لا مناص منه.

مضرباً عن الاستغراب والسؤال، قصدت جامع الخطبة حيث صلّيت العصر وحدي واسترحت قليلاً، متخفّياً عن الأنظار حتى لا أثير البصّ والغمز، أو أصادف واحدا من سماسرة السوء المتسبّبين في انصرافي عن خطّة القضاء قبل ثلاث سنوات. وحين كثرت الخطوات من حوالي قمت للخروج، فوجدت في انتظاري غلامين لعلّهما من أعوان نائب السلطنة. أفهمتهما أنّ في نفسي رغبة إلى المشي، فمشيت وهما ورائي على بعد أمتار.

دهاليز وأفنية خفيضة أو عالية قطعتها بخطوات كسلى. فبدا لي مرة ظاهر القصور بالحجر الأسود والأصفر. وطالعتني مرة قباب شامخة خضر أو صفر، ومرة أخرى أكاليل شرفات متفاوتة النتوء، مطلة على رحاب أو حدائق داخلية. كثيرة هي الأبواب الموصدة المحروسة! لعلها تؤدي إلى إيوان السلطان ومجالسه. أو إلى دور الحريم. أو إلى سراديب الأسرار المحجوبة. كنت حين أحاذيها أحث الخطو بحثاً عن فضاء يريح الخاطر والقلب. وأظن أني وجدت ضالتي المنشودة في جناح من أحد القصور، استرحت جالسا في أفسح بيوته وأوعبها للأنوار الحبلى بشفق المغيب. كانت هذه الأنوار تنفذ من الزجاج القبرصيّ الملوّن في الطاقات المتعدّدة الأشكال، فتنعكس على مرايا رخام الأرض، على الحيطان والسقوف العالية المزيّنة بالفص والصدف والذهب واللازورد. أمّا الأقواس والسواري، فكانت تكتسف عن نصيبها من البهاء المضاء في نقش خطوطها وبواكيها الجبسيّة.

سألت الغلامين عن القصر لمن يكون، فهمهما بكلام لم أفهمه. وغاب أحدهما لحظة، ثم رجع برفقة رجل ذي فرجية مفرجة وعمامة ضخمة تكاد تخفي عينيه. حيّاني باحترام معرّفا باسمه ومنيته المصري، كاشفا عن وظيفته كترجمان محلّف في القصر وأستاذ دار، أي مشرف على الطشتخانات والفراشخانات والشرابخانات، وغيرها من البيوت السلطانية الجوّانية. سألته بما سألت الغلامين فقال بأن القصر كان من قبل لأحد الأمراء الطبلخانات وصار اليوم قصر ضيافة الأعيان والوجهاء، وعقب:

- أنت لهذه الليلة، أيّها القاضي في عدادهم... أي خدمة؟

استفسرته ملئا للوقت عن موادَ بناء القلعة الأولى، فأكَد لي ما توقَّعته :

- منذ بناها قراقوش للملك صلاح الدين الأيوبي، وشيَد سورها وأبراجها وقصوها الأبلق السلطان الناصر محمد بن قلاوون المملوكي، ومنذ أعمرها السلطان الظاهر برقوق، أدام الله ملكه، وموادَ البناء وإضافاته هي حجر البلّور والصوّان الوافد من مصر العليا، ومن حجر الكلس المستخرج من جبل المقطَم.

همست في نفسي وأنا أنقر سارية : جبل أقرع ويزيدونه قرعا! هؤلاء العبيد، قبل تسلطنهم وبعده، يبنون بحنينهم إلى موطنهم الأصلي تركستان، وعمارتهم يريدون لها الصمود أمام جائحات الزمان.

- أي خدمة أخرى يا حاج ؟

- أن تبعث (قلت) في طلب برنسي بحمّام القلعة، وأن ترشدني إلى غرفة نومي.

أشار الرجل إلى باب خلفيَ، فتبعته منه إلى دهليز طويل أدَى بنا في آخره إلى باب عليه خادم، فأمر بفتحه، ودعاني إلى دخول غرفة مبيتي، حاثًا الخادم على الاهتمام بي، متمنيًا لي ليلة هادئة مفيدة.

كل الأفضية والمحلات في هذه القلعة رحيبة، لا تعرف للضيق المكاني معنى. فمثل هذه الغرفة قد تسع سكنى أسرتين من الفسطاط أو أكثر، وهي تفوق منزلي ببضعة أمتار وببذخ الفرش والأثاث. تخيلت، وأنا أقتعد أريكة، أمَ البنين تلج هذه الغرفة، وتملأ

فضاء ها بآهات الانبهار والإعجاب؛ وتخيلتها تلامس فراش النوم. فتبكي مفصحة أنَ نعومة أغطيته ومخدَاته الحريريَة ما تمثلتها حتى في أقصى أحلام المنام أو اليقظة، وما تمثلت أبداً مثل هذا التأنق في الأثاث والزخرفة. وتخيَلت نفسي أواسيها قائلا : هي الحضارة المتمدَدة على ظهرها كعاهرة مستهترة! هو الترف المؤذن بفساد العمران والأفئدة!

سمعت على الباب من يستأذن بالدخول : إنه الغلام أتاني ببرنسي على كتفه وبطبق مأكولات بين يديه، فوضعهما على مائدة وفتح نافذة منظرة، ثم ابتسم وأشار بسبَابته إلى الخارج قبل أن ينسحب. وقفت في المنظرة، فقلت فوراً : نعْم ما هداني إليه الرجل البشوش! هذه المشاهد على مدى بصري تستحق المجالسة والرعاية، هذه المشاهد بزخمها وجمال مطالعها! نقلت زرْبيَة وطبق المأكولات إلى المنظرة، وجلست فيها أسرَح النظر بين لقمة وأخرى، وأهب وجهي للمآثر والرحاب الآخذة في إيواء تباشير المساء.

هي القاهرة يا أمَ البنين إن أدرت وجهي صوب شمال النيل الشرقيَ، هي قاهرة المعزَ على أرضها السبخة، بمآذنها التوَاقة إلى جامع الأزهر ومشهد الحسين، بحدائقها وأحيائها وحاراتها، وبأبوابها التسعة المفتوحة على قنال الخليج وبحر النيل، بمبانيها العالية البيضاء خلف سور صلاح الدين، مبانيها الواقفة رغم ما يطرقها من تداع واضطراب. هي الفسطاط يا أمَ البنين إن ولَيت وجهي نحو جنوب النيل الشرقي. مدينة لولا الحمام، لولا فراخ الحمام على فسطاط عمرو ابن العاص، لما أمر الفاتح العربي بتشييدها ...

رقّة قلبي هذا المساء فرع من رقّة عمرو عليه السلام!

فسطاط محبّتي كم آوت من الصحابة في دُورٍ عفّى عليها الزمن! كم طافت بها أيادي الخراب وعدّدت فيها الردوم والكيمان، فصارت ملاذاً للحرافيش والمستضعفين، آكلي الفول والحِمّص المسلوق!

فسطاط محبّتي، هي المنبعثة الآن قدّامي ببيوتها وجامعها العتيق وحماماتها وقياسرها ومنتزهاتها... وكلّها عمائر تزدحم في متاخمة النيل والرُّنُوّ إلى جزيرة الروضة فيه، فإلى بلد الجيزة. وأقرب من الفسطاط إلى ناظريَّ مشهد السيدة نفيسة، فجامع ابن طولون، فبركة الفيل.

ألا سُرَّ من رأى ما أراه وأُبصره من هذه المنظرة!

كان الليل آخذاً في نشر سدوله وبرده الخفيف، ناعتاً كوكب السماء وكلّ النجوم والضياء. هدوء ناعم عمّ مكاني مدّة لم ينبهني إلى استغراقها إلاّ مؤذّن صلاة العشاء. قمت للتوّ فتوضأت ثم أدّيت ما في ذمّتي من صلوات، وعدت إلى المنظرة فتمدّدت فيها متدثّراً بسلهامي، وتركت حبل النوم على غاربه، مردّداً بيتا قفز فجأة إلى ذاكرتي:

إذا الليل ألبسني ثوبهُ   تقلّبَ فيه فتىً وجِعُ

«الصلاة خير من النوم، يا أفندي!» صوت التنبيه أتاني من خلف باب غرفتي. استيقظت مدهوشاً، فوجدتني على فراش الحرير والبذخ. أذنت لصاحب الصوت بالدخول، فتبدّلت دهشتي حين أخبرني أنّه هو الذي نقلني ليلا من المنظرة إلى الفراش خوفاً عليّ من

البرد. إنه تعب السفر، لاريب، أصابني بنوم عميق وأفقدني الإحساس بكلّ شيء. وضع الخادم أمامي طبق فطور وميدة عليها ثياب بيض، وذكرني باقتراب صلاة ظهر الجمعة، ثم توارى خلف الباب.

وثبت من فراشي إلى بيت الطهارة حيث قضيت حاجاتي وتوضّأت. صلّيت الصبح مسرعاً حتى أتفرّغ لما بقي فعله قبل أن أذهب لملاقاة السلطان. في ميدة الثياب لاحظت وعاء فيه سواكٌ ومرشّة وجعبة كحل. شرعت في ارتداء لباسي الجديد، وهو قفطان من سندس وفرجية من صوف وقماش تحتانيّ أخضر، وتركت جانبا الطرحة والطيلسان، كما اكتفيت بتسويك أسناني ورشّ بدني ولحيتي بماء الزهر. ناديت الغلام وأنا أدير عمامتي على رأسي، فدخل بمبخرة ترسل دخاناً رقيقا زكيّ الرائحة. فأخفاها بين قدميّ لحظة ولم يسحبها إلاّ بعد أن شحّت. ثبتت برنسي على كتفي وطلبت الخروج.

هأنذا إذن على أهبة الدخول في ربقة السلطان، معطّر الأطراف، متفنّقاً بشارات أبّهة ليست لي، متقمّصاً جلد شخصي الآخر. فاللّهم اجعل العاقبة لطفاً، وامطرني بشآبيب عفوك ونصرك!

مشى الغلام أمامي يخبط الأرض خبطا، فتبعته مهرولا أسترق النظر إلى جموع من الغلمان والأجناد في ساحات وإصطبلات أو على بوابات، حتى إذا بلغ بي جامع الخطبة، تركني وحدي أشق طريقي بين حشود المصلّين إلى جوار المحراب. كان وضوئي مازال صالحا، لذا حثثت الخطو مخافة أن ينالني أذى من أيدي جناة صفعتهم أو أمرت بحبسهم أيّام كنت قاضي المالكية بالصالحية. بشقّ الأنفس أدركت

الصفوف الأولى بين المحراب ومقصورة السلطان، فتحاشتني عيون وتبعتني أخرى بالتجلة أو الفضول. وأقدم عليّ بعض من عرفتهم في دواليب الدولة أو مجالس العلم. فباركوا لي في حجي، واستقبلتهم بالعناق والشكر وما قدرت عليه من مظاهر الحفاوة. وكان آخرهم الدوادار يحيى قطز، الذي همس لي أنّ مولاه سيخصّني قبيل الظهر بالوقوف بين يديه في إيوانه الكبير. وفجأة تنادت أصوات بوصول الملك الظاهر المعظّم إلى مقصورته، فوقف الجمهور، وتبارت الهامات في الانحناء، والسلطان يكاد لا يُرى من شدّة تراصّ درع بشري يعزله عن المصلّين. ناجيت نفسي: سبحان من يسلطن المعتوق ويؤتي الملك لمن يشاء، ولو كان عبدا وافدا أو ذا زبيبة!

حين قعد الجميع، ارتقى الخطيب ذو الزيّ الأسود المنبر المحفوف بعلمين أسودين: شعار بني العباس، فسلّم متناولاً سيفا من المبلّغ الذي أذّن فجاراه المؤذّنون، ثم ذكر الحديث: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة، والإمام يخطب، أنصت! فقد لغوت». فكان هذا إيذاناً بإقبال الخطيب على قراءة صفحات من الكلام الجاهز المكرور، كدأب خطباء الجُمع، مع تقصير في ذكر الخليفة العباسي، وإفراط غير معهود في الدعاء للسلطان بالنصر والتأييد والعزّة والتمكين، كأنّما هذا السلطان محاط بمخاطر شتّى، وأعداء لا حصر لهم. وما إن انتهى وأمّ المصلّين بشيء من العجلة حتى تسالم النّاس، وأخذوا يغادرون الجامع أفواجاً أفواجاً بعد أن اختفى السلطان وركابيته.

بقيت معتصما بمكاني كيما يخفّ الخطو من حولي. والتفتّ يمنة ويسرة فإذا بالدوادار ينتظر أن أنهض. نهضت فأمر مملوكا بمرافقتي إلى الدركاه.

الدركاه!

بعد قطع صوة وساحة مستطيلة مرورا بدرج سهل، فهمت أن الدركاه عبارة عن فناء كبير يجلس فيه منتظرو الإذن بالدخول على السلطان. تنفست الصعداء، ظاناً أني بجوار الإيوان الكبير بالقصر الأبلق، وأني من ساعة الفرج قريب.

اقتعدت أريكة قرب شبّاك حديديّ، ترى العين منه جانباً من الإصطبلات السلطانيّة. حياة الخيل والجمال فيها تصوّرتها هنيئة مرعيّة بين أيدي البياطرة والخدم والسائسين. أمّا التفاخر بالإسطبلات بين السلاطين فأمر معروف في هذه الدولة المملوكيّة، كما في غيرها. كلّ منهم ينافس سلفه في توسيعها وتكييفها لأسباب التكاثر، سواء بين خيل برقة النافعة، أو خيل العرب المتأنّقة... كان الشبّاك يريني أيضاً طرفاً من ميدان القلعة الرحيب، يعلوه ماء النوافير ونخل سامق وشجر الغلال والرياحين. وتطلّعت فنظرت فيه جانبا من ملعب الكرة الخاصّ بالسلطان والمقرّبين.

هنا إذن في الدركاه، ذات السقف المجوّف، والأعمدة الباسقة، والأرض الرخامية، هنا ينتظر الإنسان حضوره بين يدي من يطلق الأرزاق والجرايات أو يقطعها، ويخلي سبيل الأنفاس أو يخنقها؛ يسأل ولا يُسأل، وله اليد الطولى في كلّ شيء؛ يأخذ ما يشاء ويعطي ما يشاء؛ له العيون في الثنايا كلّها والأرجاء، لا حاكم ولا ناظر إلاّ هو.

هنا فناء الانتظار كالصراط! وأنت قائم خلف الحيطان يكرهك ربّ مطبخ الدولة على عدّ الوقت بنبضات قلبك، فيتركك مقنّب الحواسّ،

متوتر الأعصاب. مكسر المنعة. بالعا غيظك مع ريقك، مسلطا على رفضك صبرك. والغاية أن يدبَّ في أوصالك ريب في من أنت وما لديك. أن تعاين الخوف على نفسك من شيء مَا قلته لغواً، أو فعلته سهواً، فسارت بك السعايات إلى بركان السخطات الملوكية، فالجائحات.

المنتظر المترقّب إن كان ذا مال، فعليه أن يشتري ببعضه من السلطان أسباب المدافعة والجاه، وإلاّ ذهب ماله كلّه وجلس على الجصِّ عاريا محسوراً؛ والمنتظر المترقّب إن كان ذا علم فعليه أن لا يعظم أو يتشفّع به، وإلاّ قيل له : علمك لفائف كاغد، فَبَلِّله واجلس عليه. أما إن كان المنتظر المترقّب من أرباب السيف أو القلم، فروحه في ما ملكت يداه من «ثعلبية» وقدرة على التوفيق بين إرادة الجلوس فوق من سواه وضرورة التفاني في خدمة ظلِّ السلطان، مقصوصَ الذيل والجناح؛ وإلاّ فرأسه أقرب الرؤوس كلّها إلى صاحب النطع والسياف.

حين بدأت أستثقل الانتظار، والوقت يزحف نحو العصر، أخذت أرقب وجوه المارّين والواقفين والجالسين. كان المنتظرون مثلي يُعرفون بسيماهم من كثرة التخمين والانقباض. منهم الأمراء ولا شك وأصحاب الوظائف العليا. ومنهم التجّار والشعراء والمخبرون والقتلة، وكلّهم عبيد الرتب والزلفى، يرعون مصالحهم بأيدٍ مرتعدة وقلوب خفّاقة، طالبين لها المزيد، يخافون عليها كأنها بمنزلة أبصارهم وفلذات أكباده، ويخافون منها كأنّها الوباء والشرّ بعينه. فالسلطان في هذه الدولة أكثر من غيرها لا يأمن ولا يُؤْمن، سنته أن يدير ناعورة المنح

والحرمان بتدبير لا يعرفه سواه، وطرق لا تستثني العدر والحتف في حقّ اللائذين بظلّه.

المنتظرون - لحسن حظي - لم أتعرّف على واحد منهم، ولم يتعرّفوا عليّ، اللهم إلا من بعض الرؤوس حيّتني عن بعد، إذ خطرتْ فيها بصورة الفقيه القاضي، صورتي الغالبة بين أهل الدولة ومعمّريها.

توجّهت إلى مقدم أعوان الحاجب، وقد ثقل الزمن عليّ كالرصاص، وقلت كلاماً يوحي برغبتي في التعجيل بدخولي على السلطان، فخصني بنظرة شزراء، وفاه بكلام فهمت منه أنّه متذمّر من طلبي وأن عليّ أن أرتقب نوبتي ولو لمدة أيّام.

فنون السلطنة كثيرة، وفنّ الإهانة والإذلال ليس أقلّها مضاء وبروزاً. لا بدّ لمن يحظى بشرف ملاقاة رب السرير أن يتذوّق الإحساس بصغر حجمه وهشاشة قوامه، لابدّ أن يُسلّط عليه ما يُشعره بالضآلة وقلّة الشأن؛ وكلّ هذا لا يكون إلاّ بتطويل الانتظار عليه حتى تتهاوى كتفاه، ويتقوّس ظهره، فيحسن إبداء الرضوخ والانحناء.

ولمقاومة كمائن التقلّص والكَبْوَ، صرت أقوّي النفس بشتى التدابير والحيل: تبخترت في جلستي ونحنحت واضعا رجلا على رجل، رافعا هامتي إلى السقف؛ نظرت في محاسني نظرة تعظيم وإكبار، وفي عيوبي نظرة طمس وإغفال، واستذكرت عيونا لسادة القوم خصتني بالتجلّة والوقار. وفي مقابلتي وضعت السلطان الجركسي طيّ حجمه المجرّد عن اصطناعات السلطنة وشارات الملك، فبدا لي مملوكا بيع واشتريَ قبل أن يأتيه العتق ويجلس بمشيئة المصادفات والأقدار على

التخت. وتصورت هذا الذي سمي برقوقا جحوظ عينيه يسألني عن أعز شيء ينتظره مني: بم دعوت لي في حجك؟ فرتبت في ذهني كلمات مشحونة بأنين التضرع وقعقعة السجع، أغلبها من كلام فات أن قلته في حقه أيام ولايتي التدريس والقضاء.

لم يخرجني من سهوي وشرودي إلا سماعي لصوت يناديني بالاسم والرتبة إلى الإقدام. «جمعت أطرافي» للتو، وقصدت باب الإيوان لأجتازه بصحبة مملوكين إلى دهليز صغير تضيئه مشاعل شتى. وهنا استقبلني ممسك الستارة، المكنى برده دار، وراح يعانقني على نحو غريب ويفرك بيديه بدني كأنه يفتش فيه عن سلاح أو ما شابه. ولم يخلصني إلا بعد أن أظهرت بعض الامتعاض والتبرم. سلوك الحذر الشديد والاحتراس المفرط صار عند المماليك طبيعة ملازمة، والعياذ بالله!

فجأة رفع الرجل الستارة وصاح باسمي ورتبتي مرتين، وأومأ لي أن أتبعه. حين دخل أمامي إلى الإيوان الكبير صار يوقع خطواته بالركعات، وأنا من خلفه أبدي بعض الانحناء للسلطان الجالس على كرسيه... الإيوان كان كما عهدته بعمارته الضخمة وشبابيكه المطلة على الاصطبلات؛ والظاهر برقوق كان كعادته في مثل هذا المجلس يتوسط نفراً من الأمراء وأرباب الأقلام وهم وقوف. وخلفه جمع من السلاح دارية والجمدارية والخاصكية.

أشار إلي السلطان بالاقتراب من سماط مآكله، فاستجبت واكتفيت منها بالقليل مما صادفته أصابعي، مستعجلا المضغ والبلع. حتى إذا غسلت يدي من أثر اللحم والجبن والحلوى أشار إلي الطاعم

بالإقبال، ففعلت. وكدأبه معي، حياني على طريقته الخاصة بأن ضرب بكمه كتفي. وقال كلمات تركية يفهم منها الترحيب والسؤال عن أحوالي. أجبته بعبارات الشكر والارتياح، مبالغا في الامتنان له. هو الكافل الرازق، الراعي المسيطر. حدقتا عينيه الفالتتان كانتا مبللتين مستنيمتين كأن صاحبهما، وأنا في انتظاره، كان يتمتع بقيلولة شيقة أو يرهق بعض حريمه جماعا. بهذين العينين بارك لي في حجي وسألني:

- دعوت لنا بماذا، والسحب السود كثيرة، ورؤوس القلاقل والشغب متنطعة؟

غالبت إرهاقي وتجردت للإجابة المصطنعة، قلت:

- مولاي، قرت عيناك، بين الصفا والمروة وعلى جبل عرفات. وفي كل الأماكن المقدسة والأوقات، دعوت لك بالنصر على من عاداك. وبالتمكين في مهامك ومجراك. هتفت: اللهم يا مجيب الدعوات أعضد بجاهك [*السلطان الظاهر والعزيز القاهر، يعسوب العصائب والجماهر، ومطلع أنواع العز الباهر. سيف الله المنتضى على العدو الكافر، ورحمته المتكفلة للعباد باللطف الساتر*]. اللهم بقوتك مكن [*رب التيجان والأسرة والمنابر. والأواوين العالية والقصور والأزاهر. والملك المؤيد بالبيض البواتر. والرماح الشواجر، والأقلام المرتضعة أخلاف العز مهود المحابر*]. اللهم اكفل برعايتك [*أمير المؤمنين وعرفه آثار عنايتك في الموارد والمصادر، وأره حسن العاقبة في الأولى وسرور المنقلب في الآخرة. اللهم اجعل السعد قرينه والعز خدينه، وكن وليه*

على القيام بأمور المسلمين ومعينه، وبلغ الأمة في اتصال أيامه، ودوام سلطانه] في مقام خير أمة أخرجت للناس. *[اللهم بحرمة نبيك سيد المرسلين أتضرع إليك أن تحمي مولانا السلطان من غير الدهر وصروفه، وتفيء على ممالك الإسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه، وتريه قرة العين في نفسه وبنيه، وحاشيته وذويه، وخاصته ولفيفه]*. آمين يا أكرم المجيبين، يا رب العالمين.

لما انتهيت حللت كفي الدعاء، ففعل مثلي السلطان والحضور وقلت في سريرتي: رب إنك تعلم أني لم أدع في حجي لغير أم البنين، فبيض كذبي بعفوك، واجعله في الميزان كلا شيء.

اقتعد برقوق الأرض أمام تخته، وأجلسني جنبه بين بساطه ونمارقه، وهمس لي، والأعناق تشرئب إلينا والأبصار تلاحقنا:

– دعوت لي يا حاج بما قلَّ ودلَّ، لكن السحب السود كثيرة، ورؤوس القلائل والشغب متنطعة!

أجبته همساً:

– اللهم يا خالق الأجرام وحافظ النظام، جنب مولانا كمائن الفتن والطغيان، وافضح في نهارك الوضاء أجناد الدس والعصيان. اللهم ق سيدنا من شرور مرضى القلوب ومديري الخطوب، ومن أفعال كل الذئاب والكلاب وأولاد الحرام اللئام. اللهم سخطك على مضمري الحسيفة والبغضاء، وسماسرة السعايات الملفقة النكراء، واجعل يا ربَّ نحرهم في كيدهم، وغلّبنا على شيطانهم، آمين.

شكرني السلطان وأوصاني بالإكثار من الدعاء له في صلواتي، كما شكرني على حسن نصحي في جلب خيل المغرب العتاق إلى إصطبلاته، ثم من غير فاصلة، مال عليَّ بعينين شبه مغمضتين وقال:

- كان لك كاتب آنسك في خلوتك قبل حجك، وقيّد ما شاء الله من علمك...

اغتنمت صمته المفاجئ، فأجبت عن كلامه وكأنه سؤال، كاشفاً عن هوية كاتبي، مبرزاً خصاله الحميدة وابتعاده عن حومات المزالق والشبهات، فقاطعني بكلمة صعقتني صعقا:

- كاتبك... تعيش أنت.

وختم وهو يستعد للنهوض: تقديرا لمكانتك عندنا، أمرنا بدفنه في القرافة. وإنا لله وإنا إليه راجعون».

استقمت واقفا، تلقَيت طبطبات كمّه شاكرا، بينما الأستاذ دار يتكلّف بي بأمر منه، والمؤذّن ينادي لصلاة العصر.

غادر السلطان الإيوان محاطاً بركابيته، متبوعاً بأرباب الوظائف في اتجاه جامع الخطبة. سرت بين هذا الجمع الغفير، أحتمي به ضد وجع المفاصل الذي يعاودني كلّما أفجعني خبر مؤلم أو مشهد صاعق. ووجعي هذه المرّة ضارب أطنابه لأنه مضاعف الحدّ: وجع لخبر موت حمو الحيحي، ووجع لترمّل عقيلته أم البنين. فاللّهم ارحمنا حنانيك!

بعد انقضاء صلاة العصر، صاحبني الأستاذدار وبمعيته أمير جندار وبعض الركابية إلى باب القلعة الأعظم، حيث كان في انتظارنا غلامان

يحرسان بغلة شهباء فارهة، ذات كنبوش وعباءة ولجام ثقيل وسرج مدهون. وقال لي الأستاذدار ماداً إليَ كاغداً للتوقيع: «هي لك هبة من لدن مولانا». كلفته بتبليغ آيات الشكر والامتنان إلى السلطان، فانصرف. عندئذ اقترب مني أمير جندار، فبارك لي في حجّي والهديَة. ثم أذهلني بكلام زاد في تدويخي وتسعير وجعي: «أبلغتنا شرطتنا، أيها القاضي، أن دار كاتبك المرحوم حمو الحيحي تأوي شاباً لا أوراق له، يدَعي أنَه أخو الأرملة. ولولا شهادة هذه المرأة بذلك، ولولا وجهك، لطردناه خارج البلاد أيَاماً قليلة بعد دخوله التراب المصري. والسبب أن مصالحنا أمسكته غير ما مرّة في حالة تلبَس مريب بين الحرافيش والراكبين هواهم. اقتناعنا أنه خنثى مشكل، وأزعر ينتسب للتخليط. فانظر معه لعلَه يحتشم، وإلاَ أعدناه من حيث أتى».

طأطأت برأسي موافقاً. وهل كنت أقوى على الكلام وأنا أتلقَى خبراً مفجعاً آخر! ركبت البغلة بمساعدة الغلامين، فطبطبت عليها مهمهماً: «ليس فيك سأجد العزاء والسلوان»، ثم انطلقت باتجاه بيتي، يتقدمني فارسان وشيء من همَي وخوفي. على باب منزلي وجدت شعبان في انتظاري. عانقني مباركاً، ثم لحق بي في غرفة استراحتي بعد أن اهتم بمبيت بغلتي، قال:

- محمل حجك المبروك، سيَدي، في بيت نومك، وكل رزمه مختومة كما أرسلتها...

كلمت العجوز بصوت ملؤه الحنان والحزن:

- سأدلَك على نصيبك منها، هبة من مكَة المكرَمة... خبَرني متى توفي حمو وكيف.

- عرفتَ وصول الخبر الأليم إليك من الكدر على وجهك. حمو، الله يرحمه، مات صباح يوم عيد الأضحى الفائت، بعد أن عانى من فالج ألزمه الفراش والكرسي.

- وكيف حال أم البنين؟

- سيئة يا حاج، والله سيئة! من جهة موت زوجها، ومن جهة أخ لها يريها كلَّ المصائب.

- حدِّثوني عن هذا الفتى الطَّامة... بعد صلاة المغرب سترافقني إلى بيت الفقيد حتى أقدم التعازي.

- بل بعد العشاء، لا مؤاخذة. في هذا الوقت يكون الفتى الصعلوك في أمكنة المفاسد حتى مطلع الصبح.

آثرت مطاوعة شعبان، وفي نيتي أن أسأل أم البنين عن أخيها متى سنحت الفرصة. اعتصمت بغرفة النوم حيث تفقَّدت محملي، وجلست أترقَّب أن يحلَّ موعد الصلاة ويغشاني الليل، كيما أرفع الاختلاط عن ذهني وأخفِّف من وطأة أخبار النكد عليَّ.

* *

في منزل صغير بحارة الصامدة، عاش حمو الحيحي مع زوجته منذ قدِم مصر، وفيه توفي مشلولا، تاركا خلفه أرملة لا أدري بأي مورد ستقتات. اجتزت باب المنزل بعد أن أخْبَرَ شعبان عنّي، فتلقتني أم البنين بالترحيب والمباركة لي في حجّي، وكلماتها تعلو على كلامي في تعزيتها ومواساتها. ألحّت عليَّ أن أجلس في بيت استقبال خالٍ من أي نفس، ففعلت مطاوعاً، مصطحباً معي شعبان. سألتها عن مرض

المرحوم، فاقتعدت الأرض المفروشة حذاء ركبتي، وأخذت ترسل دمعا وتقول كلاماً متقطعاً فهمت منه أن حمو عاين الموت قبل حلوله، وأنها ذاقت معه قساوة العجز ونفاد الصبر.

- لا الطبيب (قالت) نفع ولا كُتاب الأحراز ولا عرافة الحي...

- المؤمن مصاب، يا أمَ البنين، المؤمن مصاب. خير من البكاء الإيمان بالله ﴿الذي خلق الموتَ والحياة ليبلوكمْ أيّكم أحسنُ عملا﴾.

- وما ذنبي أنا، يا سيّدي، حتى أبقى وحيدة مغلوبة في بلاد النّاس؟

خرج شعبان عن صمته، فقال بصوت معاتب حادّ:

- أنت في بلاد المسلمين يا ستّ، وفي ذمة مولانا الحاجّ وكفالته حتى يأتي من يأخذ بيدك، إن شاء الله.

كان هذا الكلام كأنّه إيذان لأمَ البنين بالشدّ علي يديَ بيديها، والدخول في لحظات بكاء متعدّد النبرات والأبعاد، بكاءٍ ما رأيت أو سمعت من قبل أبلغ منه عن الوجد وأقرب إلى فورة الوجود. دمع هذه المرأة بين يديَ كأنه، والله، دمع الأمل بعد اليأس والفرج بعد الشدَة! دمعٌ ما أشبهه بنقط ماء الحياة دفئاً ونبضاً. هل لي الحق في إيقافه أو سحب راحتيَ من تحته؟ كلا.

مدَةٌ من الزمن مرّت وكلّنا مستسلم لسلطان لا مردّ له: أم البنين للبكاء المسترسل، وشعبان لعدوى البكاء الصامت، وأنا للتأثّر وقراءة ما يطيب من آي الذكر الحكيم. لو كان بالإمكان تمديد المدّة إلى آخر الليل لما امتنعت وما اعتذرت. لكن دخول صبيّة بصينيّة ذكّرني أنَ

للمقام أحكامه وللانفعال حدوده. فعادت الأيدي والأمور إلى نصابها، ورغّبتني أم البنين- وهي تكفكف دمعها- في قهوتها وحلوياتها، من دون أن تحرم شعبان من عنايتها، وطغى علينا سكون هادئ، كنت أقطعه بين الفينة والأخرى بابتهال أو دعاء أو عبّ من كأسي. ورغم تطلّعي إلى معرفة كلّ شيء عن أيّام مرض حمو، عملت على إبطاله حتى لا أتيح للمرأة بجواري فرصة استئناف الشهيق والبكاء. غير أنها وكأنّها قرأت في ذهني، شرعت تحدّثني عن شجاعة الفقيد أمام «مكتوبه»، وتشهد شعبان على مرور ظروف الجنازة والدفن في ظروف حسنة بفضل مساعدة الجيران وبعض خدام السلطان. وكانت من حين لآخر تقول لي: «كل هذا من فضلك يا سيدي».

عنّ لي أن أسألها عن أخيها، هذا الذي لم أسمع عنه إلاّ السوء، فتردّدت ثم اندفعت:

- أحوال الأسرة بفاس بخير إن شاء اللّه!

- سمعوا بموت زوجي، لكنّ البعد حرمني منهم. لم يأتِ منهم إلاّ أخي من أمّي...

- لك أخ من أمّك، أين هو الآن؟

خفضت عينيها مبدية انزعاجا ملحوظا، قالت:

- شعبان يعرف عنه الكثير...هذا الأخ أبداً ما أحببته وما قبلته. أسرتي أرسلته ليقف معي في محنتي... ليتها ما فعلت... إحكِ يا شعبان!

- أحكي يا ستّ؟ عن أي شيء أحكي؟ عن فسقه وخلاعته، أم عن تهديداته بكسر ضلوعي إن لم أخلِ سبيلك! عن تخنثه وتعييره النسوي، أم عن سكره ورقصه في محلات الفجور والعار! كلّ ما أعرفه، الأحسن أن تقوليه بنفسك.

كانت أمَ البنين بادية التحرّج من الكلام في موضوع يغلب عليه السفه وقلّة الحياء، لذا أعفيتها منه قائلاً:

- هل تودّين بقاء أخيك معك، أم ترغبين في ذهابه؟

- عبء عليّ كبير هذا اللعين. أرتاح منه في الليل وأخدمه طوال النهار بيدي ومالي. لو وجدت حيلة لرحيله عنّي، يا سيّدي، لأعطيت خواتمي ودمالجي.

- فوضي الأمر إليّ. سأنظر في خلاصك منه عن طريق الشرع وأحكام أئمتنا الكرام. والآن أتركك في رعاية اللّه. سأراك في الأسبوع القادم بعد أن أرتّب أموراً وأترحّم على حمو في القرافة.

تشبثت أم البنين ببرنسي طالبة أن أتعشّى في بيتها، لكنّي امتنعت بدعوى حاجتي للراحة. عندئذ غابت لحظة، ثم رجعت ومدّت لي لفائف أُوراق قالت إنّ الفقيد أوصاها بتسليمها إليّ، وكانت أوراق أماليَ في الليالي السبع. أخبرتها أنّ شعبان سيأتيها قريبا بهديتي إليها من الحجّ، فأخذت تقبّل كتفي وتدعو لي بمباركة وترجوني أن أتذكرها وأزورها. سمعت شعبان يودّعها قائلاً:

- الصبر ثم الصبر يا ست! وأنا لو كنت في سنّ سيّدي لتزوّجتك على سنّة اللّه ونبيه.

على الباب، وأنا أجتازه، رمقتني عجوز بنظرة فاحصة مستغربة، كأنما هي تستشكل حضوري بدار أم البنين، وتطرح حولي سيلا من الأسئلة العويصة.

اللهم احفظنا من عيون البص والتفتيش.

اللهم يا ساتر الأعراض اشهد أني ما أتيت أرملة الحيحي إلاّ معزّياً، ولن أمدَ لها يدي إلاّ مساعداً.

اللهم إن كنت رجَحت كفتها في حجّي وأطلقت لخاطري أعنّته في ذكرها، فأنت تعلم ما في الصدور، وأنت التوّاب الرحيم.

* *

مرَت الأيام والليالي لشهر، وأنا أعتصم ما أمكنني الاعتصام ببيتي، أنقح تاريخي لجناح الإسلام الشرقي، أو أنظر في تقييدات الحيحي لإملائي، مضيفا إليها هوامش أو لواحق. وفي الحالتين كنت أعاين مرَة أخرى فيض الواقعات اللامتناهي، وبالتالي قصور النصوص عن استيعابها أو فحصها من كلَ جانب. العالم، سواء البرّاني أو الجوّاني- لعلّي قلت هذا ذات يوم- يتطلّب البحث الدؤوب المستمرَ، ولا أحسب الجهد الفردي في معرفته بكاف، ولا القول بمعصوم عن الخطإ والاختلاط، أو مستغن عن التخصيص والتصويب. العلماء ورثة الأنبياء، لكن بشرط أن يتواضعوا لله، ويتركوا أبواب الاجتهاد مفتوحة لأنوار الحق وإضافات الخلف من محبّي الغوص والحكمة.

أما من جانب أم البنين فبحثي كان طبعا من صنف آخر. هو بحث لا تحكَم فيه إلا للقلب واندفاع الأحاسيس. أفتح عيني في الصباح

فأجدهما مازالتا رطبتين برؤية التي بتّ انشغل بها وإليها أحنّ، هذا فضلاً عن حضورها الطيفي في لحظات التيه الوجداني والشرود النفسي.

مضى الشهر وأنا أزور المرأة ليلة كلّ جمعة بصحبة شعبان. صرت بالتدريج كافل أمرها ووليّ نعمتها. وكنت أعمل في قضاء حاجاتها بكلّ الكتمان والتستّر. كان شعوري بمسؤوليتي حيالها يقوى كلّما جالستها وحدّثتها. أمانة في عنقي وأسبقيّة في جدول أعمالي: هكذا أمسيت في السرّ أسمّيها.

في زيارتي الأخيرة متمّ ذلك الشهر، أردت أن أخبر أم البنين بنص شكواها من أخيها على أن تضمنّها تواقيع الشهود على ضرره وانحرافه، فنبّهتني إلى وجوده نائما في بيت مجاور. احترت في أمري وتعثّرت. الانسحاب عنوان للجبن، والبقاء مدعاة لما قد لا تحمد عقباه. استفسرت جليستي همساً عمّا ترتئيه، فأجابتني في أذني: «نقطع رأس البلاء، واللي يكون يكون». فكرت في الأمر مليّاً، مستدعيا عقلي وبصيرتي للمداولة، فاهتديت إلى أن وضعي الملتبس في بيت أم البنين لا يسمح لي بالنيابة عن الشرطة في الدفاع عنها؛ أما إن فعلت فقد أثير فضيحة حولي، وأصير لقمة سائغة في أفواه المغرضين ومجالس النمّامين. استقمت واقفاً متهيّئاً للخروج فإذا بي أرى الشاب المنكر يتوجّه نحوي سائلاً أخته: «شكون يكون؟». كان فعلا كما وصفوه لي بل أكثر: خنثى مشكل، ينطق ويشير كالنسوة، وعليه أمارات السكر والسوء. بدت أم البنين مضطربة مسحوقة، فتدخّل شعبان ملوّحاً بعصاه وقال: «هذا سيّدك يا ابن اللئيم وصديق المرحوم».

توجهت نحو الباب، فاجتزته تحت نظرات الفحص والبص لنسوة تتقدمهن العجوز السالفة الذكر، وتناهت إلى سمعي، وخادمي يتبعني، كلمات ذلك الشاب المهددة: « يا ويلي أنا عيان، وإلا كنت جعلتك فُرجة أمام النَاس».

في ليلة الغد، وقد طغى عليَ التفكير في واقعة الأمس، أجلست أمامي شعبان بعد أن صليت معه العشاء، وسألته ونحن نقتات ببعض الأكل:

- قضية أم البنين وأخيها تستفحل. وأنا إن دخلت طرفا فيها قد أجرَ القيل والقال، فما ترى؟

سكت جليسي لحظةً حرَر أثناءها فمه من لقمة، وبدا مقبلاً على كلام مخزون طالما ترقب قوله:

- القيل والقال بدأ يا سيَدي منذ زيارتك الأولى للستَ، والبطائق المختومة في القدح والقذف أخفيتها عنك حتى لا تشوَش عليك. وأرى زواجك الحلال فيه الخير ...

- زواجي يا شعبان، هل يعقل؟ أنا قريب من الستَين وهي لم تبلغ الثلاثين، هل يعقل؟

- زواج سيَدي بالستَ معقول من وجوه عدَدها معي: معقول حتى تكمَم أفواه الشتم والنم، معقول حتى تقوى على أخيها البلاء المسلَط، معقول ثم معقول لأنَ المرأة تحملك في قلبها وقرَة عينها. هذه المرأة بدأت معجبة وانتهت محبَة. اسألني عنها أنا العارف بكلامها الواضح والمرموز: واللَه ما رأيت أكثر منها شغفاً بك. أما حكاية فارق السنَ بينكما فمعرفة سيَدي بسيرة سيَد الخلق تبطلها.

سبب آخر هجس في نفسي: لعليَ إن تزوّجتها أحقق لها بإذن اللّه رغبتها في الإنجاب، فأحول دون ذهاب دعواتي لها بذلك هباءً منثورا.

هي أهل للعشرة ولكلِّ خير. هي قادرة أن تعوّضني عن فقدان قرينتها في الذكاء والفضيلة، زوجتي الأولى، التي استأثر بها البحر صحبة الوُلدان. هذا ما تؤكّده لي شهادة شعبان. سألته إن كان واثقا أنها لن ترفض لي طلب يدها، فاستغرب من سؤالي وقال:

– ترفض طلبك! لولا الحياء والحشمة، لولا الأعراف لبادرت هي إلى خطبتك. اتّكل على اللّه يا حاجّ، وأكمل دينك بما يأمر به الشرع ويرضاه.

ارتأيت، قبل الإقدام على أيّ شيء، أن أعالج قضية أخي أم البنين بالتي هي أحسن، ظنّاً منّي أن الرجل بئيس يحتاج إلى الحنان والعون. طلبت من خادمي أن يأتي به إليّ خفية في القرافة حذاء قبر المرحوم حمو. وكان هذا ما تحقّق يومه قبيل المغرب.

عندما رأيت الشاب عن قرب، وكان وجهه هذه المرّة خاليا من المساحيق، تحقّقت من علامة شقاوته وانسحاقه بفعل ظروف لا أعلمها. جسم متعب رغم فتوته، ونظرات مكتملة اليأس، منكسرة كنظرات المحكوم عليه بالشنق. كنت أعتقد أن تقويم اعوجاجه سهلٌ عليّ، أنا الذي عاشرت جبابرة الأعراب وأجلافهم، وتوفقت أحياناً في استمالتهم؛ لكن الأمر يبدو لي الآن أعقد وأعوص. فالشاب مهزوز الكيان، مريض، ما في هذا من شكّ. ولا أرى الوعظ والنصح ينفعان فيه أكثر من وضعه بين أيدي الأطباء العارفين بأحوال النفس

المختلة الأمّارة بالسوء. والجرم كل الجرم محاولة الإجهاز عليه بالعسف والزجر، أو تعقّبه كما لو أنه حيوان مسعور موبوء. الجرم كلّ الجرم أن أطفئ فيه هذه البقية من النور الثاوية في حنايا كلّ إنسان بما هو إنسان. هذه البقية لا بدّ بالأحرى من تزنيدها ورعايتها بالنظرة الودودة والكلمة الطيّبة، عساها أن تينع وتكبر.

سألت الشابّ عن اسمه وأحواله، فردّ عليّ بصوت هادئ شفّاف. استفسرته عن فاس وأهلها، فعبّر بكلمات مقتضبة عن تفشّي الفساد فيها وقساوة العيش التي تدفع الشبّان إلى الهجرة، والنّاس إلى اصطناع كلّ فنون التحيّل والشرّ. وعقب أن هذا المآل لا يستثني حتى المتعلّمين مثله، ولا أحد من أصحاب الحرف والصناعات.

انفراج ملحوظ لا غبار عليه في ذهن الشاب، قد يكون شعبان رتّبه ومهدّ حصوله. مغتنما إيّاه، تجرّدت للكلام في فكرة زواجي بصريح القصد والتعبير، قلت:

– ما قولك يا سعد أن نتصاهر؟

– نتصاهر! هل لك بنت تعرضها عليّ؟

– بل أنا الذي أحب أن أخطب منك أختك أم البنين أمام قبر زوجها الأوّل، صديقي حمو الحيحي رحمة الله عليه.

– تتحدّث أم البنين عنك، يا حاج، بكثير من الفخر والإعجاب، وتخوّفني بك أحيانا، فما يسعني إلا أن أبارك إن قبلتك هي.

– إذن قريبا، إن شاء اللّه، نعقد الكتاب وننظر جميعا في تحسّن أحوالك.

دسست في جيبه صرّة نقود مربتا على كتفه، فبرقت عيناه فرحا وشكرني مقبلاً كتفي، ثم ودّعته وقصدت مربض الخيل يتبعني شعبان.

* *

فاتح رجب تسعين وسبعمائة، تاريخ أدوّنه بماء الذهب ودمع الفرح. تاريخ من شهر مقدّس، كأنّي معه بُعثت من جديد لأجد في منزلي أمّ البنين وقد أشهدت على نكاحها عَدْلين، وأقمت لها عرساً في منتهى البساطة والخفّة، بين أقرب الصحاب والجيران. كل الترتيبات والتدابير تيسّرت بقدرة القادر. حتى سعد لان وخفض عينيه والجناح، كأنه دخل مع نفسه في هدنة متجدّدة.

أمام ما يحدث لي، نفسي اعترتها حالة أسميتها تدقيقاً سكر الافتتان. مفتون أنا بزوجتي الحلال وبما يحيط بها، مفتون بغليان الدم في شراييني وانتعاش خلاياي، مفتون بآيات الجمال أينما تجلّت: في ابتسام الأطفال، وتغريد الطير وهبوب الأنسام على الروح الظمأى وكلّ الأجسام.

فرحي عارم ما بعده فرح!

فرحي، لولا مالكيتي وعياذي بالله من ذكر أنا، لأرخيت عنانه وبسطت جناحه احتفاءً بالنّاس والأشياء!

فرحي، لولا قصوري عن أبهى الشعر، لنظمته على صدر حبيبتي قلائد نور وأشواق!

عش رجباً ترَ عجَباً.

عجبٌ تحوّلُ الوجود عندي من عسره وثقالته المعهودة إلى دوائر الخفّة واليسر!

عجبٌ انسياب الوقت كالماء الزلال بين يدي!

عجبٌ زوال داء المفاصل من بدني، كأنّه ما ألمّ بي قطّ.

عجبٌ عودُ الرغبات إلى جسمي خفاقةً، بعد استيلاء التصدع والزهد عليّ!

هذه العجائب وأخرى، لا ريب عندي أن مديرتها امرأة: هي رافعة الغطاء، هي المهماز المفجر والفيض كلّه والعطاء. ولولاها لبقيت نفسي حاملة شارات الانتكاس والحداد، لبقيت رغائبي وحقوقي في الحياة طيّ الضمور والكبت.

كانت أم البنين تلحظ - رغم تكتّمي وحيائي - حسن مآبي والتغير المحمود في كياني، فتبذل الجهد الأتمّ في إرضائي، وتصلي ورائي شكرا للّه على وجوده ومنّه. وكنا معاً نذهب كلّ جمعة لزيارة قبر حمو والترحم على روحه الراحلة.

عنصر نشاز واحد برز فجأة في صفو حياتي الزوجية الجديدة، فعملت على تحييده وعلاجه بالحسنى. إنه المتعلّق بالفتى سعد الذي عاد إلى ركوب هواه واتباع مدارج الغيّ. محوّلاً بشهادة الجيران منزل أخته الأوّل إلى بيت عربدة وفسق. قال شعبان معاتبا:

- نبّهت سيّدي إلى أن الوغد سيجعل وعوده بالاستقامة دبر أذنيه، فما نفع فيه كلامك معه ولا إنفاقك عليه. ومهما فعلت، سينفخ الشيطان دوما في أنفه. لذا أرى الصواب في إعادة المنزل الذي يأويه إلى مالكه والاستنجاد بأطبّاء المارستان.

استحسنت نصيحة خادمي، وحظيت بموافقة أمَ البنين عليها. بعدئذ، تجنّباً لكل قمع أو تعنيف، عملت على تنفيذها بما أوتيت من حذق ومهارة في السياسة والتأليف. فالأمر أدقَ من الطحين وأصعب من تمشيط غابة عذراء. قمت بدءاً بإقناع سعد بلزوم إقامته المؤقّتة في المارستان الطولوني قصد الاستشفاء، وطمأنته على حسن معاملته من طرف القيّمين الذين أعرف منهم الناظر وبعض الأطباء. وبعد ذلك أقدمت على الإجراءات وبسطت يد البراطيل و «الحلاوة».

ليس عدلاً، يا ربِّي، أن أتبنّك في الحبور والنعمة وأحرم البئيس من عوني وما ملكت يداي.

ليس عدلاً كلَ هذا الاختلال في الدنيا وهذه الأنانيات الهوجاء.

ليس عدلاً أن تنزل نار الحياة على فرقة بردا وسلاماً، وعلى الجمهرة سعيراً وإيلاماً.

لو كنت في مقتبل العمر لطلبت الغوص في معرفة عالم الإنسان الجوّاني، باحثا عن العلل الدفينة وراء اعوجاج النفس وفسادها، لعلّي بعدئذ أدلي بدلوي في حيل الشفاء والانفراج. لكنّي في هذا الباب قليل الزاد، لا قوّة لي ولا حول.

* *

ستّة أشهر مرّت على دخولي بأم البنين. هذا النصف الثاني من عام تسعين وسبعمائة سجّل منعطفاً في سيرتي وإدراكي. ففيه عرفت ربّي في أروع ما خلقه: الذكر والأنثى، وفيه صرت أهتف أكثر من ذي

قبل : الحياة ، ربنا ما خلقتها باطلا ؛ وفيه أعدت اكتشاف روضة المحبين ودخلتها آمناً مؤمناً ، لا همّ لي سوى إسعاد الحبيب ، وإسكانه بين مهجتي وأضلعي .

أقولها ، ولو أنّي على عتبة الستين : الحب والحياة وجهان لدم واحد ؛ ومن لا حبّ له ، لا حياة له . أقولها : الحبّ والمحراب صنوان لا ينفكّان ، فمن ترهبن في هذا فقَدَ ذاك ولم يضمن رضي اللّه وترحيبه .

لا ريب أن أفكاراً من هذا الصنف خالجتني في ما مضى بحضرة زوجتي الأولى ، لكن تواترها وصفوها كانت تعكرهما الشواغل وغواية الرتب . أمّا اليوم فالسيادة كلّ السيادة لتلك الأفكار ، والبهاء كلّ البهاء .

أشياء وأفعال كنت لا ألتفت إليها أو أمرّ عليها مر الكرام ، فصرت الآن وقّافاً عليها ، منها مثلاً المأكل والمشرب والملبس والمنتزه والأثر .

كلّ الصحون والأشربة التي تعدها لي أمّ البنين أضحت عندي معروفة بأسمائها ، مبرزة بجودتها ، عظيمة القدر بيسر هضمها وجميل نفعها . فلا ألقاها إلاّ بالشكر والتنويه ، ولا أرتّبها إلا بين أنفس طيّبات الدنيا ، المبشّرة بطيّبات جنّات عدن .

والملبس ، رغم حرصي على بساطته شكلاً ولوناً ، بات يرتقي المصف المعتبر حين تختاره أو تخيطه أم البنين ، وتخصّه بأزكى العطور والأبخرة .

أما المنتزه والأثر ، فحدث عنهما يا قلب وإن ضاقت العبارة أو شحّت . وفي هذا الباب أيضاً ، كان لزوجتي قصب السَّبْق بفضل

شغفها بالخروج والتّجوال، وبفضل شعبان طبعا. اكتشفت أنها تعرف في القاهرة والفسطاط مآثر ومنشآت شتى، لم أكن أعرف بعضها إلاّ بالذكر. وحين استغربت من كثرة معايناتها اعترفت لي أنَ ذلك راجع لكون المرحوم حمو صار أيام مرضه يطلب التنزّه تنفيسا للغمّ، فتصحبه خلف كرسيه الجرار أو على ظهور القوارب والبغال. وهكذا زارت معه جزيرة الروضة وحتى الجيزة والأهرامات.

ذات يوم من شهر شوّال، ذهبت عن بكره أبي أعيد اكتشاف بعض وجوه القاهرة بعين زوجتي الجوالة. كنت ببرنسي أمشي الهوينى، وهي بجلبابها المغربي ولثامها تتبعني حَذْو النعل بالنعل. فما إن غادرنا المحمودية حيَّ سكنانا حتى كانت هي التي تقودني كما يقاد الحصان، فتدخلني من باب وتخرجني من آخر، كأنما هي بين أبواب منزلها بفاس أو القاهرة. وهكذا طفنا بالمدينة وفيها بين باب الفَرَج إلى باب المحروق، مرورا بباب القنطرة وباب الفتوح وباب النصر وباب البرقية. وعند كلّ باب كنّا ننفذ إلى منتزه أو حيّ شهير أو مشهد أو جامع.

قطعنا حدائق الظاهر مختالين، متطلّعين إلى نخيلها العملاق وإلى الزعارير برياحينها وتغاريد العصافير الهائمة، متنشّقين جمال الآس والورد والنسرين والبان والياسمين، وغيرها من باقات الفتنة الملهمة. باقات كلّها متفتّحة متألّقة تستضيف النور والندى والنحل والفراش. باقات أعظمها، قالت صاحبتي، لا يرى حتى في الحلم. قول ما أصدقه! فألوانها وأشكالها من الغنى والكثرة بحيث لا يحيط بها خيال آدمي إلا بهبة من راسمها الأوّل وجاذبها إليه.

من حي ترجمان وحي بهاء الدين أخافل بالمساكن، وصلنا إلى الجامع الحاكمي بعد السلوك بدروب وأسواق وقياسر. كانت لنا وقفة بقيسارية خونذ حيث اقتنيت لأمّ البنين، ملحاً، تفصيلة ثوب من اختيارها؛ وكانت لنا أخرى بسوق المتعيّشين وسوق بني القصرين حيث اشتريت بطلب منها رماناً، وسألت في وراقة عن مخطوط مصري لطوق الحمامة.

كانت زوجتي كلّما شقّ طريقنا في زحمة المارّة مالت عليّ وقالت: «هذا ياجوج وماجوج!» وفعلاً كان الآدميون في أماكن التعيّش والدبّ يتكاثرون حتى يلتفّ الساق بالساق، ويعسر تحرّكهم كأنهم في يوم الحشر. عندئذ كنت أشدّ للجدّ حزامه وأجذب زوجتي إليّ، مراقباً تململات المحاذين من الساعين ونظراتهم، متأهّباً لكلّ الطوارئ غير السارة. ولحسن حظّي، قليلة كانت العيون الملتفتة إلينا بإلحاح، ظنّاً من النّاس أنّ المرأة في جانبي ابنتي أو ما ماثل.

على مصطبة صغيرة أمام الباب الكبير للجامع الحاكمي. جلست مستريحاً من عناء المشي، فجلست خلفي أم البنين تحدّثني أن زياراتها لهذا الجامع، بصحبة المرحوم حمو، لا تفوقها عدداً إلاّ زياراتها للأزهر وضريح السيّدة زينب ومشهد الحسين. وطلبت منّي: هل حقّاً أن الجامع أمامنا من بناء ملك طاغية. فأجبت أن نعم.

- وهل حقّاً (قالت) أنه منع النساء من الخروج؟

- فعل هذا بل أكثر. سفك الدماء ظلماً وقلب الأوقات وحرّم التنجيم والغناء...

- واللّه ثم واللّه لو عشت في وقته «لوريته» شغل الفاسيّات.

خنقت ضحكة عريضة، أفلتَ منّي بعضها حين سمعت الفاسيّة تسألني جادة:

- هذا الحاكم باني هذا الجامع، هو أبو السلطان برقوق أم جدّه؟

وعدتها بالإجابة بعد عودتنا إلى المنزل، وتابعنا السير وأنا أردّد في سريرتي: أمّ البنين والتاريخ ضدّان لا يلتقيان، فاللهمّ احفظها لي في براءتها الأصلية وجمالها الغني عن أخبار الملوك والزمان.

في شارع بين القصرين، عرفت زوجتي بالقصر الكبير وقصر الوزير، وأشرت إلى المدرسة الصالحية حيث درَست منذ ثلاث سنوات، فمالت عليّ قائلة:

- جهلي يا عبد الرحمن كبير، وأنت تضحك عليّ...

- حاشا للّه (أجبتها) أن أضحك على من مثلك يريد التعلّم. ما أضحكني أمام الجامع الحاكمي شيء آخر: بانيه، يا أمّ البنين، كان يحكم النّاس بتقلّبات مزاجه المريض وبالعجائز من النساء.

- عجائز النساء!

- كان يستعملهن في جلب الأخبار إليه من قعر الدور والبيوتات، خصوصا ما كان منها لأرباب الدولة وأكابرها. كان بفضلهن يطلع هولاء على الشاذّة والفاذّة في مآكلهم ومناكحهم، حتى ظنّوا أنّه عرّاف يقرأ المحجوب والغيب.

ندّت عن زوجتي ابتسامة عريضة، فعقبت عليها منتهزا: «لهذا ضحكت».

توغَلنا في اختراق دروب ورحاب وأسواق أخرى، حتى إذا صرنا برَحْبة باب العيد، سلكنا من رأس درب السلامي إلي درب ملوخيا، فإلى المشهد الحسيني حيث حكيت لزوجتي- وهي متأثرة مشدوهة- قصَة رأس الحسين المقطوع؛ ثم قصدنا الأزهر الشريف، فدخلناه لصلاة الظهر كلّ في جناحه. بعد ذلك خرجت، فوجدت أم البنين تشتري رماناً من بائع متجوّل، وشاب وسيم في عمرها يطوف بها. غضبت من المشهد حقّاً، ومن دون أن أتريّث أو أتزن لويت على ذراع الشاب وأمرته أن يذهب، فذهب متباطئاً مكرّراً سؤالاً لاذعاً: «حضرتك أبوها؟ أطلبها منك أمام الشهود». كظمت غيظي وسرت إلى جنب زوجتي ميّالاً إليها. ولولا كثرة العيون الرامقة لكنت أخفيتها في سلهامي حتى لا أشقى بوقاحة المختالين عليّ بشبابهم. عاتبتها على شراء رمّان كنّا تزوّدنا به من قبل، فكشفت لي أنها صارت منذ أيّام قليلة تشتهيه أكثر من أيّ فاكهة أخرى، وتشعر بشهيّة عارمة في ازدراده بما لا يحصى.

عدنا إلى منزلنا على جناح السلامة، فوجدنا شعبان في استقبالنا، وعليه علامات الدهشة والترقّب. تهاويت على أريكتي متخلّصاً من سلهامي وبلغتي. غابت أم البنين لحظة وجاءت إليّ بإناء ماء دافئ، فأخذت، كما عوّدتني منذ تزوجتها، تفرك قدمي داخل الإناء وتركّز عنايتها على المفاصل والأصابع. كنت حدّثتها أنّ المرحومة زوجتي الأولى كانت تخصّني في الطبخ والاستشفاء والاستجمام بالتفاتات تلقائية لطيفة، فذهبت على سنّتها وأضافت من عندها أموراً أخرى تعلمت أسرارها بين النّساء الفاسيّات، منها المداعبات، أو «المزافطة» كما تقول.

طلبت من شعبان أن يعدَ لنا وجبة الغداء. فابتهج للطلب وقضاه في حينه. اغتنمت فرصة الأكل لأقنع أم البنين بأن تتخلّى لخادمي القديم عن بعض الأشغال المنزلية، حتى لا يقنط من الجلوس ويفقد شعوره بحاجتنا إليه. قلت لها: أن الاستبداد في السياسة قبيح كما في التدبير المنزلي. فأيّدتني مطاوعة ووعدتني بالاعتدال وأخذ المشورة، على عكس الحاكم باني الجامع.

وقت للقيلولة كان لا مناص منه، قضيته في غرفة النوم قبل أداء العصر. خلاله ساورتني خاطرة حول الشيخوخة التي عاينت بوادرها الأولى طوال الجولة الصباحية لهذا اليوم. وعلى ضوء هذه البوادر قد أقول إنها الغوص بقدم في الصبر وبأخرى في القبر؛ قد أقول إنها التدرّج في استثقال الحركة حتى الثبوت والعجز المصحوبين بالشعور الكئيب بهذا الوضع. وليس الموت سوى تحقيق الهمود في عدم الإحساس بالجثّة.

كي أجاري شباب زوجتي وأكون عند حسن ظنها في سر الألفة وعلن الظاهر، عليَ منذ اليوم أن أخيّب طمع الشيخوخة بي، وأفشل مناورات الثبوت وتربّصات العجز؛ عليً بالسير على هدى المعمّرين الأصحاء، طالباً المدد والعون من الدائم الحي. فاللّهم لا تُفضْ على رأسي من الشيب ما لا أطيقه، ولا تُصبْ بالوهن ما تبقّى من عريكتي وقواي.

وقفت مستنفرا، والتحقت بزوجتي في منظرة السطح المطلّ على النيل. كانت جالسة في تأملّ وخشوع، تلتهم الرمّان التهاماً وتصوب نظراتها إلى بطنها. وحين أحسّت بحضوري عبرت محتشمة أنها

تشتهي الإجاص والكعك. ناشدت شعبان أن يحضر من أقرب سوق الكعك والإجاص. فجأة أخذت تبكي كالطفلة، فسألتها أكانت تريد فاكهة أو حلوى أخرى. أخفت وجهها بين كفّيها وأبدت استغرابها من عدم فطنتي إلى معني وحمها، وترددت حيناً من الوقت ثم أطلقت خبرها متلعثمة: «أنا حبلى يا عبد الرحمن... حبلى». كدت أنا بدوري أبكي فرحاً بحدثٍ ما فكرت فيه يوما بعين الجدّ. ضممتها إليّ ضماً وسألتها:

– حبلى أنت يا أمّ البنين! هل أنت تأكدّت حقّاً؟

– علامات الحمل لا تخفى عليّ... وعلى القابلة.

– ﴿ادعوني أستجبْ لكمْ﴾. ربي الحمد لك والشكر.

فرحٌ كالذي أراه يُبكي امرأتي ما أحسب أني رأيت مثيله من قبل. أقدّم هذا الفرح تعريفا للحياة. الحياة هي استقبالنا لها وإعطاؤنا إياها بشارات السخاء والسعد. إنها في تغليب كفَة الخفَة والسعي على كفَة الثقالة والكبت.

عاد شعبان بما طلبته منه وبصينية القهوة، فقمت وعانقته باثّاً في أذنه الخبر السعيد ووصايا له بمطاوعة أم البنين في الخدمة، فبارك لي متأثّراً، ودعا للست بيسر الوضع، ثم انسحب. عببت قهوتي مصفراً بينما امرأتي الحامل تمسح دمعها الممزوج بالكحل وتقضم الكعيكات.

منذ تلقّيت خبر الحمل الميمون وأنا أعلّم الوقت بالأيام، وأعيشه على وتيرة تأثري وانتظاري. في زحم انفعالي بنموّ الحياة في رحم زوجتي،

لم يكن لي مزاج ولا سعة لتقصّي الأخبار ورصد الواقعات من أيّ حجم كانت وأي مأتى. ترقّب انتقال جنين من القوّة المحجوبة إلى الفعل المرئي يستحقّ التفرّغ له ما أمكن. وعلى هامش هذا التفرّغ، كنت بين الفينة والأخرى أنظر في أوراقي بعين المراجعة والتنقيح، وأضيف إلى سطورها خاطرة أو لمعة على سبيل الإضاءة والتوضيح. كما كنت أقيم آناء الليل مؤديا ما عليّ من صلوات، قارئاً في *طوق الحمامة* نتفاً، أو في *روضة المحبّين*، أو *الأغاني*. أما معظم أوقاتي، فقد بتُّ أقضيها في حالة تعبئة واستنفار تام، أنصت إلى نصائح شعبان، وأشهد مبادرات هذا الرجل الذي يستحقّ الجنّة من دون حساب.

* *

في عيد الأضحى من سنة اليمن هاته، كانت أم البنين قد دخلت بحملها في شهرها السادس. حمدت اللّه أن اجتازت بسلام أصعب الفترات وأدعاها إلى القلق والمخافة. قضينا يوم العيد على السنّة المتبعة، واستقبلنا في ظهره زوّاراً مباركين من حاشية السلطان والمغاربة المقيمين. أما غداة ذلك اليوم، فذهبت لزيارة بعض الجيران وذوي الفاقة، ثم قصدت المارستان الطولوني لتفقّد حال سعد والنظر في حاجاته. ويا لهول ما سمعت واكتشفت !

القيّمون كلّهم أخبروني أنّ صهري ميئوس من حالته. إنه أمسى يرفض الطّعام بعدما رفض الأدوية والكلام. سألت طبيبا أعاجزٌ فنّه بالتمام عن برء مريضه، فأكّد لي أنّ العلاج صعب بل مستحيل في النفوس التي جمعت من كلّ الأخلاط طرفاً، وذهبت بها مذهب التشعّب والتعقيد. استفسرته عن فعلٍ ما لإنقاذ الفتى، فأبلغني أنّه لا

يرى غير حقن التغذية الإكراهية في انتظار الحلّ الربّاني. وبصحبة حارسين، دخلت على سعد في غرفته- وهي شبيهة بزنزانة اعتقال أو عزل- فألفيته ممدّداً على ظهره ثابتاً كجثّة، محملقاً في السقف المبرقع بجلطات الرطوبة والأصباغ. جلست إلى جَنْبه أستلفت نظراته من دون جدوى. نزعت عنه بطانيته بلطف، فهالني مشهد جسمه المتهدّم، الناتئة عظامه، الفائحة أطرافه بروائح السقم والذوبان والمقيدة بأعضاء السرير. سألت الحارسين عن الداعي إلى ربط المريض، فزعموا أن ذلك للحيلولة دون إقدامه على محاولة انتحار أخرى.

ربّاه هل يعقل أن يتردّى الإنسان في مثل هذا الحضيض!

ملْت على أذن المنطرح، حابساً دمعي، وسألته عن اسمي، لكن عبثاً، ثم أردفت كلمات استصراخ وترجٍّ شعرت كأنّها تصدر عن كل جوارحي:

- أناشدك الله (قلت له)، أناشدك كلّ غال وعزيز أن تعيّن لي مرادك.

كرّرت سؤالي مرّات، حتى إذا مللت منه، أجابني المريض بصوت خائر منهّد كأنّه آت من قعر بئر:

- أريد حصّتي من الضوء والخلاء، أريد حصّتي من غمرة الشمس وأجنحة الظلام.

ظننت أنّ هذا الكلام من وسوسة الشيطان والحمّى الهذيانية، لكنّي علّقت ظنّي وسألته:

- كيف آتيك بكلّ هذه الحصص يا سعد؟

نظر إليّ بعينين لم أر قط أيأس منهما، واستنفر بقايا أنفاسه وصاح:

- أخرجني من هذا السجن.

كلّ الأسئلة والشروط باطلة معطّلة أمام إنسان على شفا حفرة من الانهيار. ومن غير أن أفكّر أو أتردّد، وعدت الشابّ بخروجه من المارستان في يوم الغد، وأقسمت له أنّي منجز وعدي إن هو تغذّى وقبل تلقّي الإسعافات الأولى. وكم تنفّست الصعداء وسعدت لما رأيت على وجهه علامات الراحة والانفراج!

أمرت الحارسين بفكّ قيوده، فامتثلا متردّدين، ثم بإحضار أجود الطعام مقابل ثمن دفعته لهما بسخاء. وحين أتمّ المريض استيعاب الطّعام بصعوبة متناهية، طلبت من الرجلين تنظيفه بالصابون والماء الساخن، ثم قبّلته وطمأنته على رجوعي إليه في القريب العاجل، وقصدت الباب باتجاه مكتب القهرمان.

- هل هذا مارستان للاستشفاء، أم مجمع للموت! (قلت له متذمّراً).

- رويدك يا أفندي، ألست أنت الذي وضعت المريض بين أيدينا؟

- وضعته بين أيديكم من أجل أن تعالجوه، لا أن تدمّروه.

- لكن بأيدينا وبكلّ معاييرنا اكتشفنا أنّه معوّج تماماً، خَطِر على نفسه وعلى النّاس.

- والحل أن تحكموا عليه بالهمود.

- المصلحة العامة فوق كل شيء، وعزل مفسديها فرض عين وفرض كفاية. أليس هذا ما تسهر عليه أيّها القاضي؟

- أرى أن صيانة المصالح المرسلة لا تفرض على أيٍ كان قتل النفس التي حرم اللّه. كفانا كلاما. سأرجع غداً لإخراج صهري من هذا المارستان.

- ليس الخروج كالدخول يا حاج!

- ماذا تقصد؟ أدّيت مصاريف إقامته وزيادة. هل ستمنع عليَ تخليصه من تلقّي الموت بالتقسيط؟

- مهلاً يا حاج. خروجه ممكن... لكن بكفالة مالية وأخرى معنوية توقّعها بالقلم الغليظ.

- وبقشيش الإفراج، كم هو؟

- ثلاثة ألف دينار نقرة للخاصة وألف للعامة.

- ﴿قلْ لنْ يصيبنا إلاّ ما كتب اللّهُ لنا﴾. غدا نرتب كلَ شيء بمشيئة الذي يمهل ولا يهمل.

أسرجتُ نحو بيتي كاظماً غيظي. الرشى والبراطيل في الدخول وفي الخروج وأينما ولّيت وجهك! تبّاً لكل نظام لا يحيا إلاّ بها.

سألتني أمَ البنين عن أسباب عبوسي، فأخفيت عنها كلَ شيء خوفا عليها من الصدمات ومما لا تُحمد عقباه.

في ظلام الليل، فكرت قبيل نومي في جواز تحريك أصحابي في القصر حتى أعفى من الكفالة المالية في إطلاق سراح صهري؛ غير أنّني سرعان ما ألغيت هذه الفكرة كيلا تصير حبّة القضية قبّة، فتنقلب عليَ بالسوء في أسواق القيل والقال وكثرة النمّ والسؤال.

حين أصبحت، ألفيت ذهني لاويا على فكرة كأنها راودتني في حلم: أن أستفتي في أمر سعد الشيخ أبا عبد الله محمد الركراكي الصوفي المالكي، الذي كانت لي معه صحبة في معالجتنا معاً لشؤون المغاربة. قصدت الشيخ باكراً في زاويته خارج القاهرة بأرض المقص على برّ الخليج الغربي. وما إن جالسته حول صينية شاي بالنعناع المر حتى فاتحته في الموضوع، من دون لفّ ولا دوران. حكيت له منفعلاً مأساة سعد، مبدياً رأيي أنه فيها مسيّر لا مخيّر، وأنّ التخفيف عليه قد لا يأتيه إلاّ من أولياء الله الصالحين.

أطرق الرجل ساكن الريح متأمّلاً، ثم قابلني بوجهه المشرق وبابتسامة وضّاءة يستسهل المرء في ظلّها كلّ صعب، ويستبشر بالفرج بعد الغم. قال:

- هوّن عليك يا ولي الدين، هوّن عليك. حدّثني أوّلاً عن أهل الدولة. كيف أحوالهم وأين وصلت بهم أهواؤهم؟

استغربت اهتمام الشيخ بمن سأل عنهم، ظنّاً منّي أنّ أهل الدولة وأهل الخرقة جنسان لا يلتقيان إلاّ نادراً أو في ظروف غير عادية. أجبته بشيء من الإيجاز والثقة بالنفس:

- إنّهم، يا أبا عبد الله، بخير على ما يبدو. الهدنة بينهم قائمة، وسيوفهم في أغمادها نائمة.

- ليس هذا ما أتتني به الأخبار. فإن كنت لا تعلمها أو تبخل عليّ بها، فاعلم أنّ الجوّ بين يلبغا الناصري وبرقوق آخذ في الاكفهرار، ولا ريب أنه سيحملهما على الاحتكام إلى السلاح. فانظر منذ الآن أيّاً منهما تختار وتناصر، وعلى أيّ فرس تراهن.

الراجح أن أمَ البنين الحبلى قد صرفتني عن سواها، حتى صار المتصوَف أكثر منّي إلماماً بأخبار الدَنيا. ولولا انتظامي الاضطراري في دواليب الدولة، لكنت أسعد الناس بحالي. سألت الشيخ عن سرّ ولعه بالأخبار، فأجابني:

- ربّما لأني ولدت وترعرعت في ركَراكَة على ساحل البحر المحيط المغربي، وهي منطقة القلاقل الطقسية، لا تنفك السفن عن مرساها إلاّ بعصف الرياح الشتوية. ذاكرتي مازلت تأوي صور التكدّر والتقلّب وفوضى المياه... حتى الفقراء يتوزّعون فرقاً وطوائف. ومجمل ماهم عليه: أنَ منهم من يذهب بالتصوّف إلى تزهيد النّاس في الدنيا وإماتة الحواسّ، ومنهم من يجنح بالتصوّف إلى تمثيله في يد اللّه الواعدة المتوعّدة، الواقفة مع العباد المشرئبّة أعناقهم إلى قيم الجمال والحق والعدل. وأظنّني، إن شاء اللّه، من هؤلاء وليس من أولئك... ثم أليس الدين عبادات ومعاملات! وقت لهذه ووقت لتلك، فينطوي يومي بما له وما عليه، حتى ألقى وجه ربّي ذي الجلال والإكرام.

- أحسنت القول يا أبا عبد الله، وبورك فيك.

- أما ما جئتني في شأنه... ذكّرني به يا أخي.

- قصّة أخي زوجتي الغريب الأطوار.

- نعم... عاينت في المغرب وفي هذه الديار حالات مرضية أدهى من حالة نسيبك وأعتى، فما انتهيت إلى غير هذا الإيمان: ليس بالتعنيف يصلح الاعوجاج في النفس ولا بالعزل والكيّ، بل بالإنصات إليها تروي خبرها وعذابها، ثم بشملها بكلمات الرعاية واللطائف، حتى يستبين الخيط الواصل بين أخلاطها وأبخرتها

الرديئة... بالفهم، ولا شيء غير الفهم، تتهيأ أسباب النجاة بعون اللّه.

سألت الشيخ للتحقّق من قصده:

- وما العمل يا أبا عبد الله؟

- مكان نسيبك ليس في منزلك ولا في المارستان، بل هنا في زاويتي حيث أعلّمه بين متدربي الفقراء أن يخشى اللّه ويتّقيه في نفسه. ﴿ **وأمّا منْ خافَ مقامَ ربّه ونهى النفسَ عنِ الهوى فإنَ الجنة هي المأوى** ﴾، صدق رب العالمين.

- أملي في اللّه وفيك كبير، لكن هب أنَّ الشاب ظلّ يهيط هيطا ولم يتب؟

- عندئذ أستشيرك في إلحاقه مدّة بالزاوية القلندرية خارج باب النصر.

كنت أعرف أن أصحاب هذه الطائفة هم من الملامتية المتحلّلين من آداب المخاطبات والسلوك، المرخّصين لأنفسهم ما تأباه الديانة والعادات، وذلك جلبا لملامات النّاس ونفورهم. غير أنّي أمسكت عن استشكال إشارة الشيخ إليهم، فأبديت ابتهاجي بعرضه، ثم قمت وانهلت على رأسه بالتقتيل. بينما هو يستغفر الله ويقبل كتفي.

كذلك كان.

ما دنفت شمس النهار حتى أخرجت سعدا من المارستان بشروط القهرمان، وتركته في كنف الشيخ الركراكي أطال اللّه عمره، كما أجّجت فرح سعد بكلّ الوعود الطيّبة المطمئنة.

بعيد أداء صلاة العشاء في الأزهر الشريف، دخلت على زوجتي طرباً. فوجدتها قلقة لغيابي مرتاعة. ارتأيت، وقد هدأت أعصابها، أن أحكي لها كلَّ شيء عن أخيها، فسُرَّت بما فعلتُ وباركت فيَّ، بينما كنت أتلمّس بطنها المنتفخ وأضمّه إليَّ ضماً.

على فراش النوم، شعرت بوجع المفاصل يعاودني مستأثراً بظهري، فلم أستطع هذه المرَّة، من فرط الألم، إخفاءه عن أم البنين. فما إن أخبرتها به، لاعنا ندوب السياسة وقروحها، حتى هتفت: «دواؤها الكؤوس». مدّدتني على بطني، وسحبت من تحت السرير صندوقاً صغيراً، ففتحته وشرعت تبلِّل كؤوسا بالكحول وتملأها شعلا شفافة بقضيب ناري، ثم تضعها على مفاصلي المضطربة. استطبت دفء الفعل، وطلبت منه المزيد إلى أن شعرت براحة أكيدة. وفيما هي تدلك ظهري بزيت العود، استسلمت للنوم شاكرا، قرير العين.

* *

في العاشر من المحرم، يوم عاشوراء، فكرت في اصطحاب زوجتي لزيارة أحد المشاهد الشيعية، فخيرتها بين المشهد الحسيني ومشهد زين العابدين ومشهد السيّدة نفيسة ومشهد أم كلثوم. قلت لها:

- كلّها مشاهد تطلب فيها الدولةَ البكاء على قتلى البيت الشريف أو تمنعه. لكن ريح المسك فيها تظلّ هي الأبقى.

غير أنّ أم البنين- يا لتعقلها ورزانتها!- اعتذرت عن تلبية عرضي مخافة أن ترهق نفسها، أو يأتيها المخاض على حين غرّة، بعيدا عن القابلة، وأردفت قائلة:

- نسيت يا عبد الرحمن أني في شهري السابع؟ قلبي يخبرني أن بنتي ستكون مُسبعة مثلي.

- بنت تقولين! من خبرك بهذا؟

- خبرتني حركاتها اللينة وفحوص القابلة... ما رأيك أن نسمي طفلتنا البتول، باسم المرحومة أمّي؟

ضممت زوجتي إليّ واضعاً قبلة على جبهتها. ولأنّي لست من خلفاء بعض الجاهلية المتشائمين بالذرية الإناث، رددت في نفسي الحديث النبوي الشريف: «لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات»، ثم خاطبت زوجتي:

- سنسعد بالمولود، ذكراً كان أم أنثى، ونسميه ما شئت في سابعه. والشكر لله علام الغيوب.

تناولنا وجبة الإفطار، وعاهدت نفسي على لزوم بيتي أياماً حتى أبقى قريباً من أم البنين وحملها، وقريباً من كتبي وأوراقي.

اعتزلت في مكتبي، وأخذت أحدّد الأسبقيات في قراءاتي، وأرتّب الأمور في ذهني، عساني أتابع تحرير الفصل في المماليك من كتاب ***العبر***، وكذلك سيرتي الموسومة ***التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً***.

طغى عليّ البحث في أمور أولئك العبيد المتوّجين، حتى صرت في المؤلّفين معاً أرصد ما لا يختلف اثنان في روايته، وأجتهد في استنباط المعاني من زحمة الوقائع وتكدّس الحادثات. ولا يظنّن ظانّ أنّي أفعل ذلك ملْئاً للفراغ، أو دفعاً لبوادر الشيخوخة المتربّصة، بل لسببين دامغين، واحد عام: إفادة الخلف بحلقة أخرى في تراث العبر، وآخر

خاصّ لا بدّ لي من الاعتراف به الآن، رفعا لكلّ التباس: إنه ميلي إلى ركوب فهمي للمجريات قاطرةً لنجاتي ودرعاً واقياً ضدّ فناء عبثيّ، بطيء أو خاطف، يصيبني في مطاحن الأهواء ومصطدمات السيوف، فأُغرَّب ويُطيَّر بي إلى المنافي، أو أُقْطَع نصفين وتُخْلَع كتفاي. وهذا بيانه:

العلماء أبعد النّاس عن السياسة، حين تصير بيضتها فنّاً في إدارة الدسائس والحيل، وآلة للعطب والموت؛ هذا ما استخلصته من تجاربي في بلاد المغرب، وهذا نفسه ما بتُّ ألحظه بالعين المجرّدة منذ أتيت مصر لاجئا، إضافة إلى أنّ اليد الطولى بين مماليك هذا القطر هي من دون منازع لشوكة الأحلاف والأجلاب، أو لما أسمّيه بعصبية الولاء والاصطناع، التي، بتعظيمها وتسعيرها، تتنافس العصابات في الاستغلاظ بعضها على بعض، وتصريف سنن الاستصفاء والقتل. والعلماء، حتى من تصوّف منهم أو لاذ بظلّ الحياد والستر، لا يعفون- إلاّ إذا جُنّوا أو تطنبلوا- من تلك العصبية الكاسحة الضروس. فلا مناص من أن يكون العالم إزاء السلطان بموقف المعيّة أو موقف الضدّية، وأي وجه ثالث فهو مرفوع بالكسر في الأعضاء والأنفاس، أو بالنصب على أعواد النزف واليبس.. وهذا ما فهمته مذ حللت بهذه الديار، فتركت ثاني الأتابكة الطنبغا الجوباني ينظمني في سلك حاشية الظاهر برقوق، حتى أضحى هذا السلطان يربطني إليه بظلّ رعايته ومدد قمحه وجرايته، ويذكرني عبر نزعاته الملوكية الغاضبة أني مدين له بلقمة عيشي وبالهواء ملء خيشومي. ويعلم اللّه أنّي في سلك المشايعة الضاغط تعفّفت وتحفّظت ما استطعت، ودبجت في

المدح ما ضحل وقل، وأبديت نقاهتي من السياسة، وزهدي في زوابعها وتوابعها ما وسعني الأمر.

هذا عن بيان وجوب النظر في أحوال أهل الدولة القائمة الذي هو - من باب الحافز الذاتي - نظر في مآلي المرتبط بقلاقل تلك الأحوال ورجاتها.

ما جمعته من أخبار وأدركته من علاقات جعلني أُوقن أنّ حياة المرء في ربقة هذه الدولة المملوكية قائمة على كفّ عفريت. ويدرك ما أعنيه من عاش حالات يكون فيها الانتفاء والانطماس من الصفات الجوهرية للقاعدة أو القانون. فلا يقدر عليها حتى لاعبو الشطرنج أو محترفو الجفر والزايرجة المهرة. فقد تدور عليك الدوائر حيث لا تتوقعها، وتتناوب عليك الشدّة والرحمة تناوب الليل والنهار؛ وقد يتقبض عليك اعتباطاً أو يأتيك العفو حين لا تنتظره. سيّد المواقف والعقد إجمالاً سمّه العبث ولا حرج. ولك بين العميان وعصيهم، أو بين الحبال المخبّلة أن تتدبّر أمرك وتستبين ضوءك، معوّلاً على حسن الطالع وارتطام الصدف المشؤومة خارج ركنك.

حرّرت ما تيسّر من صفحات الوصف وسرد الأحداث الطافية على السطح في تاريخ الدولتين المملوكيّتين، البحرية والبرجيّة، مركّزاً كعادتي على دوائر السلطان في التنصيبات والخلوع والغزوات والفتوح، وفي النكبات والمقاتل، مع ما يتخلّل كلّ ذلك من ثورات وفتن. وبين سيل الواقعات وعتمة التقديرات لويت بالمصادفة السعيدة على عنصر محسوس يتعلّق بالظاهر برقوق، وقد أستفيد منه عند الامتحان واشتداد الظلمة: إنّه ميل هذا السلطان إلى العفو عند

المقدرة، وتصريف العنف بالروية والميزان. فخلافا للسلاطين النمور، تراه لا يهدر الدمَ إلاّ عند اللزوم والضرورة القصوى، ويلتذّ بنصره في جنوحه إلى إعادة المهزومين من منافسيه إلى مناصبهم وسالف رواتبهم وإقطاعهم، بعد شيء من الحبس أو العتب؛ وهكذا سلك مثلاً مع بركة، شريكه الأول في حمل الدولة، الذي تمرّد عليه، فاكتفى بسجنه في الاسكندرية حتى اغتيل من غير إذنه؛ وهكذا أيضاً سلك مع الناصري، نائبه على حلب وأخطر خصومه من اليلبغاوية.

حاولت فهم سرّ ذاك الطبع عنده، فلم أجده إلاّ في ماضيه قبل أن يتسلطن. فالرجل من الأجلاب المعتوقين، عاش الضعة والحرمان، وعرف الانحراف والبغي والاعتقال. وهكذا كان من بين جماعة المماليك قتلة السلطان المظفر حاجي ومستخلفيه بالسلطان الأشرف، أولئك الذين كتبت في *التعريف* فظائع ثورتهم:

[وانطلقت أيديهم على أهل البلد بمعرّات لم يعهدوها من أوّل دولتهم، من النهب والتخطف وطروق المنازل والحمامات للعبث بالحرم، وإطلاق أعنّة الشهوات والبغي في كلّ ناحية. فمرج أمر الناس، ورفع الأمر إلى السلطان، وكثر الدعاء واللجأ إلى الله. واجتمع أكابر الأمر إلى السلطان، وفاوضوه في كفّ عاديتهم، فأمرهم بالركوب، ونادى في جنده ورعيّته بانطلاق الأيدي عليهم والاحتياط بهم في قبضة القهر، فلم يكن إلاّ كلمح البصر، وإذا بهم في قبضة الأسر ثم عُمرت بهم السجون، وصُفّدوا وطيف بهم على الجمال ينادى بهم، إبلاغاً في الشهرة، ثم قُطع نصفين أكثرهم، وتُتبع البقية بالنفي والحبس بالثغور القصية، ثم أطلقوا فيهم برقوق الذي ملك أمرهم بعد ذلك، وبركة الجوباني والطنبغا الجوباني وجهركس الخليلي].

آفة العلم النسيان. فلا بدّ من التذكير بماضي المتربّع على تخت مصر اليوم، حتى تستقيم صورته ويتّضح المآل.

برقـوق هذا الملوك المعـتوق، يجـرّ وراءه سـجـلاً جنائيـا حـافـلا بالفواحش والزلاّت. هو الناهب الخطّاف! هو المغتصب للمحصنات في الدور والحمامات!

برقوق هذا الجركسي. حُبس وغُلّل بالسلاسل، وطيف به وشُهّر في الحارات والأسواق!

حيـاته: كحيـاة أيّ صعلوك كبيـر أو قاطعٍ طريق، قامر بها أمام الموت، مستخفاً بالمهالك والآفات، فنجا دائماً بأعجوبة، كأنّما نفسه ليست واحدة بل متعدّدة، كما يدلّ لغةً لفظ «الجركسي».

آت إذن من قبعات السوء والشر، ومن صنف الأجلاف وقوم العنف والنهك! وها هو ذا برقـوق المتـسلطن اليـوم يرتاد أبواب التـوبة، ويتقـصـد الاعتـدال والحلم في إدارة دفـة الحكم ومعاملة المغلوبين من مناوئيـه. فكأني به يروم بهذا السلوك غسل لوحة ماضيـه المظلمة بالصلصـال والماء القـاطع، ويبـعث للبـاري رسـائل الاسـتـعطاف والاعتذار. هكذا أغنيت الخبر في العبر، وأوجزته ورقّقت العبارة في التعريف مسجّلاً:

[وانفرد برقوق- بعد ذلك- بحمل الدولة ينظر في أعطافها بالتهميد والتسديد والمقاربة. والحرص على مكافأة الدخل بالخرج ونقض ما فيه بنو قلاوون من الإمعان في الترف، والسرف في العوائد والنفقات. حتى صار الكيل في الخرج بالمكيال الراجح، وعجزت الدولة عن تمشية أحوالها وراقب ذلك كلّه برقوق. ونظر في سدّ خلل الدولة منه. وإصلاحها من مفاسده. يعتدّ ذلك ذريعة للجلوس على التخت. وحيازة اسم السلطان من أولاد قلاوون بما أفسد الترف منهم. وأحال الدولة بسببهم. إلى أن حصل

من ذلك على البغية، ورضي به أصحابه وعصابته فجلس على التخت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين، وتلقّب بالظاهر]

* *

بقيت في اعتكافي على الدرس والتأليف حتى أواخر محرم، أنقّب وأفكّر وأقيّد، من دون أن أتغافل عن رعاية زوجتي والإنصات من حين لآخر إلى حركات الجنين في بطنها. وفي صباح متمّ الشهر لليلتين بقيتا، وكان صباح خميس، تناهت إلى سمعي، وأنا منكبّ على الكتابة، صيحة أمّ البنين الأولى، متبوعة بصيحات تضرّع واستغاثة. قلت إنها صيحة تنبت لي جذرا من جهة الخلف، فهرعت نحوها فرحاً منفعلاً، آمراً شعبان أن يحضر القابلة، وألفيتها على الفراش في عزّ المخاض، تتألّم وتعرق وتعضّ على الأغطية والمخدّة. جلست حذاءها ألامسها حتى تشعر بحضوري، وأمسح وجهها بخرق مبلّلة بماء الزهر. همست: اللّهم مفرّج الغمم والكروب، سهّل الوضع عليها، وجنّبها عثرات المخاض ورجّاته. اللّهم اجعل الجنين يتعدّى ليل الرّحم إلى نور الحياة آمناً مطمئناً. اللّهم يسّر ولا تعسّر، وسرّح ولا تكسّر، وجُدْ بالنعمة والعافية ولا تقصر، يا رحمن يا رحيم.

ما هي إلاّ لحظات حتى أتت القابلة ومساعدتها، فسلّمت وأومأت لي بالخروج. عدت إلى مكتبي مشتّت الذهن، قارئاً اللطيف تلو اللطيف دفعاً للأحاسيس والهواجس القاتمة.

نوائب الدهر، آه منها وألف آه!

لقد نلت منها يا ربّ حصّتي وزيادة. ألم تفرط في لذعي يوم جرف

الطاعون الأعظم والدي ومشايخي ! ألم تبالغ في ضربي يوم استأثر البحر بزوجي وولدي !

قضيت ما شاء الله من الوقت، مقلب الحواس، مضطرب القلب. أقيس الانتظار بدفق دمي، وأعبر الوقت مثقف الأعضاء بأصفاد التوهمات والخيالات.

فجأة، لاحت بادرة خلاصي الأولى في سماعي لصرخة الوليد متبوعة ببكائه. وتأكدت من النجاة لما أذنت لي القابلة بالحضور للنظر إلى ابنتي والتحقق من أن كل شيء على ما يرام. تقبلت تبريكاتها شاكراً، مظهراً علامات سعادتي العظمى، وانحنيت على أمّ البنين أقبلها وأحمد لها الله على سلامتها وسلامة ابنتنا البتول.

كانت النفساء شاحبة اللون، مشعثة الشعر، يمتزج العرق بالدموع على محياها الباسم الريان، كأنما هي خاضت معركة حامية الوطيس، وخرجت منها بعد لأي وأوجاع منتصرة مظفرة... أوصيت بها القابلة خيراً، وخرجت ألبي نداء شعبان الملح من خلف الباب. عانقني الرجل مهنئا وعيناه تدمعان من شدة التأثر، ثم سلمني كتابا مختوما قال لي إن رسولاً أتى به من قصر السلطان. فتحته فإذا هو نسخة من مرسوم تعييني في تدريس الحديث بالمدرسة الصرغتمشية. والنسخة- واعجبا! - تحمل تاريخاً مر عليه أكثر من أسبوعين، لكن لا علينا... عانقت شعبان وأذنت له برؤية أمّ البنين وابنتها، ثم جلست في مكتبي أناجي نفسي مبتهجاً: فرح على فرح كنور على نور! ابنة البشرى واليمن هذه المولودة المستعجلة الظهور: ﴿**وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾. ربّ إني بفضلك وإحسانك أسعد العباد، وإني شكور.

قمت متجرّداً للوضوء والصلاة بعد أن جمعت في رفّ واحد أمّهات كتب الحديث، وقدمت *موطأ* إمام دار الهجرة مالك ابن أنس، فلعلّه يكون مقرّر درسي ومادته.

حين أنهيت صلواتي قصدت غرفة أمّ البنين، لكنّي عدت أدراجي لما أبصرتها عن بعد غاصّة بالنسوة من كلّ الأعمار، يتناولن الحلويات وأكواب الحليب، ويتناوبن على إطلاق الزغاريد. ناديت على شعبان، ووضعت في تصرّفه مالاً حتّى ينفقه على اللوازم والحاجيات بما فيها كبش السبوع، ثم اعتصمت بمصنف مالك أعدّ حوله درس اليوم بين صلاة العصر وصلاة المغرب في مدرسة ولايتي الجديدة.

اخترت هذا الموضوع، الذي نلت فيه إجازات كثيرة من مشايخي المغاربة، ليس تعصّباً لمالك، ولا قصد التنويه بأهل المغرب في تقليده واتّباعه، بل لأنّ طلبة مصر شديدو الحاجة إلى السهل الميسور في علم الحديث، وإلى إمام فذّ تجاوز الرخص والشدائد، ضارباً بها معاً عرض الحائط. وقال فيه أحمد ابن حنبل : «إذا ذكر الحديث فمالك أمير المؤمنين»، وقال الشافعي قبله: «إذا جاءك الحديث عن مالك، فشدّ به يديك»... رتّبت في ذهني عناصر الدرس متوخّياً في بنائها طرائق التعليم الواضحة، وهي: أوّلاً التعريف بصاحب *الموطأ* من حيث ترجمته وبالأخصّ اجتماع شروط الرواية فيه، من سلامة البدن والعقل ورسوخ الإيمان والتديّن والحظوة الحسنة عند أهل العلم والتقوى؛ ثانيا خبر الكتاب عند رواته وأيّ الروايات أحسن وأفيد بحسب أسانيدي فيها؛ ثالثاً وأخيراً متن الكتاب ومضامينه.

زغاريد النساء علت صيحاتها، فما كان مني إلاَّ أن تغذَّيت مسرعا بلقيمات، ثم قصدت المدرسة الصرغتمشية لمقابلة ناظرها ومحاضرة طلابها، وذلك بعد أن أخبرت شعبان أني عائد بعد صلاة المغرب بحول اللّه.

حين رجوعي إلى البيت، هُرعت متشوقاً إلى غرفة النفساء، فوجدت في صحبتها بقيَة من نساء. سلمت عليهن، فرددْن السلام وذهبن إلى حال سبيلهن ما عدا اثنتين التحقتا بالمطبخ.

كانت أم البنين في غاية الانشراح والسرور: تبتسم فتبدي رغبتها في الكلام، وتخمَر وجهها بكمَها كلَما غلبها الحياء والتأثر. تفقَدت حال المولودة، فوجدتها ترضع ثدي أمها وتترنَح بين اليقظة والنوم. أطلْت النظر فيها، كأني لم أر رضيعاً من قبل، وقلت:

- سبحان اللّه! هذه بنت مباركة دخلت علينا بالخير. سأسميها صباح العقيقة البتول إن شئت. اسأليني أين غبت منذ ظهيرة هذا اليوم، بل وفري عليك عناء الكلام واسمعيني. السلطان برقوق عيَنني مدرَساً في مدرسة كبرى بجوار جامع أحمد بن طولون الذي تعرفينه. جاءني قرار تعييني في صباح هذا اليوم السعيد الذي رُزقنا فيه هذه الطفلة الميمونة. درسي الأوَل ألقيته بعد صلاة العصر. تسأليني عن الدرس كيف مرَ: معتبراً، ميسوراً كان ومحط تنويه وإعجاب.

بشيء من الجهد قالت:

- أشكر اللّه على نعمه، وأدعوه أن يحفظك للبتول وأمّها، وأن يوفقك ويعليَ شأنك.

كلمات ما أصفاها ! تنفذ إلى القلب لتسري فيه حنانا وجمالا.

حنوت على زوجتي الغافية، فقبّلتها هي ورضيعها، ثم قصدت مكتبي لأبيت فيه وأخلد إلى الراحة.

صباح يوم العقيقة، حرصت على أن يكون الحفل في غاية البساطة والخفّة، أي من دون رجال مدعوين ولا جوقة ولا أسمطة. لست مستعداً لسماع القيل والقال عن إنجابي على كبري، ولا عن أيّ شيء يمسّ حياتي الخاصة. أمّا النساء فسوقهن ليس من شأني، مع أنّي أوصيت زوجتي بالاكتفاء بما قلّ منهنّ. فكرت في سعد، فبعثت شعبان في طلبه حتى يشاركنا الفرح وأنظر في تطوير حاله.

قبيل انتصاف النهار حضر الجزّار، فقمت أنا بذبح الأضحية، وكبّرت وسميت تحت وابل من الزغاريد والتهاليل النسوية. وتفانى شعبان في مدّ يد المساعدة ونشر الأبخرة والوصل بين الجزّار والطبّاخة. أما سعد الذي بدا لي في صحّة جيّدة، فقد كان ينتقل بين مرافق الدار عارضاً خدماته، ولا يتحرّج في الاختلاط بالنساء.

كلّ شيء مرّ إذن كما تمنّيت. حتى إذا تغدّى الجميع وأُعطيَ الفقراء نصيبهم، اعتصمت بغرفة تطلّ نافذتها الصغيرة على بيت الضيوف. وابتداءً من العصر صار هذا البيت يكتظّ بالزائرات المتقاطرات اللائي لا أعرف من هنّ ولا من أين يأتين. وطبعاً، في أيّ مناسبة كهاته، ما اجتمعت النساء إلاّ برز شيطان الغناء والرقص بينهن. لم أقو على كبح فضولي، فأخذت أسترق السمع والنظر، والمغربيّات والمصريّات يتنافسن في تسخين الجوّ بكل أنواع الرقصات والأغاني، وبشتّى آلات الطرب ولو كانت كؤوساً وصينيات.

كانت النَفساء أمّ البتول جالسة بينهن فرحة مبتسمة، تختال في لبستها الجديدة وتظهر الحناء في يديها ورجليها.

إنّي أعلم أن النساء في مناسبات الأفراح يتناولن مع الشاي والحلويات أفيوناً خفيفاً، يُنشّطهن ويقوّي طاقتهن في الضحك والرقص. ولا يسع الفقيه المالكي أمام هذه العادة إلاّ أن يفوّض آمرها إلى اللّه، ويطلب الرحمة والعفو.

حينما أردت غلق النافذة كيما أقلّل من طغْي الهرج والأصوات عليّ، لحظت سعداً بين النساء يطلق الزغاريد ويتوسّط حلقتهن راقصاً وحده بإتقان منقطع النظير. ضربت يدا بيد وقلت: أما هذه الزلّة فلا يجوز السكوت عنها. ناديت شعبان بأن يحضر الشاب حالاً ففعل.

– رجل أنت أم امرأة يا هذا؟

وجل سعد من صيحتي، وقال بإشارات أنثوية بعد أن استردّ أنفاسه:

– سؤالك يا علاّمة، إيوى آ، ضعه على الذي خلق وسوّى.

– أستغفر اللّه في ما تقول يا رجل !

– هل شاورني ربّي في أمري؟ هو الذي خلقني ولم يسوّني... إيوى آ، لا ذكراً ولا أنثى سمّاني، وإنّما بينهما خلاّني. هل من جحيم أشدّ من هذا وأحمى؟

كان الشابّ يفجّر كلامه باكيا مرتعشا، كأنّما هو ينطق بحال كيانه واتّساع ضعفه وعجزه. ضممته إليّ مواسياً، نهيته عن البكاء في يوم الفرح هذا، ثم طلبت منه أن يعود إلى ما كان فيه إن أحب، فانصرف مبتهجاً وهو يعدني بعودته إلى الزاوية في صبيحة الغد.

قضية أخرى أفوض أمرها إليك يا رب !

العمران عندي إمّا بدوي وإمّا حضري. والسلطان إمّا عادل وإما ظالم، والخلل إمّا عارض وإمّا مزمن. والأمور كلها إما ممكنة وإما مستحيلة... أمّا بين بين، أو تعايش الضدّين في قوام سعد نسبي. فلا عهد لي بذلك ولا استطاعة عليه.

* *

نعمة أخرى من اللّه أتتني والبتول الميمونة في متمّ شهرها الثالث، إنّها نظارة خانقاه بيبرس التي عيّنني فيها السلطان قبل موفى ربيع الآخر، وذلك خلفاً للمرحوم الإمام شرف الدّين الأشقر .

كانت الخانقاه داخل باب النصر لا تبعد كثيراً عن المحمودية، حي سكناي. وما زاد المنصب كمالاً ونفعاً أني صرت فيه أيسر حالاً وأقدر على إثراء خزانتي بالكتب النادرة، وتوفير حاجيات البيت وحتى بعض الكماليات. السعة والرحب والبسط، كل هذا يأتي لي بفضل جراية النظارة وإن لأجل كنت أعلم أنّه لا محالة قصير وقابل للزوال من دون سبق إنذار، بين عشية وضحاها أو في لمح البصر .

وكذلك كان، فلم تمض بضعة أشهر على مزاولتي تلك الخطة حتى أخذت علامات الإنذار بعزلي عنها تحيط بي وتقض مضجعي. كان عليّ أمام افتتان أم البتول بابنتنا أن أكّد في إظهار علامات الانشراح بدل الانقباض، والاستبشار بدل التجهّم. الجرم كلّ الجرم أن أفسد أمارات السعادة على وجه أحبّه، أن ألوّث البيت الزوجي بهواجسي ومخاوفي السوداء. غير أن زوجتي الحادسة المتفطّنة فاجأتني بسؤال ذات يوم،

كانت نفسي فيه مثقلة بالأخبار السيئة عن اشتداد التنازع بين السلطان برقوق وبين نائبيه على حلب وملطية الأميرين يلبغا الناصري ومنطاش. قالت:

- خاطرك مكدّر يا عبد الرحمن... قل لي علاش؟

لم أجد بداً من مفاتحتها بما قلّ ودلّ من واقع الحال، عسى أن أفرّج عن كربتي بالكلام مع أعزّ مخلوق لديّ. قلت:

- السلطان يا ستّ، مهدّد هذه المرّة بكل المخاطر.

- وما دخلنا في سوقه؟ إن ذهب سلطان جاء آخر.

- الأشياء أعقد من هذا... إن زال برقوق زال عني أيضاً منصبي من المدرسة والخانقاه.

- هذا غير مؤكّد. وحتى لو حصل، لا قدر الله. أبيع مضمّتي وذهبي وكلّ الأواني المكفتة والمتاع الزائد. بعون الرازق لن نموت جوعاً يا سيّد الناس.

طاسات وصحون مكفتة بالفضة والذهب، وأقمشة حريرية وفرش فاخر: فعلاً. في الدّار كماليات ذرّتها عليّ ولايتي لخانقاه بيبرس، قد يضمن لأهلي ريع بيعها معيشة بضعة أشهر على الأقلّ، هذا فضلاً عن مدخري من العملة الصالحة الخالصة.

كلمات أمّ البتول البسيطة البليغة طمأنتني من جهة القوت، قلت لها:

- في الفتن، يعيشك، تزهق أرواح ويكثر الفتك والموت، ولا اطمئنان لي فيها على سلامة روحي.

- إذا علا الشر (أجابت) هربنا بأرواحنا إلى فاس، حتى نعيش ثمة بين بقيـة الأحباب. نفسي مشتاقة إلى أبواب فاس وحمَاماتها ومائها وجنانها.

نهربَ من الحفرة إلى البئر، هذا ما هجس في نفسي ولم أنطق به لجليستي المتحيِّزة إليَّ، العاطفة عليَّ، الحائلة بيني وبين اليأس والاكفهرار. قلت:

- لها مدبَر حكيم.. الصبيَة تناديك يا أمَ البتول، إلحقي بها.

هناك مواقف لا مندوحة للمرء فيها عن التفويض والالجاء إلى اللّه. فاعقلها وتوكَل يا هذا، أو كما نصحني الشيخ الركراكي: «فانظر على أيَ فرس تراهن».

* *

كانت المصادمات بين فريقي الإخوة الأعداء اليلبغاوية تقوى يوماً بعد يوم. بل إنَها - حسب ورود الأخبار المتَفقة - صارت تتعدَى المناوشات والمجاولات في نواحي دمشق إلى التناحر الشديد في قَلب مصر نفسها، على مشارف القاهرة، ثم حول القلعة رمز المماليك البرجيَة.

بدءاً من أواخر جمادى الثانية أخذت مصادر الأخبار من جهة السلطان تنضب يوماً عن يوم، حتى إن ديار الحاشية والأعيان باتت مغلقة ولا أثر للحياة فيها. لهذا اضطررت إلى الانكفاء على روايات النَاس، فأغربلها وأصححها عبر موافقات الأحاديث في كلَ من المدرسة الصرغتمشية وخانقاه بيبرس وزاوية الشيخ الركراكي، وهي

الخلفات التي لم تعد حركاتي تتعداها. هكذا تأكد لي بالواضح الملموس نبأ اختفاء برقوق وتمكّن الناصري ومنطاش، القويين بالتركمان والمغول، من القلعة حيث نصبا على تخت السلطنة أمير حاجي ابن الأشرف ولقّباه المنصور. وبعد ذلك، اتفقت مصادري الموثوق بها على تسليم برقوق لنفسه لقاء عهد بالأمان من الأمير الطنبغا الجوباني سجينه الأسبق بالإسكندرية وحليف الثائرين عليه اليوم. وحسب ما استنتجته من الأخبار، فإن ذلك العهد أدّى دوراً حيوياً في إنقاذ السلطان المخلوع من موت محقّق، كان أمراء اليلبغاوية بزعامة منطاش يلحّون في طلبه. وهكذا تمّ نقله إلى حبس الكرك جنوب الشام، في انتظار أن تنجلي الأمور وتهدأ العاصفة.

في منزلي لم يعد في مقدوري إخفاء علامات قلقي وانزعاجي لما تحفل به العاصفة من صدوع ورجّات. في تكويرات التاريخ هناك منعرجات ومضايق يصعب معها أو يستحيل على المرء ارتداء بردة العزلة للتفرّغ للعلم أو التلذّذ بطيّبات الدنيا. وهذا يصحّ عليّ أنا الذي غصت برجل في لجج السياسة وشواغلها، وانتظمت مكرها في سلك أرى الآن أنّه إن تصدّع تصدّعت، وإن هوى هويتُ، اللّهم إلاّ إذا غيرتُ مشايعة بأخرى وتكيّفت مع الضرورة الوقتية وظلال السيوف المتغلّبة. ولو سئلت عن سرّ وقوفي أمام الإعصار لأعدته إلى شخص عقيلتي أم البتول عليها السلام. والبتول هذه المزدادة المباركة، صارت ملاذي وترياقي ضدّ ندوب الحوادث وصروف الدهر. في حماها توفّرت لي أسباب اطمئنان النفس وتخلّص الجسم من أوجاعه، فأضحى أمتع وقتي هو ذلك الذي أقضيه متلقّيا إسعافاتها وعلاجها، أو تعليقاتها البريئة على مجريات الأمور كما أرويها.

لولا خوفي من وقع المفاجآت الفادحة علي لتركت الحبل على الغارب. واعتصمت بمنفاي الجميل في بيتي. ممسكا عن تلقف الأخبار، متفرغا للقلم والكتاب بين زوجة طيبة كريمة وطفلة باسمة لعوب.

خلال النصف الثاني من واحد وتسعين لهذه المائة الثامنة لم يعد بالإمكان أن أتعامى عن أنباء الفصل الثاني من المأساة الدائرة رحاها حول القلعة والقصر الأبلق. وعقدة هذه المأساة احتبكت هذه المرة حول خلفاء الأمس أنفسهم، لما دب الشقاق بينهم في شأن قتل برقوق أو إبقائه على قيد الحياة. وكان أن اقتدر المتعصب للموقف الأول منطاش على هزم مخالفيه في الرأي وإبعاد خصميه الألدين الناصري والجوباني إلى سجن الإسكندرية. فبدا متمكناً من زمام الأمر، متفرداً بإدارة دفة الحكم.

لم أكن أعرف عن الأمير المنتصر، نائب ملطية سابقاً، سوى نتف تصب كلها في وصفه بالإنسان السريع الثأر، الذريع الفتك، الحامل لحججه على حد سيفه، المتفنن في أساليب التآمر والدس. وقد قدر لي أن أعاين حقيقة هذه المثالب حين انتزعتني عصابته من بيتي وأهلي، وقادوني إليه في القصر حيث وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الخليفة الدمية المتوكل والسلطن بلقب المنصور ومع قضاة المذاهب وبعض المفتين وأكابر العسكر. وبينما نحن وقوف في ركن من الإيوان، نتبادل التحايا الفاترة، دخل علينا منطاش مدججاً بسلاحه، يتبعه دواداره وجانداره، فسلم على الجمع مقتضباً، وأمر أحد المفتين بتلاوة نص الفتوى، التي يسأل محررها: هل يجوز شرعاً قتال الظاهر برقوق، لكونه يستعين بالنصارى في شق الطاعة على الخليفة والسلطان ومحاربة جيش المسلمين.

استجمعت قواي. وبادرت إلى مساءلة منطاش، من دون توطئة ولا تسليم:

- الإفتاء، أيها الأمير، مهمة شرعية خطيرة الشأن، ونحتاج فيها نحن معشر القضاة إلى حجج ملموسة وشهود عيان.

ردَ الأمير علي بصوت مكابر جافَ:

- الحجج والشهود تقول يا فقيه! اسأل أكابر عسكرنا هؤلاء، وإن لم تقتنع فاترك كتبك وحيطان بيتك، واقبل على ساحة الحرب حتى ترى بنفسك استغلاظ برقوق بالكفار على المسلمين. وإن لم تقتنع فإن ديار مصر التي لست منها في غنى عنك وعن فتواك.

سكتَ، لا لأن كلام الرجل أخرسني، بل لأني قدّرت مخاطر الردّ عليه، كإصدار الأمر بحبسي أو بنفيي، ولم لا بقتلي. اغتنم قاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء الشافعي، لحظة اختلاء منطاش ببعض معاونيه، فاقترب مني وهمس في أذني: «يسّر يا حاجّ ولا تعسّر. علينا بالتقية حتى لا نهلك دونها». ثم تناول القلم من الدوادار ووقع على الأوراق خطَه، ففعل مثله باقي القضاة وقضاة العسكر، فلم أملك، وقد أتت نوبتي، إلاّ أن أضيف خطّي إلى كلّ الخطوط، وملء حنجرتي غصة.

انفضّ الجمع، فذهب كلٌ إلى حال سبيله، ومنطاش قابض على سيفه يرمق انصراف القضاة بكثير من العجرفة والازدراء.

لا أخفي أنّي قطعت الطريق بين قصر القلعة ومقرّ سكناي خائفاً على نفسي من الكمائن أو ضربات القناصة، فطفقت أرغّب بغلتي في إغذاذ السير وطيّ المسافات من دون وهن.

- دثريني، يا أم البتول دثريني. البرد والحمى يتناوبان علي بالشر. أعدي ما شئت من الأعشاب. وداويني بها حتى أحيا وأرى انحلال عقدتي في ما يأتي. السحب من حولي ملبدة دكناء. وسواء تكاثفت أم انقشعت، فالأمران عندي سيان. لا بدّ في آخر المخاض أن أؤدي ثمن التوقيع أو ثمن التردد في التوقيع، إمّا سجنا وإمّا عزلاً عن الوظائف كلّها. وجميع الاحتمالات المفجعة تبقى واردة... كيف حال الصبيّة وكيف حالك معي؟ والله لقد أصبحتما مصدر تعلّقي بأهداب الحياة وذودي عن حماها، كما لو أنّي في طور عمري الأول... لولاك يا أم البتول، لولا لقائي بك لتركت الحبل على الغارب وقلت للأقدار العاتية: هو ذا جسمي المنطرح المنهوك، هبّي عليه و دمّريه ومزّقيه حتى لا يبقى منه إلاّ خيط بخار: خيط الروح الراجعة إلى ربّها راضية مرضية.

كانت زوجتي تتحرّك بين غرفتي والمطبخ، تعدّ دوائي وتتلقّى بعض كلامي وتتلفس آخر. وحين استقرّت إلى جنبي بعلبها وقواريرها، أخذت تجرّعني سوائل الأعشاب وترشّ وجهي وأطرافي بالمزهريّة، ثم عصبت جبهتي وعينيّ بمنديل مبلّل بماء زكيّ. قالت:

- الآن يا عبد الرحمن تنام. ويزول عنك الهديان.

- الهذيان، يا حبيبتي، آتٍ على حدود السيوف المسلولة وسيول الدماء المهدورة...

- نم قلت لك، و اتل سورة النّاس التي نصحتني بحفظها.

السمع والطاعة. يا قرة العين. سأردد سورة الناس ما وسعني الترديد. سأنام وأنا أحوف ما أكون من أن يقبض علي في أعماق نومي ممتنيك برقوق أو مماليك منطاش: هؤلاء يجرونني إلى الصحراء ملعلعين في وجهي: «ستبقى قريبا من زمهرير الشمس حتى تيبس يا مهلهل التوقيع، يا مريض الطاعة.» وأولئك يقتادونني إلى مولاهم الذي يلقاني بثأره وسخطه: «سأسلط عليك القمل في غياهب السجون، يا موقع الزور، يا مريض الطاعة».

من يوم التوقيع على فتوى الزور في خمس وعشرين من ذي القعدة حتى موفى الشهر، بقيت ملازما بيتي وصلاتي، مغالبا بتلاوة القرآن علامات تصدعي النفسي. ومنذ بداية ذي الحجة عدت إلى مطاوعة شيطان الاستخبار والتقصي، فصارت الأيام والأسابيع تأتيني بجديد الأنباء على ألسنة الشيخ الركراكي، وقاضي القضاة الشافعي الآنف الذكر، وبعض طلبتي من أولاد أهل السياسة. كانت الأنباء تظهر كل مرة جريان الريح لصالح برقوق واشتداد الطوق على منطاش وصحبه. وسببه، والله أعلم، أن أهل الكرك ونائبها تعصبوا للبرقوق وعطفوا عليه لما أصابوه من عطائه، وانضاف إليهم نفر من مماليكه وبعض العرب، فاستطاع السلطان المخلوع أن ينظم جيشاً زحف به على غزة فاحتلها، وعلى دمشق فحاصرها. وتوالت الأيام بأخبار لم أتمكن من ضبطها وتحقيقها حتى سمعت، كما سمع الناس، بوقعة شقحب ظاهر دمشق، حيث كانت هزيمة جيش أمير حاجي ومسلطنه منطاش على يد جيش برقوق. وتأكد أن برقوق آخذ في التمكن من أمره وإحكام سيطرته على الشام تمهيدا لعودته إلى مصر واسترجاع تخته والقبض على زمام الدولة من جديد.

أما ما علمه أهل عاصمة السلطان برقوق، وهو في طريقه إليها، فهو خروج مماليكه من سجنهم وانقضاضهم على القلعة، التي طردوا منها أتباع منطاش، وسيطروا على القصر الأبلق برئاسة المملوك بطا في انتظار عودة مولاهم.

عشرات الصفحات البيضاء تنتظر أن يخلو وجهي لها، حتى أسوّدها بدقيق الأخبار المستجدّة في تاريخ هذه الدولة المملوكيّة التي أنا شاهدها. غير أنّي لم أكن أجد قوّة لتقييدها خارج ذاكرتي وذهني، فروحي معلّقة بشعرة قد يقطعها بسيفه السلطان العائد، إن هو استفحش خطّي إلى جانب الخطوط الموقّعة على عزله في فتوى الزور الآنفة الذكر... هل سيُغلّب العقل، فينظر في الظروف المخفّفة عن التوقيعات المنتزعة تحت التهديد؟ المعوّل في هذا على الله وعلى ميل السلطان إلى الرأفة والعفو.

ريثما تنجلي الأمور ويحين يوم الحسم، كنت أقضي ساعات أيامي بين بيتي والمسجد وبين الخانقاه والمدرسة. ووجدتني كذلك أنشغل بأمرين، هما التجوّل بين رسوم المغاربة من جهة وإعداد قصيدة استعطاف إلى برقوق من جهة ثانية.

صرت - كلّما وجدت فراغا من وقتي - أقصد حارة زويلة القريبة من حيّي، أو أجول في حارة كتامة الدانية من الجامع الأزهر، أو في حارة المصادمة على شاطئ بركة الفيل... أحياء المغاربة في هذه الأماكن والمآثر قد تلاشت اليوم، تاركة للمؤرّخ ذكرى قيام الدولة العبيدية الفاطمية على سند بربر المغرب، كما يقوم الجسم على عموده الفقري. كان سبب اختلافي إليها، ولا شكّ، رغبتي في تنسّم ريح

بلادي وحنيني المتأجج إلى وطني. فما أدراني: هل شد الرحال إلى تونس أو فاس مكتوب عليَ في أجل وشيك!

أمّا قصيدة الاعتذار إلى برقوق، فقد أمسيت أشتغل فيها ليلاً، وأسهر من أجل صقل معانيها وترتيب قوافيها، فكانت أثقل على صدري من الرصاص، لما فيها من التكلّف والتضرّع. الشعر من دون قريحة وجدانية أو جذوة باطنيَة عبث ليس إلاّ. هذا ما تعلّمته في كل ما انتحلته من الأبيات طوال حياتي. وفي هذه القصيدة التي دخلت في سوقها، قويَ شعوري بالاصطناع والاهتزاز حتى بتَ أرى أنّي إنما أرقّع وأنمّق أبياتاً، وأطلق عنانها في انتظار تنظيمها وجمع شتاتها. منها مثلاً:

سيّدي والظنون فيك جميلة	وأياديك بالأماني كفيلهْ
لا تُضعْني فلست منك مُضيعاً	ذمّة الحب، والأيادي الجميلهْ
وأجِرْني فالخَطْبُ عضّ بنابيه	وأجرى إلى حمايَ خُيولَهْ
وغريبٌ آنستموه على الوحشة	والحزن بالرضى والسهولهْ

قبيل أذان الفجر وثبت من فراشي، فسوّدت الورق بما عنّ لي من أبيات كان لا مناص من إيرادها، وهي:

والعدا نمّقوا أحاديثَ إفك	كلّها في طرائق معلوله
روّجوا في شأني غرائبَ زور	نصبوها لأمرهم أحبوله
فاقبلوا العذر إنّنا اليوم نرجو	بحياة السلطان منكم قبوله
وأعينوا على الزمان غريباً	يشتكي جدب عيشه ومحوله
جاركم ضيفكم نزيل حماكم	لا يضيع الكريمُ يوماً نزيله

كانت هذه الأبيات وأخرى من ثمرات ساعات طوال تاخمت بها الهزيع الأخير من الليل، وعرقت ونشفت على إثرها من شدّة الجهد واللأي.

في منتصف سنة اثنتين وتسعين كان دخول برقوق إلى عاصمة ملكه منتصراً مظفَراً، متبوعاً بكلّ شارات السيادة والأبّهة. فعن رواة كثيرين، اجتمعت ببعضهم في مجلس حمام الصوفية، أنّ السلطان ما إن هزم منطاش في دمشق حتى أشهد القضاة على خلع أمير حاجي، وأخذ اعتراف الخليفة العبّاسي بتنصيبه مجدّداً على التخت. وحين أحكم الجلوس على التَخت سمّى مملوكه بطا الآنف الذكر دوادارا، واستقدم سجناء الإسكندرية فأنّبهم ثم أرجعهم إلى مناصبهم، ومنهم الناصري والجوباني اللذان ولاّهما تباعاً على حلب ودمشق. ولا أخفي أنّي استبشرت خيراً بهذه الإجراءات، وقرأت فيها طوالع اليمن والأمان. ولم يكدر شعوري هذا إلاّ سماعي بصدور مرسوم في ترقية سودون إلى رتبة نائب الحضرة، فأدركت أنّي لا محالة هالك من جهة ولايتي نظارة خانقاه بيبرس، ذلك لأنّ الرجل ظلّ يحقد عليّ بسبب معاكستي لفساد طلباته منّي في القضاء أيّام اضطلاعي بهذه الخطة. ووافق إسقاط الخانقاه عنّي يوم استدعائي إلى حضرة السلطان، الذي لم يقصر في العتب علي بفعل ما ذكرته عن توقيعي على الفتوى بعزله. وأطلق بعد ذلك سراحي، معرضاً عن قبول أعذاري.

حين عدت إلى بيتي، أخذت أعانق زوجتي وأقبل ابنتي بشغف كبير كأنّي نجوت من موت محقّق، وأفْلتُ من يد عزرائيل. ومع حلول الليـ جلست أتفقّد حال قصيدتي الاستعطافية، أملأ بياضات، وأقدم أ

أؤخر وأزيد في الأبيات، ومما أضفته على ضوء ما استجد في الموضوع:

كيف بالخانقاه ينقُلُ عنّي لا لذنبٍ أو جنحة مَنْقُولَهْ

بل تقلّدتها شَغُوراً بمرسوم شريف وخُلْعَة مسدولَهْ

ولقد كنت آملاً لسواها وسواها بوعده أن يُنيلَهْ

وتوقّفتُ للزمان عليها وبقعود ما خلتها محلولَهْ

حظ لي، وأنا أضع اللمسات الأخيرة للقصيدة، أن أبعثها إلى صديقي المقدم الطنبغا الجوباني، نائب دمشق، طالباً منه أن يتشفع لي بها أمام السلطان. فطبخت أبياتاً أخرى بهذا المعنى، وأرسلتها إليه عبر أياد أمينة. وبعد طول الانتظار والتسويف، طلعت شبكة القصيدة بما أملته من عودة المياه إلى مجاريها، فحظيت تدريجيا بعفو السلطان وإحسانه.

انتزعت مني الخانقاه، لكن مدخولي من جراية التدريس وزرع الفيوم كان يفي بالعرض من حاجيات بيتي، بل ويتيح لي أن أخرج مع زوجتي وابنتنا، البالغة سنتها الأولى، للتنزه في الحدائق العامة والتفرج على نطاح الكباش ومناقرة الديوك وحتى مشاهدة خيال الظل، فحمدا لله على ما تبقى من نعمه.

* *

التورط في ما يأتي للمرء على حين غرة، أو في ما لا يرد في حسبانه، التورط في مواقف يقيس المرء معها اندثار تخيّره وتحكمه في خطاه: كثيرة هي الفخاخ المبثوتة أمام مجذوبي السلطة من العلماء، هؤلاء

الذين لا دربة لهم في مطابخ السياسة. ولا حيل لهم في الاستيحاش من السلاطين إلا في الهروب من بعضهم إلى بعض.

حيال هذا الواقع لم يسعني. أنا المهتدي بعقلي رغم كل شيء إلا أن أكثر من الاعتصام ببيتي وكتبي وتأليفي. إن خرجت فلحاجة ماسة أو للتردد على مدرستي وبيوتات الله.

«العياء!

إنه يدبّ في أعضاء الجسم وأوصاله من دون ترخيص ولا استئذان. واثقا من سريانه يتقدّم. محفوفا باندفاع الزمان الجارف وتدفّق الأيام المتلاطمة.

العياء صنفان: صنف ينشأ عن رؤية تشابه الأزباد وكرورها؛ وصنف تظهر أعراضه عند الغوّاصين في أعماق الأحداث وتغيّرها. بحثاً عن درر مكنونة وعبرٍ مفيدة.

تراني قد بلغت من العياءين ذروتهما؟».

هذا ما سجّلته على إحدى طرر الصفحات المكدّسة، التي سوّدتها طوال سنة ونصف في تاريخ مصر المملوكي. وذات مساء من بداية سبع وتسعين وسبعمائة، كنت على وشك البوح لزوجتي متضرّعاً: «إنّي، يا قرّة العين، عييت». لكنني تمالكت نفسي وتظاهرت بالخفة والابتهاج، حتى أبدو قدر المستطاع في مستوى شباب زوجتي وشغفها بالحياة. «ليس لي الحقّ، كما كتبت على وريقة معزولة، أن أكون نشازا في وله أم البتول بالحياة. إنها تعلم باشتعال رأسي شيباً، لكن لا يجوز أن أطلعها على تلوّث عروقي ومفاصلي بالإنهاك والتعب. فاللّهم إن كنتَ قدّرت موتي في طوري هذا، فاجعله موت الخطف والفجاءة».

لعلَ ما زاد في شعوري بالعياء، خلال تلك السنة نفسها هو تفشي الوفيات بين الزوامل ورجالات الدولة؛ الذين ماتوا إمّا قتلاً كالجوباني والناصري ومنطاش ببلاد الشام. وإمّا مرضاً كالشيخ الركراكي وقاضي القضاة ابن أبي البقاء الشافعي، وإمّا بغتة كبعض أمراء الألوف وكيحيى السوداني خديم حمام الصوفية، وغيرهم كثير.

«اللّه يعظّم أجركم / كلّ نفس ذائقة الموت / إنّا للّه وإنّا إليه راجعون». هذا ما صرت أردّده معزّياً أمام أسر الأموات وأصدقائهم.

«آخر مرّة رأيت فيها الشيخ الركراكي، با أمّ البتول، سألته كالمعتاد عن أحوال سعد. فأشار إلى اعتدال مزاجه بين أهل الملامتية ونصحني: فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر».

أمّا الطنبغا الجوباني، فقد أفردت له مقاطع رويت فيها ظروف مقتله. وحشوتُها بكلمات تأبينية رقيقة، اعترافاً منّي بجميل صنعه في تقريبي من السطان ووقوفه معي أيّام الشدّة والعسر؛ وختمتها بهذه الجملة: «ما رأيت منه إلاّ الخير، فأره اللّهم الخير كلّه». ولم أقنع بهذا، بل سعيت إلى البحث عن أحد أبناء المرحوم، كنت أعلم أنّه يقطن قريباً من بركة الفيل، وذلك قصد تعزيته واستفساره عن عنوان مدفن أبيه في دمشق. وبعد تحرّيات مضنية، تمكّنت من مقابلته في حانة الخيام على شطّ النيل، قريباً من اللوق حي الرعاع والحرافيش. لم ألج الحانة إلاّ بعد أن تنكّرت في الزيّ المصري واطمأننت إلى غلبة عتمة المكان على شموعه. وحين جالست ابن الجوباني حول طاولة خفيضة، قدّمت نفسي وذكرت الغرض من زيارتي، فردّ عليّ الرجل بكلمات شكر وتقدير لم تُخف شروده وسكره، وأردف قائلاً:

- تسألني، يا أفندي، عن مدفن أبي بدمشق، والله لا أعلم أين واروه التراب بالضبط. حتى مراسم دفنه لم أتمكن من حضورها، ولا أدري هل أقيمت له... الهوة بيني وبين أبي وهو حي كانت دائما هائلة، أما اليوم!

نادى الرجل على النادل بإحضار قنينة خمر وفنجان قهوة، قال:

- الحلال بيّن والحرام بيّن فاختر ما شئت لا مؤاخذة. أثقل شيء على خاطري، يا حاج، هو التقريع والعتب. حصّتي منهما نلتها فوق اللزوم مع المرحوم... الإنسان في أمور كثيرة مسيّر. هل اخترت أن أكون ابن الطنبغا الجوباني حتى تحرم عليّ السياسة وأحشر بين أولاد النّاس؟ هل شاورتني الأقدار في صقل اعوجاج حياتي أو في تكالب المحن عليّ؟ وإذن فعليّ بالمرور في هذه الدنيا كيفما اتّفق، كظلّ زائل أو سحابة صيف، وعلى الله في الدار الأخرى بالنسيان والعفو.

شعرت أنّ جليسي إنسان جريح مغبون، فآثرت عبّ القهوة بتؤدة، وتكلّفت الإنصات إليه بشيء من الاهتمام.

- في حلبة السياسة، يا أفندي، أفدح هزيمة يصاب بها المرء هي أن يموت قبل الآخرين.

سألتُ وأنا أخلّص جبهتي من عمامتي ذات الذؤابة:

- ومن ذا الذي لا يموت قبل الآخرين؟

- الآخرون، أعني بهم الأعداء والخصوم في الرأي والسعي. ولا شكّ عندي أن أبي عرف بموته تلك الهزيمة النكراء.

تململت في مكاني تهيّؤاً لمغادرة الحانة، فرجاني الرجل قائلاً:

- ألا تستطيب الجلوس مع ولد النّاس؟ ما قلته لك لغو عابر. أما الأهم من كلّ شيء فسيأتينا من تلك المصطبة أمامنا. أرجوك أن تقيم معي قليلاً حتى تسمعه وتراه.

لا مناص من الإذعان ما دامت ظروف التستّر متوفرة. والرجل لم تخرجه الخمر عن طوره بعد.

خيّم صمت مهيب مفاجئ في الحانة المليء فضاؤها بالزبائن ودخان الغلايين، ثم تصاعد الصمت حتى فضّت ختمه بصوتها العندليبي مغنّية من وراء ستارة، تصحبها نغمات على أوتار العود. الكلمات المغنّاة فارسية. من رباعيات عمر الخيام،. مال الرّجل وأشار إلى أنّه فارسي من جهة المرحومة أمّه. ثم أخذ يترنّح في جلسته ويرشف الخمر ويمتصّ غليونه كلّما بلغ التأثّر منه مبلغه.

فكرت: «حقّاً صوت المرأة اللامرئية له في حومة الشوق مقام، وفي شلال العذوبة السيّالة مقام. التعريف بالمثال للرقّة الناعمة السجيّة متحقق كلّه فعلاً في ذلك الصوت. أمّا قدرته على ترغيب السامع في الحياة وطلب الجمال فقدرة عظيمة لا ريب فيها. الصوت دافئ ريّان، ينشر من حوله الجمال. والقسم يجوز على أنّ صاحبته آية في البهاء وحجة. وتخيّلت، رغماً عن وقاري و مالكيتي، ومن وحي انتعاش الحواس في هذا الفضاء الشبيه بحديقة ليلية سرية، تخيّلت جسم المغنّية في عرائه اللاهث المتوهّج، وقدّرت أن ريحها، كريح الصّبا، ريح أخّاذة، إذا لامست الأبدان الذابلة أحيتها من جديد، وإذا داخلت النفوس طهّرتها من أدرانها وكروبها... وسرت وراء استيهامات

متوالدة لم ينفعني في طردها لعن تلبيسات إبليس وسواه من جن الجذب والغواية.

كان النديم يغمض عينيه أو يحدج الفراغ بنظرات ثاقبة متطلعة وآهات يطلقها سخيا وراء صوت المغنية المقتبس من اللطف والحنان أشكالاً وألوانا. قال لي. وقد انفردت نغمات العود بالآذان دون الصوت المسترد أنفاسه:

– ليس لي في السياسة جواز دخول أو مرور، لأني من أولاد الناس، لكن، يا حاج، تبقى الحياة. تبقى الطيوب والنساء والألحان. الملهى لولاه لضاقت الدنيا بما رحبت. الملهى مأوى التائهين والملذوغين. فيه أتلهّي عن بؤس الوقت واشتداد القنوط...

قطع الرجل اندفاعه، ثم أردف، قائلاً:

– مغنيتنا لهذه الليلة، يا أفندي، لو رأيت جسدها المبارك لاقتنعت معي أنّ السياسة، إذا قيست به، خردلة أو مهزلة... تبا لتيمور الأعرج ولكلّ أعداء الجمال.

شرب الرجل بقيّة كوزه واستأنف هامساً:

– ألا ترى معي، يا أفندي، أنّ رباعيات الحكيم تبلغ مع مطربتنا أعالي فتنتها، فتخرج من حنجرتها لؤلؤاً منثوراً ونورا على نور! معها تعلّمني الرباعيات أبجديّة الحياة والموت، وتحرّضني على اجتناء المتعة من دون تسويف ولا تأجيل. المتعة تأتي من نبض الوجود، وهذا النبض مرتعه اللحظة وحدها.

عادت المغنَية إلى أدائها، فغرقت الحانة مجدَدا في الإنصات والخشوع. وتهادت كمركب تائه بين أمواج نائمة سكرى. وكنت أنا المتشبَت بكأس الخلان، أتحاشى ما استطعت نظرات المعربدين الفضولية، وأُكثر من الانزواء والتبرَم.

- هل صحيح (قال المعربد) أنَ هذه المغنية، ككل مثيلاتها في الحسن والشباب، ستصير ذات يوم غذاء للديدان!

ثم همس في أذني:

- لست نديمي يا شارب القهوة، لكن ثق بأني لا أقتل سوى همومي تغريقاً في كؤوسي. وما خلا هذه الزلّة، فيداي نقيّتان لم تصفعا وجهاً أبداً ولم تتلطّخا بدم آدمي أو بهيمة. يا ربَ كرمك، لا أشرك بك أحداً، لا أحبَ جوهرك الأسنى إلاَ في إحسانك وغفرانك.

وأضاف صائحاً والمغنَية تختم طربها:

كركوهر طاعتت نسفتم هركز *وركود كنه زرخ نرفتم هركز*

وصاحبته أصوات من داخل الحانة:

تومید نیم زبار کساه کرمت *زیراکه یکي رادو نکفتم هرکز*

وحين أزيحت الستارة عن المغنَية وهبَت عاصفة التصفيقات، رأيت العجب العجاب: المغنَية ليست امرأة بل فتى واطئ الصدر، مقصوص الشعر. قال جليسي:

- لا تعجب يا حاج من مغنَية خنثى تحيا بين بين. العبرة في الشدو والشذى لا في وضوح الجنس، يا مولى الفهم... إنَما بربّك قل لي رأيك في حكمة الرباعيات الخالدة.

لم يكن لي مهرب من الردّ ولو باقتضاب، قلت:

- عبقرية الخيام تبرز في تمكّنه من محو التضاد بين الطيش والعقل، وسعده في قول الشعر ينجلي من إحاطته بعلم الحساب والفلك. لذا ترى رباعياته، كما ترجمت لي، صيغاً رياضية تخاطب الروح على وزن «لا حــول ولا قــوّة إلاّ بالله»، وتنزل نارها على القلوب برداً وسلاماً.

- لا فضّ فوك يا سيّد النّاس، لا فضّ فوك!

- أما ما مَجُن من الرباعيات، فأبلعه كفاكهة غامضة وأقرأ اللطيف.

- تقول هذا الكلام البهيّ وأنت في عزّ الصحو! لا عدمناك يا واسع الصدر، يا حي الشعور، لا عدمناك... انظر الآن إلى من يرتقي المصطبة: عازفة ناي، وهي هذه المرّة أنثى لا غبار عليها.

المرأة الجالسة على كرسيّ، والناي بين أصابعها وشفتيها، حقّاً لا ريب فيها. لباسها نسوي وكذلك قدّها وشعرها، ولكنّ كما همست في نفسي، «إنّه عليم بذات الصدور». الأهمّ في المشهد ما يتراءى من انسجام شفّاف بين النّاي والنافخة فيه، حتى أنك تخال هذه تذوب في ذاك وتضحو بين نغماته عين الشجو والأنين. وبعد هنيهة، التحقت بها جوقة من داربكي وكامنجي وعواد، فمهّد العوّاد بتقسيمات موفّقة على آلته، ثم عزف الجميع وردّدوا بالإنشاد هذا الموشّح:

هــــذي جراحــي طريـّـا والدمــا تنـــــضــــح

وقــاتلــــي يا أُخيّـــــا فــي الفــلا يــــرح

قـالوا وناخـذ بشـارك   قـلـت ذا أقـبـح

إلى جـرحـتي يداويـنـي   يـكـن أصـلـح

أطلق الجليس مع الحضور آهات معربدة، وسألني عن رأيي فأتاه جوابي:

- هذا المواليا لعلّه من أحسن الموشّحات المشرقية. شعره مليح وبحره البسيط صحيح، لا خلل في غصونه وقوافيه. أما أداؤه فمتوسّط لأنّه مفتقر إلى آلات مساعدة وأصوات متميّزة.

- طوّل بالك يا أستاذ، وخذ من الفنّ ما لذّ وطاب.

وغنّت الفرقة بعد ذلك:

طرقتُ بابَ الخبا قالت من الطارق   فقلتُ مفتونٌ لا ناهبٌ ولا سارقْ

تبسّمتْ لاح لي من ثغرها بـارق   رجعتُ حيرانَ في بحرِ أدمعي غارقْ

وتناوب أعضاء الفرقة على إنشاد البيتين، كل على شاكلته، حتى إذا انضاف إليهم غلام جميل الصورة، تركوا له التفرّد بالغناء وصاحبوه بالآلات:

دهر لي نعشق جفونك وسنين   وأنت لا شفـقة ولا قلـب يليـنْ

حتى ترى قلبي من أجلك كيف   رَجَعْ صنعة السكة بين الحدادينْ

الدموع ترشرش والنار تلتهـبْ   والمطارق من شمال ومن يميـنْ

خلق اللّه النصـارى للغـزوْ   وأنت تغزو قلوب العاشقيـنْ

بادرت هذه المرة إلى الكلام:

- الشاب ذا أكيد أنه مغربي أندلسي. ألاحظت يا ابن الجوباني كيف ارتفع التكلف وامحى في كلامه المغني. الموشحات والأزجال من قطر ذاك المغني وإلاّ فلا. أرقها وأروعها سمعته في فاس وحواضر الأندلس لا في غيرها.

همهمت والجوقة تنسحب تحت وابل من التصفيقات:

هل درى ظبيُ الحمى أن قد حمى قلبَ صبٍّ حلّهُ عن مكنسِ

فهْو في نارٍ وخَفْقٍ مثلما لعبت ريحُ الصّبا بالقبسِ

حين خلت المصطبة، سمع صوت يقول:

«ريثما تقبل عليكم راقصتكم المحبوبة ناهد، إليكم هذه اللطيفة: قال أحد الإمامين ابن الجوزي أو ابن قيم الجوزية في *أخبار النساء* [وقع بين امرأة وزوجها شرّ فجعل يكثر عليها بالجماع، فقالت له: أبعدك الله! كلما وقع بيننا شرّ جئتني بشفيع لا أطيق ردّه].

تضاحك الحاضرون بسخاء واستهتار، وأحسستُ أن درجة التهتك في الحانة أخذت تعلو. وبينما أنا أتهيأ للخروج، انحنى عليّ غلام مادّاً إليّ زجاجة خمر، قال إنها هدية من بعض الظرفاء في الحانة إلى قاضي المالكية الفقيه ابن خلدون. فاستقمت واقفاً وأمرت الغلام بردّ الزجاجة إلى أصحابها وإعلامهم بأني لا أشرب إلاّ السائل الحلال. ثم ودّعت الجليس المذهول مسرعاً وهرولت نحو الباب، تاركاً خلفي الراقصة تتلوّى وتنشُد التحليق والانخطاف بأعضائها مجتمعة.

- انحل محلّك يا حاج. في النهار فتوى وتدريس. وفي الليل متعة وتدليس!

لم أردَ على لمز ربّ الحانة، بل جددت في السير طالبا السلامة. وحين أمنتُ العاقبة واقتربت من بيتي، ناجيت نفسي: «قصدت الحانة معزّياً فخرجت عن الغرض. غدا قد تشيع بين الخصوم حبّة خبري فيها فتصير قبّة... الليلة يا أم البنين ليلتنا ما تبقّى منها. فكوني لي لباساً أكن لك لباساً».

عن الخطيب عن جابر أنّ النبيّ ﷺ «نهى عن المواقعة قبل الملاعبة». والظاهر أنّ أم البنين رفضت هذه وامتنعت عن تلك، وعبست وأجفلت بسبب تغيّبي عن البيت حتى الهزيع الأخير من الليل. وفي منتصف النهار، وقت الغداء، أنفقتُ بلاغة جمة في إقناع زوجتي النافرة السكيتة بصدق روايتي لما حدث لي بالأمس، وبأن العبرة في النيّة لا في زيغ القدمين. لكنّي لم أفلح في نيل ابتسامتها الأولى وطرد الوسواس الخنّاس عنها إلا بعد أن أقسمت لها بالأيمان المغلظة أني ما تهتكت وما زنيْت. وفي سريرتي اغتبطت لغيرتها عليَّ، فهنّأت نفسي وكدت أن أشكر الشيطان على وسوسته.

من آثار مغامرتي في الحانة ليلة الأمس أن تيقّظ فيَّ هوس الشعر، فأمسيت أقضي الساعات الطوال مراجعا المعلّقات وأمّهات الدواوين، تتقدّمها ***الأغاني*** لأبي الفرج الأصفهاني وأشعار المتنبّي والمعرّي، لكنّي كنت كلّما جبت ربوع النصوص العالية، احتدّ وعيي بعجزي عن قرض الشعر الحقّ وتأخّري عن ملكته وصنعته، فأمسيت أواسي النفس مهمهماً: «كلٌّ ميسّر لما خُلق له، إنّما إياي أن أكون فرحاً بما لديَّ».

الفصل الثالث

الرحلة إلى تيمور الأعرج، جائحة القرن

"وكان شيخي رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاوضته في (شأن الثائر تيمور)، أو سايلته عنه يقول: أمره قريب. ولا بدّ لك إن عشت أن تراه"

ابن خلدون - التعريف

"وكان من جملة الآكلين: قاضي القضاة ولي الدين كلّ ذلك وتيمور يرمقهم وعينه الخزر تسرقهم. وكان ابن خلدون أيضاً يصوّب نحو تيمور الحَدق. فإذا نظر إليه أطرق، وإذا ولّى عنه رمق ثم نادى وقال، بصوت عال: " يا مولاي الأمير الحمد لله العليّ الكبير! لقد شرّفتُ بحضوري ملوك الأنام، وأحييت بتواريخي ما ماتت لهم من آيام ورأيت من ملوك الغرب فلاناً وفلاناً وحضرت لدى كذا وكذا سلطاناً وشهدت مشارق الأرض ومغربها وخالطتُ في كلّ بقعة أميرها ونائبها ولكنّ لله المنّة إذ امتدّ بي زماني، ومنّ الله عليّ بأن أحياني، حتى رأيت منْ هو الملك على الحقيقة، والمَلِكَ بشريعة السلطنة على الطريقة فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف. فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف" فاهتزّ تيمور عجباً. وكاد يرقص طرباً (٢)

ابن عربشاه - عجائب المقدور في أخبار تيمور

في أوقات الاستراحة والفراغ صار العلاّمة يعتني بطفلته ويلاعبها، فيحقّق لها ما تفضّله: الدغدغة ولعبة الحصان. وذات مرة، وهو يهيئ ركوبها فوق ظهره، أدرك بوعي حادّ أنّ أفدح مصيبة يمكن أن تنزل به هو أنّ تتعرّض ابنته وزوجته لشرّ ما. وتساءل بعد ذلك، وهو منكبّ على التحصيل والتأليف. هل هناك تهديد بكل الشرور أعظم من تهديد تيمور ابن جغطاي ابن جنكيزخان، الآتية أخباره المهولة من تركستان وبخارى فيما وراء النهر، عن غزواته الماحقة التي قادته منذ سبع سنوات إلى الإطلال على بغداد! فلو لم يعد الغازي إلى موطنه لسَحْق ثائر عليه من قومه، لعرفت هذه المدينة مصيراً مثيلاً لما عرفته على أيدي جحافل هولاكو منذ قرن وربع قرن. الوعي لا يستنفر عروق يقظته إلاّ أمام المخاطر المحدقة. وأكبر هذه المخاطر وأعتاها في تقدير مؤرّخنا يكمن اليوم في عصبيّة التتر الداهمة المستفحلة. لذا صار وعيه بضرورة التعرّف على شجرة هؤلاء وشوكتهم يقوى يوماً بعد يوم، ويحسب انقضاضهم على أراضي المماليك قدراً لا مردّ له.

التاريخ كالمتاهة، سبله متقاطعة ملتوية، لا مخرج من بعضها إلاّ إلى بعض، ولا راحة فيها لمن ابتلي بالنظر والتحقيق إلاّ بقضاء النحب. هذا ما هجس في نفس العلاّمة وهو يعدّ العدّة لتلقّي أخبار المغول عامّة وملكهم تيمور خاصة، وذلك قصد ضبطها وتنقيحها ثم سردها بما تقتضيه قواعد المعقول في التاريخ الحيّ.

إعداد العدّة يعني الاطّلاع على الكتب والمصنّفات في موضوع أحياء التتر وشعوبهم. لكن اللجوء إلى الشهادات الشفوية، مع التعويل على أصدقها، كان لا مناص منه كلّما دنت الواقعات من

الحاضر أو اختلطت به. لهذا صار عبد الرحمن نصاتا لرواته الثقات من حاشية السلطان ومالئي مراتب القلم والسيف. وقد أكدت له ترداداته على قلعة الجبل وبعض دواوين القصر الأبلق أن الإحساس عند الكثير بالخطر التتري بالغ أشده، وأن عماء أخبار تيمور حاليا يشبه الهدوء المنذر بالإعصار. والإحساس نفسه تراءى له في تقاسيم وجه السلطان برقوق ونبرة صوته:

– استقدمتك، أيها العالم القاضي، لأستفتيك في طلب المجاهد العثماني بازيد إلى الخليفة العباسي المقيم في أحيائي بأن يخلع عليه لقب سلطان الروم، حتى يتقوى به على نصارى مملكته وعلى الطاغية تيمور محقه الله.

تذكر المفتي ما سمعه عن رسالة مرعبة لم يمكنه سودون نائب الحضرة من الاطلاع عليها، رسالة بعث بها تيمورلنك إلى برقوق يأمره بالاستسلام له ويتوعده باستئصال دولته ونسله إن هو رفض. قال:

– إني، يا مولاي، منشغل هذه الأيام بالبحث في أخبار التتر الذين هزمهم أجدادك بعين جالوت سنة ثمان وخمسين وستمائة. وسأرفع إلى مقامك العالي ثمار استقصائي ما إن يحين قطافها. أمّا فتواي في مطالبة المجاهد بايزيد بلقب سلطان الروم، فهي بالإيجاب وإثبات الاستحقاق الشرعي، لا ينازع في هذا إلا من أراد فصلك عن حليفك الطبيعي، وتربّص الدوائر بالإسلام في مواجهة الأعداء والطغاة.

أشار السلطان إلى مخاطبه بالاقتراب، وربّت على كتفه تعبيراً عن الرضى والاستحسان، وحثه على الاجتهاد وإبداء المشورة، ثم أذن له بالانصراف.

* *

في متوسط السنة الموالية خمس وتسعين وسبعمائة. عادت أخبار تيمور إلى الانقشاع والبروز. فبدا الإعصار المغولي أجلى وأقرب مما كان. وكثرت الأفواه والرقاع التي رددت أن هالك الخرث والنسل قد خلا له وجه الحكم بعد أن أعدم صاحب صراي قمر الدين الخارج عليه، وأنّ غزواته قد أضافت إلى ممالكه أصبهان وعراق العجم وفارس وكرمان. أمّا الخبر الذي نزل على مصر كالصاعقة، فهو دخول تيمور إلى بغداد وعيْث جيوشه في أهلها وعمرانها فساداً. وفي ربيع السنة التالية أتى أحمد بن أويس الأخاني صاحب بغداد هارباً من الغازي إلى برقوق، فاستنجد به طالبا العون في طرد المغول من مملكته. وسارع السلطان إلى إعداد العدّة للزحف بجيشه في مواجهة الغزاة، بينما كانت المدن والأقاليم كتكريت وديار بكر والرها تتساقط بين يدي تيمور كالفواكه الناضجة.

ترى من أين يستمدّ المغول قدرتهم القاهرة على كسر الجيوش وطيّ البلدان بالقضم والهضم؟

تبادر إلى ذهن العلاّمة الجواب من جهة نظريته في كون عصبيّتهم لهذا العهد هي الأغضّ والأقوى. لكنه سرعان ما انصرف بتفكيره إلى دهاء تيمور العسكريّ الخارق للعادة. كعامل تفسير إضافي. فكلّ ما جمعه من أخبار عن هذا الغازي يثبت أنّ سرّ انتصاراته ربما كمن في أنّه يخطّط لمعاركه ويختار مجالها وتوقيتها بالدراية الجغرافية والتجسّس السياسي؛ كما تنبّه الناظر إلى براعة ذلك الكائن في إدارة حرب الأعصاب والتخويف، وتزنيد الإشاعات حول قوّته التي لا تقهر. وهذا ما يعلّل فداحة التدمير الذي يلحقه بالحلقات الضعيفة في

المالك، كيما تنقل إلى المراكز أنباء رعبه بالبريد وعبر طوابير الفارّين والمشرّدين. وجاءت تباعاً أخبار مؤكّدة حدوس العلاّمة وافتراضاته. فبرقوق بعد أن قوّى جيشه بشتى أصناف المصطنعين، آثر أن يعسكر في دمشق وأن لا يتعدّاها حتى يقبل العدوّ إليه؛ أما تيمور فقد ارتأى تأجيل المواجهة وترك المماليك في حالة استنفار، يتلقّون أنباء أهواله في بلاد الروم والأرمن وقلاع الأكراد. وفي آخر الحرب التي لم تقع، غادر المغول بغداد، وعاد زعيمهم إلى قواعده بقراباق، ثم دخل ابن أويس إلى عاصمة ملكه مع بعض عساكر المماليك، ورجع السلطان إلى مصر غير مهزوم ولا منتصر. ولم تمض سنة حتى راج بين أهل الدولة خبر مزعج، مفاده أنّ تيمور قتل أخطر منافسيه من بني جلدته، طغطمش صاحب صراي، فتناظروا سرّاً وجهراً في إمكان عودة الشرور المغوليّة إلى الظهور.

عميت أخبار تيمور حيناً من الدهر، لكن شبحه الرهيب ظلّ جاثماً على الأذهان والمجالس. فلا أحاديث في المحافل العامّة والرسميّة إلاّ عن فظائعه وأهواله وعن قساوته ودهائه. وكان عبد الرحمن في قلعة الجبل ومدرسة صرغتمش وفي حمّام الصوفية وغيرها من الأماكن يستقبل تلك الأحاديث بعين الناظر المحقّق. ورغم أنّه ضبط فيها مقدار الجهل والأوهام، فقد سجّل لحسابه أن تيمور يجسّد النموذج الأقوى للطاغية القاهر، وذلك من حيث تربّعه على تخت الشهرة والصيت ونجاحه في صرف النّاس إلى الانشغال به راجفين مرهوبين. وعلى ضوء هذا الواقع المستجدّ ثبت في قرارة نفسه أن برقوق قد حمد اللّه على أن اصطدامه مع تيمور لم يحصل، وحمده أكثر على أنّ هذا الطاغية لم يبرز له إبّان تفانيه في إخماد نيران فتنة الناصري ومنطاش.

كلَ شيء في الأرض لهذا العهد صار يدعو العلاّمة إلى نفض غبار العياء من التاريخ، وشحذ الذهن من أجل فهم الحاضر واستشراف الآتي. وقد ارتأى أن يلبّي الدّعاء ما دام في الجسم من الصّحة والصبر بقيّة. ووافق هذا فراغه من مراجعة الجزء الأخير من ***البداية والنهاية*** لابن كثير، والجزء الخامس من ***نهاية الأرب للنويري***، والجزء الثالث من ***تاريخ أبي الفداء***، وبعض كتب السير والأخبار المملوكية لبيبرس المنصوري وابن عبد الظاهر وابن سيّد النّاس وابن دقماق المصري وغيرهم، فتهيّأ له أن ينصرف باهتمامه إلى تواريخ التتر والمغول، التي شعر أنّ علمه بها غيض من فيض. لكنّ ما كل ما يتمنّى المرء يدركه. ففي التجرّد لموضوع الساعة وجائحة متمّ هذا القرن، اعترضت العلاّمة صعوبات عويصة في إحضار المادّة والتمكّن منها، صعوبات من جهة رسائل ومستندات سلطانية حال نائب الحضرة سودون، خصمه العنيد، دون اطلاعه عليها، وبالغ في المنع بعد تعيين بطا الدوادار نائباً على دمشق ثم موته بها؛ وصعوبات من جهة اللغات التركية والمغولية والفارسية التي كانت لغات أهم المصادر في التاريخ التتري. ولو لم يكن الرجل في قمقم الشيخوخة لهانت عليه تلك الصعوبات، ولتغلّب على أكثرها. ومع ذلك فقد استطاع بوسائل ملتوية الحصول على نسخة من رسالتي بايزيد وتيمور إلى برقوق، وكذلك على مصنّفين بالفارسية ***ظفر نامه وتاريخي غازاني*** لمؤرخ الألخانيين شرف الدين على الأزدي، كما أوصى كتبيه بخان الخليلي وطلبته وزملاءه النابهين من الأتراك بتمكينه من النصوص الجادّة في الموضوع المذكور. ومع مرور الأيّام والليالي، غلب على نفس العلاّمة

شعور بأن محاولة الإحاطة علما بتاريخ المغول عدت أشبه ما تكون بالغوص في مستنقعات لا ساحل لها. كثرة شعوبهم وقبائلهم. واختلاط أنسابهم وتشابكها. وشساعة أراضيهم وتشعبها، كل ذلك صار يجلب له الدوار. ويصيب رأسه بالشقيقة. لذا أضحى في أوقات الاستراحة أو الشرود يضع على وريقات رسوما متقاطعة لتثبيت شجرة هذا القبيل أو ذاك وهذه السلالة أو تلك. ويقيد على وريقات أخرى فهارس للأعلام والأمكنة والبلدان والدول والقبائل. وحتى إبان هذه الأفعال الاعتيادية كان إحساسه يقوى بتورطه في عالم تحيط الغرابة بأسمائه وأشيائه من كل جانب: عالم لا يمكن سبر أغوار مادته وشاراته إلا بالانقطاع له وتقليبه بتعميق الدرس وإجراء العيان. وهذا كله يستوجب ما لم يعد في عريكة العلامة: الفتوة والشوق والحماس. لهذا فصفحاته عن المغول ستكون لا ريب متواضعة، بل ستكون أحيانا ضعيفة أو مضطربة.

برقوق. في الحالة التي رآه عبد الرحمن عليها. حين استدعاه إليه في ساعة متأخرة من ليلة متم صفر تسعة وتسعين. برقوق لم يعد يستحق لقبه المعروف. لما أصاب عينيه من انطفاء وغور وراء حاجبين كثيفين ولحية شاردة مهملة. علامات الشيخوخة المبكرة. البادية على أطراف جسده الأخرى. تشير للعارفين إلى تمكن الهم المغولي من دماغه وجوارحه، حتى بات هذا الهم يعبث بخلوده إلى الراحة أو النوم، ويبث في لياليه وساوس الأرق والسهاد.

رأس منهك كرأس السلطان لا ينفع فيه التداوي بالأعشاب، بل نصح أهل الرأي والمشورة. لذا صار يدعو هؤلاء إليه ليلاً ويمخضهم

بالسؤال وطلب الفتوى حتى يصبحوا. وحين جاءت نوبة العلامة، كان الجلوس بالإيوان الكبير برفقة قاضي المالكية ناصر الدين ابن التنسي. ونائب الحضرة سودون مرتّب الجلسات وحارس الحركات والسكنات. والداودار يشبك مقرّر الكلام.

برقوق (*بصوت فاتر ونظرات تالفة*) : دعوت عالمي المالكية الجليلين في قطرنا السعيد بغية استفتائهما فيما نحن مقدمون عليه مع الطاغية المغولي تيمور الأعرج، قبح الله سعيه وقطع نسله.

(خيّم صمت مشوب ببعض النحنحات، فبادر سودون إلى تكرار كلام السلطان، ظنّاً منه أنه لم يطرق مسمع الحاضرين. وأضاف كلمات الأمر بالاجتهاد والقول النافع. فلم يجد العلاّمة بدّاً من التجرّد للحديث، متجنباً ما أمكن النظر إلى نائب الحضرة والآبه لاستفزازاته).

ابن خلدون : عندي أنّ الملك الظاهر سيف الدّين قد أحسن صنعاً بأخذ النصح من أهل المشورة والرأي. العلماء ورثة الأنبياء...

ابن التنسي (*ماسحاً عرقه*) : قال نبيّنا عليه السلام: «عالم ينتفع بعلمه خير من ألف عابد»؛ وقال: «العلم حياة الإسلام»...

سودون (*مقاطعاً*) : هذه الأحاديث وغيرها نعرفها. أما أمر مولانا ففي باب العمل لا في غيره.

ابن خلدون قال خير الأنام: «العلم خزائن، ومفتاحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنّه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمعلم، والمستمع، والمحبّ لهم».

برقوق (*ملاطفا*) : أسأل العالم ابن خلدون عن حكمه في الطاغية تيمور وعن أفيد السبل في محاربته.

ابن خلدون: ثقافة التخطيط العسكرية، يا مولاي، هي اختصاص أرباب السيوف ومعمَري وظائفها، كما في علمك البارز. أمّا عن الطاغية، فمنذ وقت ليس باليسير، بتّ أبحث في مكامن قوّته وأسباب انتصاراته. ومع أنّ الزاد المكتوب في هذا الشأن قليل، فإنّي أحاول فيه ما استطعت أن أجمع الدلائل والقرائن وأعمل القياس والنظر. وسأرفع إليك تقاييدي ما إن أنتهي من تحريرها وتهذيبها.

برقوق: الوقت ضيّق كثير الزحم، وقد يعمل ضدّنا إن نحن في كلّ شيء أطلنا الانتظار. التقاييد يا عالم اتركها تختمر، وهاتني بدءاً بنور نصحك.

سودون: أخشى أن يكون صاحب ***المقدمة*** مضرباً عن النصح أو لا تمكين له فيه، هو القائل بعجز العلماء في السياسة الوضعية وما يحيط بها.

ابن التنسي (*وكأنّه خرج من غفلة وذهول*) : «في أنّ العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها»، الفصل الثاني والأربعون من الباب السادس من الكتاب الأوّل من ***ديوان المبتدأ والخبر***.

ابن خلدون : كلامي في ذاك المقام مخصوص على فقهاء السياسة الشرعية ومتفلسفي المدينة الفاضلة، وليس على علماء الوجود بما هو موجود. وحتى هؤلاء، لا قدرة لهم على النظر في السياسة حين تؤول عند البعض إلى إدارة فنون الدسّ والتعتيم والظلم.

سودون (*متذمراً*): لنعد إلى صلب الكلام دون القشور.

ابن خلدون: بل جوهر الكلام ما قلته وما سأقول. الإخباريون، يا مولاي، عرّفوك ولا شك بأنساب المغول من التتر، وهم شعوب الشمال، ولا حاجة بي للتذكير أن سنّة الغزو والاعتساف سارية بينهم من عهد كبيرهم جنكيزخان إلى أحفاده الذين اشتهر منهم هولاكو مدمّر بغداد وتيمور الذي مازالت جائحته تهدّد الأسوار والأرواح. ولا أحسبني مبالغاً إذا قلت إنّ هذا الطاغية هو الأخطر والأشرس بين المغول على الإطلاق. ذلك لأنّه يعول في تصريف قوّته الضارية على عنصري المعرفة والحيلة، فلا يدخل حرباً من باب المجازفة أو الجهل، ولا يخوض معركة إلاّ بعد أن يضع أسباب التوفيق في حومته.

سودون: هل ترى إذن أنّ مولانا المعزّز بالأمراء وأتابكة السلاح يفعل غير ذلك؟

ابن خلدون: لا تقوّلني ما لم أقله يا نائب الحضرة. السلطان الظاهر سيف الدين أتاه اللّه من حكمة النظر والتدبير ما تشهد به أعماله ومحبّته للعلم والقيّمين عليه.

برقوق: أكمل تصويرك للطاغية، فقد شوقتني إلى المزيد.

ابن خلدون: تيمور، يا مولاي، الذي يعني في لغة المغول الرجل الحديديّ، تمكّن من استيعاب ممالك بني هولاكو وبني دوشي خان بفضل شوكة مضت عند قبيله واحتدّت حين بارت عند مهزوميه وتلاشت، إنها شوكة البداوية، التي رصدتها في المغرب كلّه قوّةً جامحة تقضي على دول الترف والبذخ. أمّا وجوه معرفته وحيله، فكثيرة، منها أنّه أسلم وأمر بني جغطاي بالإسلام حتى يسحب

البساط من تحت أقدام الداعين إلى مجاهدته من المسلمين بدعوى مجوسيته وشركه؛ ومنها أنه يستخدم المخبرين والبصاصين عيونا في الأقطار والقصور. ولا أشك في وجود بعض هؤلاء بين ظهرانينا؛ ومنها أنه ينشر الخراب في غزواته ويعمر المجالات بجبال من الجثث والجماجم حتى تشيع أخباره المهولة ويجدع بها أنوفا لا يراها.

ابن التنسي (*متكلفا الكلام*): قال عليه السلام «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، رواه البخاري ومسلم في الصحيحين.

ابن خلدون: نبينا كان صاحب رسالة سماوية ينشرها بالترغيب بين المهتدين، وبالترهيب لدى المشركين. وما غلب بالجبروت والعدد الكثير، بل بنصر ومعجزة من عند الله الواحد القهار... أما تيمور الأعرج فلا رسالة له إلاّ في مسالك تدمير الحرث والنسل، ولا غاية له سوى التربع على تخت ممالك الدنيا.

سودون (*بصوت مستفز*): هل ترى يا فقيه أنَ البدويَ الأعرج، الذي تهولَ من شأنه، سيتمكّن من الجلوس فوقنا؟ هل دولة المماليك البرجيَة، قياسا على كلامك العام، لها كغيرها عمرٌ لا تتعدّاه؟

ابن خلدون: أعمار الدول كأعمار الأشخاص بيد الله. والبقاء للحيَ الدائم وحده. أما الطاغية المغولي، وقد تسيّد منفرداً على بني جلدته، وتقوّت جيوشه بالأقوام المهزومين، فلن يُهلكه إلاّ ما أهلك طغاة الدول الشاسعة من قبله في مقدونيا وفارس وبلاد الروم: كثرة الغزوات ودوارها وسُحْق المسافات بين المركز والأطراف. وما دون هذا فلا يبقى إلاّ وضع التحصينات والدروع البشريّة المسلّحة حول الحواضر والأقاليم الحيويّة، التي لا يلزم أن تمسّها بسوء زوبعة المغول. غزوات

هؤلاء للأوطان كثيرا ما تحدث بالمطاولة وليس بالمناجزة. ولهم في الأرض حصة لا زيادة عليها. فليتركهم مولاي يرهقون قواهم في ضم مناطق الشمال وطي سهوبه ومفازاته وفيافيه. أما منافستهم عليها فلا أراها حكيمة ولا مأمونة العواقب.

سودون (*متكلفا الاستغراب*) : سبحان الله! لعليّ بالفقيه ينهى عن ملاحقة الطاغية ولا يأبه لما ينشره الوحش من موت ودمار بين العباد.

ابن خلدون: النازلة المغولية كالإعصار أو الزلزال. لا بدّ أن تخلّف وراءها الضحايا والخراب. والحكمة تكمن في تركها تبدد طاقاتها خارج حواجز أمنية معلومة. ونعم ما فعل مولاي الظاهر سيف الدين حين حدّد تلك الحواجز في بلاد الشام، فهب لنجدتها دون أن يتعدّاها.

سودون كلّ هذا الكلام لا أراه يرفع الغطاء عن مسألة المسائل: ترى هل يعيد الطاغية الكرّة إلى دمشق التي صدّه عنها مولانا، فيحاول غزوها؟

ابن خلدون : في تقديري أن تيمور سيعود إلى بلاد الشام بقوّات أوفر، وعتاد أعتى. وكعادته سيبدأ بالحلقات الضعيفة، فيقيم أهرامات الجماجم في هذه المدينة العزلاء ويضرم النيران في أخرى. فلا مناص من الاستعداد لذلك الاحتمال سواء تحقق أو وقانا الله شرّه.

برقوق (*مغالبا هجمة النوم عليه*) : هنا أيها العلاّمة نأتي إلى حجر الزاوية ومنتهى الكلام. فعدا الترتيبات العسكرية التي هي اختصاص قوّادنا البسلاء، دلّني بالنصح على عوامل خفيّة في تيسير النصر وتسريعه.

ابن خلدون *(حادجا سودون بنظرة ثاقبة)* : تقوية الجبهة الداخلية أولا يا مولاي. كيف؟ بالعدل الذي هو قوام الملك، لأن الرشى والبراطيل تفسد الأخلاق والقواعد. لأنَّ الظلم مؤذن بخراب العمران. لأن الرعايا إن أنصفهم راعيهم وكرَمهم استلحمهم وتطايبت قلوبهم على محبّته وقتال أعدائه.

برقوق *(مشيراً إلى الدوادار بالكدّ في التقييد)* : عين الصواب ما تقول، ثم ماذا؟

ابن خلدون: فتح ديوان العطاء والإنفاق قصد شحذ المجهود الحربيّ وجلب المجاهدين من أهل البأس والبداوة. قد يسألني نائب الحضرة: من أين يؤتى بالمزيد من المال، وروافده معلومة لا تتعدّد؟ وهنا إن أذن مولاي أن أسدي النصيحة الأمّ قلت: حذار ثم حذار من حلب الرعية المستضعفة واستكثار المكوس على أهل الحرف والحرث. حذار من تيئيس النفوس وإرغام أيدي الاعتمار على الانقباض والكفّ. مصادر توفير العدّة والعتاد ليست إلاّ في خزائن الأثرياء المتفنّقين في الأبّهة والبذخ. أقساط من تموّلاتهم ورياشهم تنفق في إقامة صخور انكسار المدّ المغولي، وإلاّ ذهبت أموالهم كلّها وذهبوا.

ابن التنسي: **﴿الذين يَكْنِزُونَ الذّهبَ والفضّةَ ولا يُنفقونها في سبيلِ الله فبشّرْهمْ بعذابٍ أليمٍ﴾.**

سودون *(متضايقاً)* : أعيان الدولة وأكابرها لن يدّخروا جهداً لنصرة مولانا والذود عن حمى التخت.

ابن خلدون: الأقوال بالأفعال تَصْدُق وتقوى، وخير البرّ عاجله. فلا

أموال تهرب، ولا نفائس تدفن. ولا رسوم تزور أو تحجب. الظرف خطير عصيب، ومن لم يعه هلك بجهله.

برقوق: ثم ماذا في غير ذلك من الأبواب؟

ابن خلدون: المهاداة يا مولاي، المهاداة! إنّها عنوان الوصلة وعربون السلام. وأعظم المهاداة وأفيدها في هذا الظرف بالذات هي التي يحسن أن تكون بينك وبين سلاطين المغرب، يتقدمهم سلطان بني مرين. وفي مراسلة هذا السلطان، الشديد الأنفة كأسلافه، لا ضير في مخاطبته بأمير المؤمنين، حتى لا يحصل مجدَداً ما وقع من استيحاش وسوء تواصل بين صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحّدي.

برقوق: وماذا وقع بينهما، لا سامح اللّه المذنبين والمقصّرين؟

ابن خلدون: هادى الأمير الأيوبي السلطان الموحّدي، وطلب عون أسطوله لقطع الطريق على الفرنج في سواحل الشام، فلم يفلح منه بشيء لكونه لم يُحَلِّ مخاطبته المكتوبة بكلمة أمير المؤمنين. هذا ما رواه الأخباريّون ﴿**واللّه عليم بذات الصدور**﴾.

برقوق: هل ترى، يا وليّ الدّين، أنّي في حربي ضد تيمور سأحتاج إلى مدد المغرب وأجناده؟

ابن خلدون: حين أتيت مصر لأوّل مرّة، خلت الخلق فيها وكأنّهم فرغوا من يوم الحشر. وهم اليوم كذلك بل أكثر. لكنهم إجمالا إمّا أهل تعيّش وقنوع، وهذا سوادهم الأعظم، وإمّا حضر أبطرهم الترف واستهواهم الجاه، فصاروا أجبن من النسوة الملقاة على ظهورها. لهذا لا تعويل في المدافعة والمناجرة إلاّ على جيش الدولة المقوّى بالمجاهدين

والمصطنعين من كل البلاد الإسلامية القريبة. والمغرب بأعرابه وبربره معدن الرجال الصناديد الأشداء في الصبر والقتال، وخيلهم التي ما زال مولاي متشوقا إلى جيادها. كأنها خلقت للكد والنضال. وعليه. فطريق المهاداة والإتحاف يوطئ طريق التنادي بالجهاد والاستجاشة.

برقوق: ولهذه الغاية أيضا دعوتك إليّ يا ولي الدّين. تعلم أنّي منذ خمس سنوات أو أكثر. كتبت في أحد أعراب المغرب شفاعة لسلطانه المريني أبي العبّاس، وكلّفته انتقاء الخيول من قطره وإحضارها إليّ. ولا أدري ما أخّره عن أداء المهمة. أما اليوم فإني سأعهد بالأمر إلى المملوك قطلوبغا وأحمله هدايا من القماش والطيب والقسي إلى ملوك المغرب. وأعوّل عليك في نصح هذا الرسول وتنويره.

ابن خلدون سعايتي واجب في ما أراه خيرا ونعمة. يا مولاي.

برقوق: هل بقي قول في ما كنّا نطرقه؟

ابن خلدون: أجل. عندي ما أريد الختم به وأطلب من الدوادار أن يبرز حرفه.

برقوق (*مقاوما تعبه*) : هيّا تفضّل ولو أدركنا الفجر.

ابن خلدون: ليس لي يا مولاي في فنون الحرب معرفة دقيقة، ولكنّي أرى أنّ التصدّي للمغول قد يستلزم تلك الفنون مجتمعة أو متعاقبة: من الكرّ والفرّ إلى الزحف بالصفوف والكراديس، ومن التحرّك إلى التحصّن في المواقع والخنادق. كما أرى أنّ طابور الرماة والسهاميين، مفخرة الجيش المملوكي، سيكون عليه المعوّل... أما ما أدركه على نحو

أجلى فهو أن يتسلح القواد والدهاة بسلاح تيمور الأفتك الأمضى. سلاح الخدعة والحيلة...

ابن التنسي. (*بعينين مغمضتين*): قال في *المثل السائر* «رب حيلة أنفع من قبيلة»، وقال سيد الخلق وهازم المشركين «الحرب خدعة».

ابن خلدون. سلاح الحيلة والخدعة لا يكسبه إلا من أوتي في ثقافة الحرب دراية وبصيرة. واستفاد من شتى المعارف النافعة. لهذا ترى الغازي تيمور محاطاً دوما بأنبه الخبراء في كل فن، لا يدخل مدينة إلا قرب إليه علماءها. وأخذ بعضهم في موكبه. وأرسل بعضهم إلى عاصمته سمرقند من أجل تعميرها وتزيينها. وهذا ما فعله مؤخرا في الرها وتكريت وحلب وغيرها. وإن أردت يا مولاي أن أحرر لك تقييداً في ما أراه هاماً مستعجلا، فاذن لي بذلك ورخص.

برقوق. بل إني أطلب منك كتابك وأرجوه.

ابن خلدون. أمّا فصوله، إن شاء الله، فهي حسب فيض الخاطر: فصل في سن إحياء ذكرى انتصار المماليك على المغول بعين جالوت وفي الاعتناء بمصنف ابن عبد الظاهر عن سيرة بيبرس قاهر المغول والأمر بنقله إلى لغة الترك والتتر؛ فصل في خبر فرار تيمور أمام زحف السلطان الظاهر برقوق الطاغية وإرسال جواسيس موثوقين إلى صفوفه وأحيائه. وبالله التوفيق.

برقوق. لا فُضَّ فوك يا وليَّ الدين، لا فُضَّ فوك. (مشيراً إلى سودون) رافق الفقيه ابن التنسي، فقد غلبه النعاس.

ابن التنسي (*ناهضاً*): سبحان الذي ﴿لا تأخذهُ سنةٌ ولا نوم﴾! السلام على الحضرة العالية بالله.

برقوق *(مقرِّباً إليه ابن خلدون)*: مات بطا الذي كان يقيك شرّ سودون. وهذا المتعصّب له عليّ دين أنت تعرفه. لكنّي في القريب، إن شاء الله، سأوليك قضاء المالكية عوضاً عن ابن التنسي سواء بقي حيّاً أو قضى نحبه. أما عن حالي فإنّي لا أخفيك سرّاً أن العظم وهن منّي، ولا أظن نزال تيمور سيكون معي، بل مع وليّ عهدي ابني الناصر فرج. أوصيك يا وليّ الدّين بهذا الولد خيراً، فكن له ناصحاً ونصيراً... والآن قم وانصرفْ ولا تدْعُ لي في فجر هذا اليوم إلاّ بدعاء واحد: أن أنام قليلاً... *(معانقاً ابن خلدون)* رافقتك السلامة.

* *

حين استيقظ عبد الرحمن في منتصف النهار قابلته زوجته بوجه ريّان بشوش، فاستغرب أنها لم تسأله عن سبب تغيّبه ليلة الأمس، وطلب منها أن تفعل، فسألت مبتسمة غير قلقة ولا منزعجة، وأضافت:

- الموتى كثروا، وبلا شكّ كنت تعزّي وتواسي!

لم يستسغ الرجل هذا التهكّم، فقال عابساً:

- بل كنت عند السلطان نتحادث في أمور كبيرة.

- عند السلطان! وكيف حاله؟

- ليست بخير يا أمّ البتول، ليست بخير.

- سلطان وحاله خائبة، إيش يقول العبد المسكين؟

قالت تعليقها وذهبت لإحضار الطعام، بينما عبد الرحمن يتأمّل في زوال وسواس الغيرة عن زوجته، ويزفر في وجه الزمان الذي يجري في بيته لغير صالحه.

بعيد الغداء لاعب العلامة بنته ثم غفا قليلا إلى جنبها. وحين شعر بعودة بعض القوة إليه، عكف ساعات طوالا حتى وسط الليل يحرر التقييد الذي وعد به السلطان ورسائل إلى بعض علماء المغرب لبعثها مع قطلوبغا، يستفتيهم فيها عن الجائحة المغولية وموقفهم منها. وحين أصبح، قصد القصر حيث كان من أبرز المشرفين على إعداد سفارة السلطان، فبذل النصح النفيس إلى رسولها وأطلعه على أقوم المسالك لبلوغ الممالك.

* *

آهٍ من تعاقب الأحداث! وآهٍ من فعل الوقت بالأجساد!

آخر تسعة وتسعين من هذه المائة الثامنة جاء مصر رسل ملوك المغرب الثلاثة في موكب بديع محمَل بأنفس التحف وأثمن الهدايا. وكانت حصّة المريني أبي عامر منها - والحقّ يقال - هي الأوفر والأبرز. وتسلّط الخاصكية على ما خفّ منها فتخاطفوها، وتركوا للسلطان عتاق الخيل بلجمها وسروجها الذهبية، وكان يوم عرضها أمامه يوماً مشهوداً. أمّا عبد الرحمن، فقد انصرف همّه إلى مخالطة الرسل المغاربة في القصر أو في منزله، يسهّل مقامهم ويكرمهم ولا يضيع فرصة سانحة دون أن يسألهم مطولاً عن أحوال الملك والنّاس في بلدانهم. وكذلك فعل معهم حين عادوا من أداء فريضة الحج إلى القاهرة، حيث استراحوا أيّاماً قبل أن يؤمّوا شطر أوطانهم مزوّدين بهبات السلطان وإحسانه.

في منتصف رمضان إحدى وثمانمائه، بعد أن توفّي قاضي المالكية ابن التنسي السالف الذكر، عيّن برقوق خلفاً له ابن خلدون، فبرّ

بوعده وضع التمائمه هاته بكثير من الحفاوة والثناء. ضدا على المشغبين والنمامين؛ كما رفض عرض شراء المنصب بسبعين ألف دينار من طرف القاضي ابن الدماميني. أما القاضي الجديد فقد تلقى ولايته الثانية للخطة بالامتنان والشكر، وكذلك بالتعبير الصريح عن نيته في الحكم بالعدل وإقامة شرائع الله كما يرضى الله ويبغي. وتفانى في الخدمة حتى كان أحياناً يحمل معه إلى دار الخطة طعامه المعدّ بيدي زوجته، كرزة القاضي على الطريقة المغربية، ولقيمات القاضي على الطريقة المصرية. وفي قرارة نفسه شعر أن تسميته في الوظيفة كأنما هي هدية وداع من سلطان يخفق في إخفاء تعبه ومرضه. وفعلاً، لم يمض شهر بالتمام حتى التحق برقوق بجوار ربه بعد أن أقر السلطنة في أبنائه. بدءا بكبيرهم الناصر فرج، الذي جعله في كفالة الأتابك أيتمش. وأشهد على وصيته الخليفة المتوكل والأمراء والقضاة. غير أنّ الأحداث جرت بفتن تركت لعبد الرحمن طعم الأشياء المتكررة. مع تنويعات والمعنى واحد. فها هو الكافل يتطاول. وها تنم نائب الشام يحسده ويعلن العصيان. وها هم أتابكة أيتمش يتمردون على أستاذهم ويحرضون السلطان الشاب على التحرر من ربقة حجره. فكان ما كان مما أعيى العلامة تتبعه والإخبار عنه. ولحسن طالع السلطان الجديد أنّ الفتنة لم تعمّر أكثر من بضعة أشهر. إذ أنه زحف على دمشق وتمكن من القضاء على كلّ الأمراء الثائرين إما ذبحا وإما خنقاً.

حصر السلطنة في ذرية برقوق، وتحصين حكمهم بالإجهاز فتكاً على المنشقين، لعلّ هذا كله يحمل طابع وصية السلطان إلى خلفه، ويشي

بأن هذا الخلف قد وعى عبر أبيه أن لا خلاص من العادية المغولية إلا برص الصف المملوكي وتقوية جبهته وشوكته. لكن شيئا ما في شخصية فرج كان يزعج عبد الرحمن ويقلقه. وهذا الشيء ليس بالضرورة قلة مراسه العائدة إلى حداثة سنه، فهذا عائق يضعفه الذكاء وطلب المشورة، لا بل إنه الغرور حتى الغطرسة الجامحة بالسكر. الفرق بين الابن وأبيه لا يبدو أن الزمان المنظور قمين بمحوه، إذ أنه فرق في الطبع والقوام والبنية. وهذا الفرق رصده العلامة معاينة واستنباطاً وهو يرافق السلطان الغر في حملته الشامية ضد سماسرة الفتن والخارجين عليه. فسجل في تقييد رحلته: نوائب تيمور آتية لا محالة. اللهم إلاّ إذا حدث العجب وبطل السبب.

في طريق العودة إلى مصر استأذن عبد الرحمن السلطان في زيارة الأماكن المقدسة التي حنت نفسه إليها منذ زمن بعيد، من دون أن تسمح له كثرة الشواغل بذلك. وهكذا حقق حلمه القديم بالصلاة في المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الذي بارك الله حوله، وكان محط إسراء النبي عليه السلام ومصعد معراجه إلى السماء. في هذا المسجد المفتوحة جل سقوفه على فضاء الله، كما في باقي رحاب القدس المحروسة بأسوار صلاح الدين بن أيوب، شعر العلامة عبر حواسه الخمس بانجذاب لطيف نحو التجرد والتعالي. وبرغبة خفاقة أكيدة في التحليق الروحاني. وفكر أنه لو لم يكن متأهلا ومربوطا بالأرض لاعتصم بجوار المسجد الفسيح عابداً، قانتاً، متأملا بين مجلس داود ومصلى أيوب ومحراب مريم ومتعبد زكرياء عليهم السلام جميعاً. وحين زار مدافن بعض الرسل والأنبياء، وقبة الصخرة،

ومربض براق نبينا ليلة الإسراء، والطور حيث كلم الله موسى، ومشاهد أخرى كثيرة، كان يتنسّم ملء صدره ريح القدس الزكيّة ويتسربل بأنوارها الفذة الشعشعانيّة.

هنا في هذه المدينة- كما خطر في ذهن الزائر المفتون- تقوم بين الأديان السماوية الثلاثة مواثيق الكلمة السواء، التي أوّلها وآخرها السلام في رحاب التوحيد. لهذا امتنع عن الدخول إلى كنيسة القيامة المشيّدة على مكان الصليب، لما فيها من خرق لتلك المواثيق وتشهير بالقرآن الكريم.

بعد قضاء سنن الزيارة ونوافلها في مدينة الإشراق والسلام، قصد العلاّمة بيت لحم، مكان ازدياد عيسى ابن مريم، فلامس بقيّة جدع النخلة، وسجّل في تقييده عن البيت:

[وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح. شيّدت القياصرة عليه بناءً بسماطين من العَمَد الصُّخور، منجّدة مصطفّة، مرقوماً على رؤوسها صور ملوك القياصرة وتواريخ دولهم، مسيّرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة، وضخامة دولتهم].

من بيت لحم كان الارتحال إلى بلدة الخليل الثاوية في بطن واد متفيّئ بظلال السكينة والأمان. والبلدة جليلة القدر رغم صغرها، لأنّ فيها المسجد الذي بناه سليمان الحكيم، وفي المسجد الغار المكرّم بقبور إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم عليهم جميعاً أزكى السلام... صلّى الزائر الفروض والنوافل في المسجد، ونزل إلى الغار المهيب مترحّماً، كثير الانفعال والتأثّر. وقبل التوديع ألقى نظرة

عجلى من جهة الشرق على تربة لوط عليه السلام، وتمنى العوم في بحيرته عمّا قريب.

في فم الشام من جهة البحر، عند غزّة، تذكّر الزائر اقتراب موعد التحاقه بموكب السلطان بظاهر القاهرة، فاكتفى بالصلاة في جامع المدينة والأكل من تينها وعنبها، ثم امتطى صهوة جواده وانطلق محاذياً البحر، متجنّباً برّيّته بني اسرائيل. وخلال مسيرته خامرته أفكار شتّى، منها أنّ زيارة القدس، كزيارة الحرمين الشريفين، تبرئ المرتاب في وجود الروح، وتترك له طيّ حواسه الخمس آثار بُعْدٍ اسمه المطلق؛ ومن تلك الأفكار أيضاً أنّ زيارة مدينة النور والسلام، وقبور شهود التوحيد وزوجاتهم، لا تكتمل بهجتها إلاّ بصحبة الحبيبة رفيقة العمر.

في ضاحية القاهرة الشمالية تسرّب عبد الرحمن إلى بطانة السلطان وسار في ركبه معرضاً عن مظاهر الأبّهة والبهرجة، حتى إذا بلغ معه مشارف القصر الأبلق كرّ راجعاً إلى بيته، وكلّه شوق إلى تقبيل ابنته وزوجته.

حدوس العلاّمة بانطواء جوانح السلطان الغرّ على الضعف والغدر كانت صائبة، كما شهدت علاقاته به إبّان أواخر اثنين وثمانمائة. التكالب ضدّه تصاعد بشكل مسعور، مصحوبا بالقذف والتشهير، وفرج متغافل لا يحرّك ساكناً. بطانة هذا السلطان تجنّدت من أجل عزله عن خطّة القضاء وبيعها لطالبها بالمال الثقيل الفقيه الخامل الذكر نور الديـن بن الخلال، ولا من ناهٍ ولا من مستنكر. والتهمة هي التهمة

نفسها التي وجهت إليه أثناء ولايته الأولى: الشدة والإفراط في الحكم والعقاب. أي بكلمات أقرب إلى واقع الحال، أنّ المالكي لا يتعامى ولا «يطوِّل باله». كان عليه أن يلبس جبة من صنع أصحاب السيف والقلم الجدد. ويقبل رشى محمييهم من ملاك المواشي والحرث والعقار؛ كان عليه، لكي يكون عند حسن ظن أهل السلطة والجاه والمال، أن يكيّف أحكام الله مع شهواتهم ومنافعهم الصرفة، فيحلّل ما حرَّم الله، غاضاً الطرف عن بيوع الجزاف وعن الغرر والربا؛ متساهلاً مع أهل التربص والحكرة وسماسرة الاختلال والظلام.

لا وألف لا؛ قالها العلامة في وجه الحاجب أقباي المؤلّب ضده حتى النخاع. وأضاف: «والذي نفسي بيديه لن يثنيني عن القضاء بالحق سلطان ولو كبر سطوه». كلمات نيرة صادعة، رأى الخصوم أن بها بلغ السيل الزبى. فدفعوا الحاجب إلى عزله وحتى الزجّ به في زنزانة بحبس القلعة مدة أسبوع. وخلال هذه المدة سُمح له بالقراءة وباستقبال خادمه شعبان، الذي أتاه بكلمات الطمأنة على أحوال الأهل. قال:

- كل شيء في البيت، يا أفندي، على ما يرام. خبّرني محبوك بالأمر. قلت مع نفسي، لا مؤاخذة. يلزم إقناع الست بأن سيّدي في ضيافة السلطان.

- حسناً فعلت يا شعبان. قل لها إنّي في ضيافة السلطان لفترة لا يعلمها إلاّ هو.

في السجن لم يفكّر العلاّمة في سوء حاله بقدر ما فكّر في علامات تصدّع الصفّ المصري وتوافر حظوظ الانقضاض المغولي. صغر

السلطان، ثم صعر في عينيه! أعوبة صار بين عصابات بطانة السوء. لا يخرج من ربقة حجر إلا ليسقط في أخرى. والعلماء من أهل العقل والخير لا مكان لهم ولا سلطة في مصطدم المطامع والأهواء الخسيسة. السجن أحب إليهم من نصب علمهم قنطرة يسلكها أهل الاعتساف والخرق.

عند موفى الأسبوع أمر عبد الرحمن بمغادرة السجن والإقامة في بيته. واحتفظت الزنزانة في أحد حيطانها ببيت شعر مخطوط نقشا بيد نزيلها الجليل:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى مُتَعزَّلُ

ما إن عانق العائد زوجته وبنته حتى أخذ يغالب غصته وحنقه بالكلام الحادّ الفوّار:

- هذه المرّة يا أمّ البتول. لا بدّ من مغادرة هذه الأرض. لم تعد مصر منأى للكريم عن الأذى. المغرب بلادي، ويبقى بلادي ولو جار عليّ. صوت المغرب الداخلي ينادينا بأن نعود إليه. فاس في انتظارنا. فاحزمي الأمتعة واستعدي للرحيل.

زغردت المرأة ثلاث مرّات، ذرعت الغرف خطوات عجلى وردّدت:

- من أين أبدأ؟ يا شعبان ساعدني. يا شعبان.

بدا الخادم أحزن من غراب، قال:

- الهمّ نصف الهرم يا سيّدي، وفي فراقكم يبلغ هرمي التمام. أسعد أيامي قضيتها في خدمتك، فكيف يصبر قلبي على الفراق؟

لم يعرف عبد الرحمن كيف يكلّم خادمه. فنظر إليه نظرة تائهة متحننة، تاركاً زوجته تصوغ الجواب، قالت:

- أنت واحد منّا يا شعبان. إذا رحلنا جئت معنا.

- حدود الدنيا عندي يا أمّ البنين تقف عند الفسطاط والقاهرة. لم أغادر موطني وأنا في عزّ العمر، فكيف أفعل وأنا عجوز مقوّس الظهر! إن كان الفراق لا بد منه فبالمهل والتأنّي رحمةً بي.

بادر عبد الرحمن إلى تهدئة روع شعبان، وأمر زوجته بالتروّي والإرجاء، ثم اختلى في مكتبه عاكفاً على علمه وأوراقه.

* *

صباح الغد، أقبل على العلاّمة في منزله الدوادار يشبك الشعباني، فاستقبله بالحفاوة. وأخبره عن نيّته في العودة إلى موطنه، معلّلاً دافعها بالحنين وحده. لكنّ الزائر سرعان ما كشف الغطاء عن دعوى زيارته وفحواها، قال:

قضيت، يا وليّ الدين، أكثر من شهر في الشام أتتبّع أخبار تيمور وأنظر فيها مع الأمراء ونائب الغيبة. واللّه لو مكثت في القاهرة ما كان لأحد أن يمسّك بمكروه، حتى لو كان السلطان نفسه. الحاجب أقباي من أهل الجهل والزلفى. وفضله الأوحد أنه ممّن تعصّب لفرج في فتنة تنّم الأخيرة... حين عدت إلى القصر وعلمت بخبر سجنك، بادرت إلى إطلاع السلطان على ما سجّلتُه من كلامك الأخير مع أبيه المرحوم برقوق، فبكى بين يديّ بكاء حارّاً، وكلّفني أن أعتذر لك باسمه وأعرض عليك تدريس المالكية بوقف أم الصالح. ثم واللّه لو لم تكن

حظوة أقباي في هبوط. لطلبت أن يؤمر باستغفارك والمجيء إليك من دار الحجبة مشيا على الأقدام، تماما كما فعل معك الوغد في استدعائك إليه.

انبسطت أسارير عبد الرحمن، وأجاب بكثير من الهمّة والعفة:

- جوزيت خيراً يا يشبك، وبارك اللّه في مسعاك... المشي على الأقدام رياضة ينصح بها الأطبّاء والحكماء، ومنافعها في الشيوخ مثلي كثيرة مثبوتة. أمّا الضير كلّه ففي نوع السجن الذي عرفته قبيل إيابك... السجن في نظري صنفان: سجن مفخرة وسجن إذلال ومسكنة. الأوّل عشته أيام شبابي طوال عامين تقريباً في فاس تحت السلطان أبي عنان المريني، والثاني ابتليت به ظلماً وعدوانا في مطلع ولاية سلطان محجور خدمت أباه وتفانيت. لكن لننس محنة أحبَّ البعض أن أتصاغر تحت وطأتها، فما أفلحوا. إني اجتزتها بسلام لأنّي كنت كثير التفكير في العظيم اللامتناهي وفي حكم الهند واليونان والعرب والفرس؛ كنت أرخي العنان لحافظتي وأفتتح الفيض بالآي من الذكر الحكيم. كان متصوفة الإسلام يلقون عليَّ لطائفهم وشطحاتهم، ويطلّ عليَّ الكرخي فنهتف معاً: «التصوّف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق».

- والوظيفة الجديدة المعروضة عليك. يا وليَّ الدين؟

- لا حاجة لي بها. قل لهم أن يبيعوها كما باعوا ولايتي القضاء. خزينة الدولة محتاجة إلى كلّ المداخيل من أجل محاربة التتر. ثم إن المالكية صارت يتيمة في هذه البلاد، يلفظها فساد عادات مترسّخة،

ويمجها أصحاب السلطة والجاه والمال... وأخبار تيمور يا يشبك. كيف هي؟

- خطيرة جدا ومنذرة بالشؤم. لقد احتل الغازي بلاد الروم وهدم سيواس، وهو اليوم يطوف بالشام ويقصد دمشق. الظرف عصيب يا ولي الدين وغاية في العسر. وبصفتي الدوادار الكبير ومشير المملكة، فقد نصحت السلطان أن يتوجه بعساكره إلى دمشق لمنع سقوطها بين أيدي المغول. دمشق بوابتنا الشرقية. إن سقطت، لا قدر الله، تعرت مصر من درياق عظيم. كان هذا أيضا رأي بعض أمراء السلاح دون سوادهم. ما يزال التردد طابع الموقف. وأنا أجتهد اليوم في تبديده بعون الله. كما أني أشرت على فرج بأخذ القضاة في موكبه، تتقدمهم أنت بالتخصيص.

- التفاتتك طيبة، لكن سني لم تعد تسمح لي بالتنقل والترحال.

- المقصد قريب يا ولي الدين. وتأخرك عنه لن ينظر إليه أحد بعين الفهم والرضى. فكر جيدا خلال اليومين المتبقيين قبل موعد الإنطلاق في منتصف شهر المولد الكريم. ثم خبرني بما ثبت عليه رأيك.

قال الدوادار كلامه هذا، وقام مودعاً عبد الرحمن بكثير من الود والإجلال.

حين شاور العلامة زوجته في الأمر، سمع منها ولولات متبوعة باستعطافات بأن يبقى إلى جنبها، بدعوى أن الحرب شغل العسكر وحدهم. لكن كيف يفهمها شوقه إلى رؤية الكائن المغولي وربما الكلام معه؟ كيف يقنعها بأهمية المعركة المقبلة وبرغبته في مشاهدة

جولاتها وأطوارها؛ كانت بلاغته تصطدم بأقوالها الساذجة السريئة. فيذكرها بوجوب مطاوعته وطاعته، وتهدد هي بالعودة إلى فاس إن هو انصرف عنها وعن ابنتيهما إلى الحرب. وأخيرا آل فض النزاع إلى شعبان، الذي عرف كيف يهدئ من روع أم البنين ويدفع سيده إلى أخذ زوجته بالحسنى والرفق.

ساعات طوالا قضاها عبد الرحمن مفكرا في انجذابه نحو تيمور، رغم المصاعب والمخاطر. في سريرته صار يقر بأن سفره إلى دمشق في ركاب الناصر فرج إن حصل لن يكون دافعه تحيزا ما للمماليك، بل الفضول وحب المعاينة لا أكثر. مشروعية الملك بعد الخلفاء الراشدين في تصوره وهم وادعاء. فهي على رؤوس السيوف تصنع. فلا تخدع إلا المغررين بمحترفي الخطب والأنساب. قال هذا منذ زمن بعيد. ومازال يمعن في قوله وهو يرى الخلافة العباسية اليوم يكبلها المماليك في أقفاص الزينة والعجز. وكانت تأتي عليه أحيان يرى فيها أن طالب الملك لا يهم أن يكون أبيض الجلدة أو أصفرها. ولا مدور العينين أو خزراءها، مادام الجميع يدعون الإسلام والدفاع عن بيضته وحماه. ذاهب إذن هو إلى مشارف الوغى من دون سلاح ولا قضية؛ ذاهب لقياس حرارة التاريخ في إحدى منعطفاته العسيرة؛ ذاهب وهمه الأكبر تشخيص الواقعة ووصف مجراها إلى خارطة الهزات وتبدل رؤوس الملك وعروشه.

* *

في يوم الزحف، وقد كان - بعد تأجيلات - ثالث ربيع الآخر، قبل عبد الرحمن زوجته وابنته، وعانق شعبان موصياً إياه بالأهل خيراً، ثم قصد جبل القلعة حيث استقبله بالترحيب والتكريم يشبك، وأهداه من إسطبل السلطان الخاص بغلة مغربية فارهة ذات سرج محلّى بالذهب ولجام مرصّع بالحجر اللامع. وبعد أن قدّمه للناصر فرج بصحبة القضاة الآخرين توسّط معه فصائل الخيالة والمشاة القاصدين غزّة على شافّة البحر.

كان الصمت المشوب بالخوف والحذر سيّد المسيرة من تلك المدينة إلى دمشق، مروراً بشقحب تحت جبل غباغب. كان صمتاً تطعمه أخبار المغول البالغة السوء والفداحة في كلّ الربوع التي اجتازوها الواحدة تلو الأخرى حتى بعلبك باتجاه معسكر المماليك الدمشقي.

سأل عبد الرحمن الأمير يشبك عن خطّة القوّاد في حرب الجيش التيموري، فأجابه بأنّها الدفاع ولا شيء غير الدفاع عن المدينة بغية تيئيس تيمور من مهاجمتها ودخولها. وأبرز له عنصر الوقت، الذي يمكن أن يعمل لصالح جيش فرج إن أحسن تدبيره. فدمشق مدينة محصّنة تمتنع على الرماة، والمؤن فيها كافية للثبات في الموقف والصبر على الحصار.

حرب لا ككلّ الحروب! لا زحف ولا صدام مع العدوّ صفّاً صفّاً، ولا ساحة التقاء الجمعين بالسلاح والمناجرة. حرب سمّاها العلامة حرب الترصّد والمجاولات الخاطفة، لا غالب فيها ولا مغلوب، وقد تدوم إلى أن يقنط المغولي من انتظاره، فيعود إلى غزواته الأخرى، أو يرتدّ التحصن على المملوكي فينسحب إلى قواعد انطلاقه.

في الأيام الأولى من الإقامة الدمشقية. انصرف اهتمام عبد الرحمن إلى طلبته بالمدرسة العادلية التي أنزل بها، فصار يلقي عليهم دروسا في فقه المذاهب الأربعة، من دون أن يتوفق في كسر ذهولهم عنها. وحين استيقن أن أذهانهم منشغلة بأحوال المدينة وأخبار المغول دون غيرها، أخذ يطاوعهم في الإجابة عن أسئلتهم العديدة المتنوعة في مسائل الجهاد والتاريخ الحاضر، فيلقنهم بما علمه الله. وكانت استفسارات أنبههم إمّا عن قدرة الجيش المصري في إبعاد خطر الغزاة، وإمّا عن أسباب تشبث أتابكة هذا الجيش بخطة الدفاع عن دمشق وحدها دون باقي أمصار الشام. وإما عن مآل الأهالي في حالة انهزام المماليك أو انسحابهم إلى بلاد مصر. وكانت مجمل أجوبته تصبّ في التنويه بكفاءة الخيّالة وشجاعة فرق السلاح في الجيش المملوكي، وتدعوهم كذلك إلى الاستعداد لكلّ المكاره والطوارئ. وطبعاً، كان، وهو يقرأ في عيونهم مخاوف أسرهم وأقاربهم، يكدّ في إخفاء شعوره بتفوّق تيمور على الناصر فرج وأعوانه، لا من حيث العتاد الكثير والعدد الغزير، بل من حيث الدهاء العسكري والعصبيّة المتأجّجة. قناعته، منذ موت برقوق، أنّ الحرارة الغريزية في البدن المملوكي آخذة في الانكماش والهبوط، لكنّه ارتأى أن الإفصاح عنها في هذا المقام والآن أمر مكروه لا طائل تحته.

ذات مرّة، عند متمّ الأسبوع الأوّل من الإقامة، والعلاّمة في صحن الجامع الأموي يجلس متأملا، كدأبه أثناء زيارته الخاطفة الأولى لدمشق بصحبة فرج الناهض إلى الثائر تنم، إذا ببعض الجالسين بجواره يسألونه إن كان موطّدا العزم على الهروب من المدينة في حال تعرّضها

مما تعرضت له حلب وحماة على أيدي المغول من نهب فادح وفتك ذريع، فأجابهم بأن القضاة المتقين كلهم جزء من جسم الأهالي، وأنهم معيهم دائما في السراء والضراء. وظل كل يوم يتلقى كلاما كثيرا من المصلين والمجاورين. ويناظر فيه قدر المستطاع، مستلهما بوادر البشاشة والإقبال من مسجد عزيز تطيب له الصلاة فيه، وخصوصا في محراب الصحابة حيث يؤم أهل المالكية، وحيث يشارك عصر كل يوم في القراءة الكوثرية مع أصوات عذبة كأنها ملائكية.

في بدء الأسبوع الموالي قصد عبد الرحمن سوق الوراقين بصحبة غلام عينه يشبك في خدمته. فاقتنى ما يحتاجه من كاغد ومداد وأقلام. ثم بحث عند الكتبيين. قريبا من باب جيرون. عن مخطوطات في تاريخ الروم واليهود والفرس. والشعوب غير العربية، التي كان يستقي زبدة أخبارها من ابن جرير الطبري. لكنه لم يعثر على ما يشفي غليل تقصياته. فتوجه إلى خزانات المدينة العتيقة حيث انكب على كتب في الموضوع كان قد وسمها خلال زيارته الأولى المذكورة. وبعد ساعات من الانكباب. لاحظ أن تشتت ذهنه بسبب جو الحرب المهيمن لا يسعفه في أخذ الكتب بقوة التركيز على مضامينها ودقائقها. عندئذ كلف نساخاً بنقل ما قدر عليه حتى يحمله معه يوم العودة.

في صباح يوم الثلاثاء من الأسبوع الثاني. ذهب عبد الرحمن يرافقه غلامه إلى مزار بين باب الجابية والباب الصغير، فترحم على الموتى، مخصصا مزيداً من الوقوف على من استطاع قراءة شاهداتهم، منهم بلال وكعب الأحبار وأم حبيبة وأخوها معاوية بن أبي سفيان. وحين هم بالإياب اعترض طريقه بين المقابر عجوز عار إلا من مئزر، كز الوجه

أعبره. أملص الرأس. أشعث اللحية. عديم الأسنان. ناتئ العظام كأنه خرج من قبر، فخاطبه قائلا:

ترحمت عليهم جميعا إلا علي أنا أويس القرني. اتبعني يا سيدي أدلك على قبري.

تهجم الغلام على العجوز محاولا طرده. لكنه فقد اتزانه وسقط على الأرض كأنه أصيب بهزة فادحة، وحين نفض العجوز يديه ومسح صدره. سأله عبد الرحمن عن اسمه وسبب اعتصامه بالمقابر، فأجاب:

- وقح هذا الشاب! يريد الاعتداء علي وجسمي أضعف من إيمانه. لم يعد في قلوب فتيان هذا الزمان حنان على المرضى المسنين مثلي.. اسمي كما ذكرته يا سيدي، ألا تعرفه؟ عشت في زمن النبي عليه السلام. ولم أره البتة والوعثاء! - هو المحيط بي. والقريب مني. هذه غصتي التي مت بها، ثم بعثت تحت شدتها في هذه الدار، محكوما علي بأن أكون آخر الموتى.

- وما شغلك يا ولي الله؟

- أحرس القبور من العابثين والدارسين والبوالين والطامعين في الأرض.

- وما طلبك يا ولي الله؟

- أن تترحم على قبري وتسلم على سيد الخلق يوم تلقاه.

لم يجد عبد الرحمن بداً من اتباع الغريب إلى دهليز بظاهر المقبرة، حيث ادعى أن قبره هناك بغار لا يسلكه إلا الضامر الخفيف المهزول،

الذي طال جوعه مئات السنين، ثم ودع واختفى في الغار تاركا شاهديه في حالة حيرة وذهول. واستفحلت حالتهما لَمَا شاهدا الرجل نفسه متربعا على رأس نخلة سامقة بباب المقبرة، وهو يبكي ويصيح: «أرى الجامع نسرا مكسَر الجناح! أرى قبته مكفهرة ذاهلة! من يعد لدمشق مآتمها الأخرى؟».

حين عاد عبد الرحمن إلى منزله، وجد في انتظاره يشبك وقاضي القضاة برهان الدين بن مفلح الحنبلي، فرحّب بهما أيما ترحيب، وأخبرهما بقصة عجوز المقبرة، فقال يشبك:

- أمثال ذلك المجنون في كلّ المزارات وحتى في البساتين، فلا تأبه لهم. أمَا القصة الجادَة التي أريد رأيك فيها، فهي في طلب الجند بالترخيص لهم في شرب الخمر، رفعاً للملل من قلَة الحركة وفراق الأسر. قاضي العسكر استجاب لذلك بدعوى المصلحة الوقتية قائلاً: «أن تطيش عقولهم أحياناً خير من أن يعصوا أو يشتطوا في مطالب العطاء والأزودة»، والتزم الشافعيّ الحياد متظاهراً بالمرض والعياء، وتطاوع الحنفي وترفق متعلّلاً بأحكام الضرورة ومنافع الفقاع. أمَا هذا الحنبلي فقد حرَم وتشدَد، بل ذهب إلى حدَ الإفتاء باقتلاع الكروم وإتلافها.

كان الحنبلي ابن مفلح رجلاً في الأربعين من عمره، كثيف اللحية أسودها، صبيح الوجه والنظرات. اجتمع إليه عبد الرحمن في القاهرة، فوجده حسن الملتقى، غزير العلم في مذهبه، واسع الاطّلاع في آداب الدنيا والدين، قال:

- يا يشبك، أقول لك أمام عالمنا الفذ ولي الدين ابن خلدون: إن كان التشدّد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا فأنعم به وأكرم! الخمر، نصّ الله في تحريمها محكم لا غبار عليه، ونبيّنا عليه أزكى الصلوات قال: «الخمر أمّ الفواحش وأكبر الكبائر، ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمّه وعمّته وخالته». رواه الخطيب عن أنس ابن مالك. أليس كذلك يا ولي الدّين؟

- بلى يا برهان الدّين.

- أمّا قولي بإزالة غرس الكروم، فمن باب اجتثاث الشرّ من أصله، قبّح الله الخمر وشاربها وصانعها والمتاجر فيها. وأمّا المحتجّ بكون اليهود والنصارى القاطنين بيننا تبيح لهم شريعتهم معاقرة الخمر، فهذا شأنهم في بيوتاتهم دون الحقول والمحلاّت العمومية في دار الإسلام، أليس الحقّ ما أقول يا وليّ الدين؟

- بلى يا برهان الدّين.

شعر يشبك بالتوافق بين مخاطبيه، فاستهجن كل لجّ في السؤال، وأطرق مفكّراً حتى بادر عبد الرحمن إلى تنبيهه:

- تسألني يا يشبك رأيي بصريح المضمون والعبارة. لو تذكّرتَ أنّي عُزلتُ عن القضاء بدعوى التشدّد في الحكم والمعاقبة لتوقّعت فتواي من تلقاء نفسك. أما رخص بعض الفقهاء للجند بالسكر بدعوى المصلحة الوقتية، فهي باطلة شرعاً من جهة الأثر وبما قد يقاس عليها من رخص بالزنا والربا وكل الفواحش الأخرى؛ وهي باطلة أيضاً من جهة العقل وتأييده للوعي واليقظة ضد السكر والسهو.

لاسيما في مواقف التعبئة والحرب. أليس هذا عين الصواب يا برهان الدين؟

– بلى يا وليّ الدين.

– قال تعالى ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾، والجهاد عندي ضرب من الصلاة. وقال ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾، فحاشا للّه أن يكون هذا بالعربدة وإتلاف الرؤوس في دنان أمّ الخبائث. إنّي أعلم أنّ قاضي العسكر وأتابكة السلاح يستخفّون بفقهاء الخير والموعظة الحسنة. لكن، باللّه عليك يا بِشْبك، قل ماذا فعلوا وأنجزوا ضدّ جيوش التتر القابضين على دمشق من جبل الشيخ والغرب كلّه؟ قل إن كانت خمورهم نفعتهم بشيء في المهاوشة والمناوشة أو في تمهيد النصر؟

شعر يشبك بنوع من الحرج، فقال وكأنّه يدافع عن نفسه:

– تعلم يا وليَّ الدين أجوبتي بما تعرفه عنّي. تعلم أنّي لا أدير الحرب بقدر ما أدير النصح والمشورة للسلطان، وأحاول التوفيق بين الأتابكة والأمراء المتطاحنين. وما قدرت عليه فعلته: كنت مع قلّة من هؤلاء وراء تقرير حفر الخنادق في كل مداخل دمشق الواطئة، كنت معهم وراء الدفع بالسلطان إلى أمر بعض فصائل خيالتنا بمهاجمة المغول حول مواقع بالغة الخطورة. وفعلت أشياء أخرى، ولا فخر. لكن المشغّبين عليَّ أمام فرج كُثر. توفقت في الإتيان بجلّ رجال الدولة إلى هذه المدينة حتى لا يخلو لهم وجه التآمر في مصر، وها هم اليوم يثأرون منّي بتأليب السلطان عليّ... حرب كهذه، يا وليَّ

الدين، ينقصها رجل كقطز أو بيبرس أو برقوق عليهم الرحمة. أمّا ابن هذا السلطان الغرّ...

انقضّ برهان الدّين على الكلام، كما لو أنه عثر على فرصة ذهبية:

- ليس العيب أن يكون السلطان في الثالثة عشرة من عمره يا يشبك، بل أن يكون على جانب كبير من قلّة الدّين. إنني أعلم أنّه لا يفارق قوارير الخمر في تنقّلاته وإقاماته بين القلعة وساحة قبّة يلبغا والقصر الأبلق. وأعلم أنّه يسكر حتّى تتوقّد صفحات خدوده جمراً قبل أن ينظر في الوضع العسكري وإعطاء الأوامر. فلا غرو أن يطالب الجند بدنان الحرام، إذ النّاس على دين ملوكهم، كما يقال.

ضرب عبد الرحمن يداً بيد وقال متضرّعاً:

- ما أبعدني عن الأخبار في أحياء العسكر وأحوال السلطان! نحن معشر القضاة لنا الحقّ في معرفة الطوارئ والماجريات. وإلاّ فكيف لنا أن نفتي وننصح يا يشبك؟

- سكرات الناصر فرج وحاشية ندمانه لم تعد خافية على أحد، يا وليّ الدين. سكراته المتّصلة، كأنّي به يهدئ بها خوفاً مريعاً على حياته من الموت قتلاً، إمّا على أيدي المغول، وإمّا بسلاح الأمراء المتربّصين به الدوائر. وإنّي أخوف ما أكون من هؤلاء ومن سماسرة الفتن المتسلّلين من صفوفنا هنا في دمشق إلى مراكز القاهرة. والراجح عندي أنّ السلطان سيعود إلى عاصمته إن رأى أن انسحابهم يزداد ويقوى.

- ولماذا لا يمنع فرج رجوع الأمراء إلى مصر؟

إنه الدور المفرغ: أمراء يقنعون السلطان بأن المؤامرة تحاك ضده في قاعدة ملكه، فيرخص لهم بالذهاب، فيصبحون ثمة هم رؤوس التحريض والفتنة.

أحسَ عبد الرحمن لأوّل مرّة، من نبرة الصدق في صوت يشبك، أنّ تيمور سيكون المنتصر في حربه ضد المماليك، سواء عليه خاضها أم لم يخضها، فسأل عن أنباء المغولي ومستجدّاته. قال يشبك:

- أخبار المغولي لا يصلنا أصدقها إلاّ بالمناوشات والصدامات الخاطفة. من هذا الباب، جيشه لا يفوق جيشنا عتاداً وعدداً، ما خلا انفراده بفرقة الفيلة ورماة المجانيق. أمّا منحول تلك الأخبار فيبثّها الجواسيس بين صفوفنا، ومنها مثلاً أنّ تيمور يستعدّ لإغراق دمشق تحت وابل من الكور البارودي المحرق يرميه بمجانيق بعيدة المدى لا يتوفّر عليها إلاّ هو. والغريب أنّ أولئك الجواسيس، حين يقبض عليهم رجالي، يستميتون في أقوالهم حتى تحت التعذيب والتهديد بالقتل. أما جواسيسنا نحن، وهم عشرون، فلم يعد منهم سوى ثلاثة، مقطوعي الألسنة والأيدي، مفقوئي العيون. وبعدهم لم يقبل أيّ مملوك خدمة التجسّس ولو تحت عباءة الراهب أو المتصوّف. ومن أردنا إفادته بالقوّة هدّد بالخيانة أو بقتل نفسه قبل أن تمزّقه أفيال تيمور.

كان برهان الدين ابن مفلح يتتبع كلام يشبك بكثير من الإنصات والاهتمام، حتى إذا لاحظ سكوته تجرد للحديث فقال:

- كلامك يا يشبك يجعلني أرى أنّ الطوق المغولي يضيق علينا. كنت سأعد لفصائل المماليك خطباً ملتهبة في تفضيل التوثب على

التثاؤب، والجهاد على التقاعس. خطباً تنوّرها مشاعل الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة المحمّسة الدافعة. لكن هيهات أن ينفع الكلام الآن وقد نخر الفساد العادات وانحطّت المعنويات إلى أسفل الدركات.

– يبقى على العلماء أن يعلّموا النّاس الأمل رغم كلّ شيء، يا صديقي...

– ويبقى على الأتابكة والأجناد أن يفوا بأيمان الدفاع عن النّاس بالنفس والنفيس. لا خير في جيش يستبدّ به الخوف والتخاذل. لا خير في قوّاد يجهلون فنون حرب الإشاعات والتمويهات. «الحرب خدعة»، قالها سيّد الأنام، ومارسها تيمور على الدول والقُوّاد، فكان له فيها حسّ الابتكار والمبادأة، وكان له فيها باع وأيّ باع! المعوّل عليك يا يشبك وعلى أندادك في قلب التيّار وتصحيح المسار، وإلاّ فالويل لدمشق والصالحية والجامع العظيم من أهوال التتر. دماء الأهالي العزّل، لا قدّر اللّه، سيحمّر بها نهر بردى والأنهار الأخرى. مدينتنا سيحلّ بها ما حلّ بحلب وغيرها من غصب ودمار. وقد أعذر من أنذر.

نهض يشبك، وعانق مخاطبيه، وردّد قبل أن ينصرف:

– انتظار الفرج من اللّه عبادة، عيني على أقباي وأمراء السلاح. لم نفقد كلّ شيء، لم نفقد بعد كلّ شيء.

بقي عبد الرحمن وبرهان الدّين وجهاً لوجه، كل منهما يشعر بانجذاب قويّ نحو الآخر. تعاطف خالص نشأ بينهما جعلهما

يتواضعان على مداومة المعاشرة. تداركا خصاص فرص اللقاء بينهما من قبل. صلّيا الظهر معاً وجلسا يتغدّيان ويتحادثان، فعرف العلاّمة عن رفيقه الحنبلي أنّه متزوّج بامرأتين وأبٌ لطفلين، واندهش لكونه مطلعاً على *المقدمة* وفصول كثيرة من كتاب *العبر*، وكذلك لإتقانه الفارسية والتركية وحتى اليونانية. وبلغ عجبه منتهاه حين سمعه يتكلّم في فقه المذاهب وأشعار العرب وسير الملوك وأخبار الأمم، وكأنّه يتجوّل بين أزهار رياض لا عوائق بينهما ولا موانع. وكان الرجل يطرق مواضيعه ويتجاذب فيها أطراف الحديث مع عبد الرحمن بكثير من الفطنة والكياسة والذوق، مظهراً من حين لآخر تواضعاً منقطع النظير، مقابلاً كلمات الإعجاب والثناء من محاوره بجمل من صنف: «ما علمني اللّه إيّاه نقطة من فيض علمك يا وليّ الدّين».

بعد قضاء لحظات في قيلولة هادئة قصد الرجلان المسجد الأموي، فصلّيا فيه العصر، ثم ذهبا في زيارة لبعض المآثر والمشاهد، كان للحنبلي قصب السبق في الإرشاد إليها والتعريف بها، مسمّياً دمشق تارة مدينة الإمامين أحمد ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وتارة أخرى مدينة الأبواب السبعة أو الأنهار السبعة. وهكذا صاحبه فيما تبقّى من اليوم إلى مقبرة الصوفية حيث مدفن ذينك الإمامين، وكذلك إلى بعض الربط والزوايا والأسواق في دمشق القديمة والصالحية. وكان تنقّلهما إما على بغلتيهما وإما مشياً على الأقدام.

في اليوم التالي اتّفق الرجلان على ارتياد المنازه والحدائق والأنهار، حيث عناصر الطبيعة الأربعة تتآخى وتتناسق لتمتيع الناظر بأوفر

لوحات الحسن وأثرى صور البهاء. لوحات كان برهان الدّين ينعتها متأثّراً ويشرحها. وهكذا، انطلاقاً من سفح القلعة، ومروراً على ضفَتي بردى، كان اللقاء مع غوطة دمشق العجيبة، ومع الربوة، ذات القرار المعين، التي بها مقام مهد عيسى عليه السلام. ثم كان اللقاء مع قريتي النيرب والمزّة. والحكم المطلق، في هذه الربوع جميعها، للمياه والخضرة، ولما يتولّد عنهما من بساتين متسلسلة متعانقة وميادين ممرجة بالنخيل، تستقبل كلّها أنواعاً شتّى من الطيور المغرّدة أو الذاكرة. وبعد أن اجتازا نهري تورا ويزيد شمالاً اقتربا من جبل قاسيون، مصعد الأنبياء عليهم السلام، فاكتفيا بزيارة مغارة ميلاد إبراهيم الخليل، وعادا إلى سفح الجبل حيث مدينة الصالحية، فزارا بعض مآثرها ومشاهدها، وصلّيا في جامعها، واقتاتا في أحد مطاعمها، ثم قصدا بيتاً عالياً مهجوراً قال برهان الدّين إنه في ملك أخيه المختفي منذ عامين، ودعا رفيقه إلى الاستراحة في منظرته قبل العودة إلى دمشق.

في المنظرة عبر عبد الرحمن عن ابتهاجه وسروره بكل ما رآه، وعن شكره وامتنانه لصاحبه. وسأله عن سرّ صلته الحميمة بالأمكنة والعمائر في عاصمة الشام، فكان جوابه:

– نسيت أن أخبرك يا وليّ الدّين أنّي، كالإمام ابن تيمية طيّب الله ثراه، وليد حرّان، وأني قضيت شبابي كلّه في الصالحية الحنبلية قبل أن انتقل إلى القاهرة. جولتك القصيرة معي أحسبها جولة في ذاكرتي وخلجات كياني. ولولا المغول وحالة التعبئة لازددت معك تعمّقاً في تقليب دمشق وزيارة كلّ عمالاتها.

- وأخوك هذا المختفي؟

- روايات راجت في شأنه، لعلَّ أقربها إلى الصواب، والله أعلم، تلك التي تقول إنه مقيم في غرناطة، يدعو إلى مجاهدة النصارى وإنقاذ الأندلس.

- نعْمَ المهمّة إن صحت! سأستخبر أصدقائي بغرناطة وأوافيك بردودهم إن شاء الله.

- واسألهم أيضاً عن جديد أحوال ما تبقَّى من أرض الأندلس، جُرْحنا الآخر.

- جرحنا ذاك، يا أخي، ما زال دمه نازفا، ولا أحد من ملوك غرناطة أو المغرب الضعاف يستطيع تضميده وبرءه.

- لقد علمت من تاريخك الزاخر المفيد، يا ولي الدين، أن هزيمة الموحدين في معركة العقاب لتسع وستمائة أيام الناصر قد أنذرت بنهاية أي عودة قوية مظفرة للمغاربة إلى الأندلس الآفلة.

- تلك هزيمة كانت جراء الرد الثأري على انتصار المسلمين في معركة حطين المجيدة قبل عقدين ونيف. أما حلم ارتجاع الأندلس تحت لواء الإسلام، يا أخي، فلعلي به تلقى صدمته القاهرة في هزيمة جيش أبي الحسن المريني بطريفة في أربعين وسبعمائة على يدي الملكين المتحدين، ألفنس القشتالي وألفنس البرتغالي. وهذه النكبة المفجعة حولت جهاد المرينيين إلى مجرد غزوات وغارات خاطفة قصيرة، أضحى بنو الأحمر أنفسهم يعملون على إعاقتها وصدها، ولو بالتحالف مع جيوش العدو.

بنو الأحمر، كغيرهم من ملوك الطوائف الآخرين. هؤلاء المفرقة قلوبهم وعقولهم، يصيب قول ابن أبي شرف فيهم: «ألقاب مملكة في غير موضعها / كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد».

- منذ أربعة عقود خلت، يا أخي، استقبلني محمد الخامس أمير غرناطة في قصر الحمراء، فلم يقصر هو ووزيره الألمعي لسان الدين ابن الخطيب في إكرامي والاحتفاء بي، وبعد ذلك كلفني بسفارة إلى بطرة بن ألفنس بإشبيلية، مدينة سلفي بالأندلس، وكان الغرض أن أُظهر ملك قشتالة على معاضدة ملوك المغرب له في حربه ضد عدوه ملك أرغونة. وقبلت بالمهمة مرحبا متحمسا، لا سيما وأن أخوف ما كنت أخافه أن يتحد القشتاليون والأرغونيون بحكم الضرورة وانسجام المصالح، فتصبح في خبر كان الأندلس وما تبقي للمسلمين منها... وأثناء إقامتي عند بطره هذا، المسمى بين قومه القاسي وعندنا الطاغية، عاينت عن بعد مسجد إشبيلية الذي حوّله النصارى إلى كنيسة، وتجوّلت في حدائق القصر وعلى ضفتي الوادي الكبير، فتملكني شعور حاد أشبه ما يكون بالمالنخوليا والحسرة الشديدة على بلاد آيلة إلى الزوال من حكم المسلمين. وذات مرة، إذ فطن الطاغية إلى شعوري ذاك، وكنت رجعت من زيارة لديار أجدادي، عرض علي بسخاء وإلحاح تمليكي إياها إن أنا رضيت بالإنتظام في سلك حاشيته، فامتنعت عن ذلك واعتذرت، وهمست في نفسي للطاغية الزير، الماجن الخليع، متعبّد الحرب والمال والحلي، أن متاع الدنيا في ظله لا يساوي عندي جناح بعوضة، وأن لا غالب إلا الله.

- لا ريب عندي، يا أخي. أن طاغية هذا الزمان. تيمور المغولي. سيغريك بدوره بالذهاب في ركابه إلى سمرقند مقابل أن يمتعك ويغنيك... وأنا موقن أن ردك عليه سيكون مثل ردك على الطاغية القشتالي.

- لا خوف على الإسلام، يا برهان الدين، من تيمور والمغول لأنهم، كالمماليك وأقوام أخرى كثيرة، اعتنقوه على شاكلتهم ومزاجهم، بل خوفي الأكبر على الإسلام في أرض أندلسٍ من النصارى المتغلبين بالقوة المتعاظمة والعلم المنتقل إليهم. وهؤلاء إن تم لهم النصر وأحكموا قبضتهم كلها، لن يتوانوا في تقتيل المسلمين وتخييرهم بين الهروب الجماعي أو التَنصُّر، بل وفي مزاحمتهم على سواحل المغرب وثغوره... الظلمات العاتية حول جناح الإسلام الغربي آخذة في التراكم والتناسل، فاللهم عفوك ولطفك يا رب !

ردّد الرجلان «آمين» ثم أغرقا النظر في دمشق وغوطتها قبالتهما، وفي الظلال والأنوار المتناوبة على ترات الأغراس والغلاّت والدوحات المتألّقة. قال برهان الدين بصوت مكسور متألّم:

- دمشق هذه، كما تعلم يا أخي، يرجع بناء سورها الشاهق إلى ما بعيد الطوفان. وسواء صحّ هذا الكلام وغيره أم لا، فإنّي أشبه هذه المدينة بكتاب عريق من أنفس كتب الدنيا، كتاب خطّ عليه نوح وجيرون والعازر غلام إبراهيم الخليل وذو القرنين وملوك الروم والفاتحون المسلمون وبنو أمية وغيرهم. هذا الكتاب هل يعقل أن يتركه المماليك عرضة للعبث والبتر والتحريق على أيدي المغول التّتر؟ إن فرّ فرج وجيشه، فدمشق ستصبح أمانة في أعناق العلماء.

لا بد من حفظها والذود عن حماها بسلاح المفاوضة مع الغزاة. أتميل إلى هذا الرأي يا وليَّ الدّين؟

شعر المسؤول بعبء الاستفسار، ففكّر لحظة ثم قال:

- إذا انسحب السلطان وجيشه، لا أدري هل يذهب أهل الحلّ والعقد في ركابه كما أتوا، أم يبقون في عضد السكّان.

احمرّت عينا الحنبلي وتطايرت منهما شرارة التوعّد والحزم، قال:

- ليس بمقدوري الوقوف ضدّ جيش هارب متقهقر، لكن، والذي نفسي بيده لن أترك عالماً ولا طبيباً ولا غنياً يفرّ معه ولو كلّفني ذلك حياتي. وحدك يا وليَّ الدين يجوز لك الانسحاب، لأنك معزول عن القضاء، لكنّي أعلم أنّ مناقبك الجمّة ستجعلك تختار البقاء إلى جانب النّاس.

- صدقت يا برهان الدّين. إذا كانت المفاوضة مع تيمور لا مناص منها، فعلى العلماء أن يتحمّلوا إدارتها ويحسنوا حتى يجنّبوا البلاد والعباد الرزايا والويلات.

تهادت بين نظرات الرجلين موجة تواطؤ وتفاهم بيّنة، فقاما وتعانقا ثم ركبا بغلتيهما للرجوع إلى دمشق القديمة.

* *

على عتبة الأسبوع الثالث من الإقامة الدمشقية، استيقظ عبد الرحمن مبكّراً والتعطّش إلى الأخبار يستبدّ بذهنه استبداداً. من جهة أسرته الصغيرة لم يأته البريد بردّ أمّ البتول على رسالته التي

أرسلها إليها منذ أسبوعين، يطمئنها فيها على حاله ويعدها بالرجوع القريب إلى مصر. ومن جهة الموقف العسكري، لا أنباء جديدة أتت لتميّز ذخيرته وتقويها. وقد أوحى له تعطّشه ذاك بارتجال درس قصير أمام طلبته في الخبر وحاجة النفس والتاريخ إليه. وحين ناظرهم، كانت أمثلتهم تروي كلّها تفاقم الهموم والغموم بين الأهالي أمام حرب الاستنزاف الدائرة حولهم، كما تروي خبر التعسّف الجبائي المفروض على التجار والصناع، وخبر شراء أصحاب اليسر والجاه رخص النزوح إلى مصر، أو إلى الديار المقدّسة، أو إلى أماكن نائية آمنة. وسألوا مدرّسهم عن رأيه وحكمه في أخبارهم، فاستمهلهم ريثما يُجري عليها التمحيص والتدقيق، عملاً بما ورد في درسه. وختم الحصّة ببيان فضائل الشهادة الحيّة والعيان في رواية حادثات الزمان.

قبيل وصول الشمس إلى كبد السماء، قصد العلاّمة خيمة البريد بساحة قبّة يلبغا، باحثاً عن رسالة إليه، فلم يجد شيئاً. وتجوّل بين النَاس في الأحياء والأسواق متفرّساً في وجوههم، فألفاها أقنط من وجهه وأعبس. ونظر إلى أشيائهم، فوجد قماماتهم تعلو على بضائعهم وتطغى عليها. وكان بعض الأشخاص يمرّون فرادى أو زرافات مردّدين السب المبرح في حقّ الغشّاشين والمحتكرين. كما كانت جماعات من الفتيان تطوف بالأزقّة مردّدة: «اللّه يا رحمن انصر مولانا السلطان».

وفيما هو يجري العيان على الكائنات والأحوال، اعترض طريقه رجلان بزيّ الصوفيّة، فخاطبه أحدهما وراح الآخر يبصّ في كلّ

اتجاه: «ما بقي في المدينة يا مولاي إلاّ أهل العجز والفاقة. وأنت من بطانة العلم أو الجاه. مقابل ألفي دينار ننقلك بين يدي تيمور محبّ العلماء والمترفين، أو نرحّلك إلى ربع سليم». فطن عبد الرحمن إلى احتمال كون الرجلين جاسوسين، فحدجهما بنظرة شزراء، وتابع طريقه صوب الجامع الأموي بين جموع من المشرّدين والمتسوّلين.

كان النّاس في كلّ جنبات الجامع يقرأون اللطيف، مستنزلين الفرج والرحمة. شارك عبد الرحمن في القراءة بعد أن توضّأ وصلّى، ثم قصد محراب الصحابة حيث الإمامة للمالكية، فوجد المؤمنين متهيّئين لصلاة الجنازة أمام نعش قيل له إنه لقاضي القضاة بالشام برهان الدين الشاذلي المالكي، المستشهد في مجاولة مملوكية مغولية. وما إن أدّى الصلاة معهم حتى جلس في ركن هادئ يستجلب الراحة لقدميه وبدنه. وهنا عبرت خاطره أفكار شتّى متواترة، وراودته الرغبة في لقاء صديقيه يشبك وابن مفلح من أجل التواصل وكشف الغموض عن الإدراك والنفس.

بمقرّ إقامته في ساحة قبّة يلبغا، استقبل يشبك العلاّمة بحفاوة بالغة وكلمات تشي بتفاؤله وانشراحه، قال:

– تحسّن وضعنا في مواجهة المغول يا ولي الدين. آخر نزال بيننا وبينهم أيقن قُوّاد خيالتنا أن صورة الجيش التيموري الذي لا يقهر خرافة. المعركة انتهت بالأمس بعد أن دامت يومين. جيشنا خاضها بألفي فارس فقط، هناك في واد غرب القبّة ببضعة أميال، فقتلوا منهم وجرحوا وأسروا أعداداً من مقدّمتهم وقلبهم، وأرغموا ميمنتهم وميسرتهم على التقهقر والفرار. في صفوفنا فقدنا مئة

محارب تقريبا، كما استشهد ممّن تعرفه من القضاة الشاميين برهان الدّين الشاذلي المالكي، وجرح منهم شرف الدّين عيسى المالكي.

سكت يشبك برهة: كأنّه أدرك في نظرات مخاطبه استخفافاً بانتصار محدود في حلقة من حرب سجال، فأردف موضّحاً:

«اعلم يا صديقي أنّ معركة الحسم لم نخضها بعد، والنصر الحقّ لم نحقّقه حتى اليوم. لكنّي مضطرّ إلى التشبّث بالنور ولو كان بصيصاً. عساكرنا محتاجون إلى ما يقوي شكائمهم ويُعْلي هاماتهم. التحميس يا وليّ الدّين، التحميس ولو اقتضى الأمر النفخ في الإنجاز والمكسب.

- هل من خبر مفرح آخر؟

- لجوء سلطان حسين إلى معسكرنا بدعوى انشقاقه عن خاله تيمور، هل أحسبه نبأً سارًا؟ عيني على الرجل إلى أن يظهر صدقه أو كذبه.

- لولا تعبي، يا يشبك، لطلبت مقابلة هذا السلطان، وكذلك بعض الأسرى حتى أستخبرهم عن تيمور ونياته.

- كلّهم يلهجون بالأقوال نفسها: الطاغية في موقف يصعب يوماً بعد يوم، وتفكيره في طيّ الخيام والعود إلى مغازيه شمالاً أو إلى سمرقند هو الأقوى.

- لكن هب أنّ هذه الرواية من خدع تيمور الكثيرة؟

- معرفة الحقيقة في بعض المواقف، يا وليّ الدين، من رابع

المستحيلات. فهل نعذب الأسرى حتى يخرجوا عن صمتهم، ثم نعذّبهم حتى ننطقهم بمحض ما نشاء.

- ليس هذا قصدي، ولكني أحَذر من الاستنامة إلى الأخبار المريبة المموّهة.

- صدقت يا صاحبي، صدقت. بعض الأمراء نادوا بالرجوع إلى مصر فور سماعهم باستعداد تيمور للرحيل، فبتّ مع بعض الأتابكة المخلصين أذكر السلطان والمتلهّفين إلى العودة بمكر الغازي وباعه في الحيلة والغدر.

- عبء السنين الضاغط على كتفي، لولاه يا صديقي لحضرت المعارك وقست معطياتها بعيني.

- نحن نحتاجك، أطال الله عمرك، في جناح العلم والنصيحة، لا في ساحة الوغى والدم المراق والسهام الطائشة.

- كلامك جائز من زاوية عيائي وتقدّمي في العمر. أحسّ، يا يشبك، وكأنّي أطفئ شموع فضولي الأخيرة، وأقترب من طور الزهد في سماع الأخبار، مهما كانت هامّة أو خطيرة. إنه صوت الحياة الأبقى يناديني.

- ما عهدتك ميّالاً إلى الاكتئاب يا وليّ الدّين! كيف حال الستّ والأهل؟

- لا خبر من جهتها ولا جواب عن رسالتي إليها.

- سلّمني الآن كتابك حتى أرسله اليوم ببريد حمام الزاجل. وإن شئت أن تعود إلى مصر أو أن أطلب استقدام أهلك فلك ما تشاء.

- جوزيت خيراً يا أخي . . . وبرهان الدّين ابن مفلح ، أين هو ؟

- هذا الرجل يخوض الجهاد على طريقته . إنّه كثير التنقّل بين المدن الشاميّة من أجل تكوين ما يسمّيه فرق الدفاع عن الأرض والنفس واستقدامها إلى دمشق . إنّه يخطّط ويعمل كما لو أنّ الجيش المصري راحل عن الشام لا محالة ، وأنّ المواجهة الأخيرة ستكون بين المغولي والأهالي .

- لو كنت في سنّ ذلك الرجل الغيور لفعلت مثله .

طلب عبد الرحمن ورقاً ، فحرّر عليه رسالته إلى زوجته وختمها ، ثم قام وسلّمها إلى يشبك ، الذي بادله العناق وأوصاه بالانتقال إلى القلعة إن وصلته بطاقة في الأمر .

* *

قضى العلاّمة ما تبقّى من أيّام جمادى الأولى متلقّياً علامات لا تبشّر بأيّ خير . فالطلبة ما عادوا يقبلون على الدروس ، والنّاس ، كالجرذان في السراديب ، تالفون دائخون ، معتصمون أيما اعتصام بالمساجد والخوانق والزوايا ؛ أمّا الجنود فمنغمسون في حركات مطّردة غير عادية ، يراقبون أبواب دمشق ، ويشرفون على الطريق المؤدّي إلى القلعة ، ويصولون ويجولون داخل الأحياء والأزقّة .

الضيق في الطقس والخواطر بالغ أشدّه ، والقيظ ضارب أطنابه ، والشمس قضبان نحاس حامية يمتدّ سعيرها إلى الهزيع الأوّل من الليل . الهواء ، أو ما تبقّى منه ، يسري وخيماً ممزوجاً بعفونة الجيف في

ظاهر المدينة. حتى صفاء أديم السماء يلطّخه سواد الغربان الحائمة، ويعتريه لبس واهتزاز غريب. فكيف- والجوّ يصعب تحمّله واستنشاقه- كيف لا تفور من الأمزجة أبخرة رديئة فاسدة معدية.

هل الإعصار المغولي وشيك الوقوع؟

ما إن طاف السؤال بذهن عبد الرحمن حتى جاءه البريد برسالة، فانتفض وانتعش ظنّاً منه أنّها من زوجته أمّ البتول. لكنّه حين فتحها تكشّف له أنّها من صديقه ابن مفلح، فجلس يقرأها متمعّناً في كلماتها وجملها، فإذا هي تحمل الجواب الواضح عن السؤال الفادح: هل الإعصار المغولي وشيك الوقوع؟

قال ابن مفلح بعد البسملة والتسليم:

«تالله ما دهاني عنك، أيّها العزيز، إلاّ السعي بين المدن الشاميّة في سبيل تنظيم فرق الدفاع عن الأرض والنفس. وإنّي ما فعلت هذا إلاّ بعد أن حصل لي بالدليل الملموس نزوع الجيش المصري إلى نفض يديه من دمشق وترك أهاليها يواجهون الجحافل المغوليّة وحدهم، من دون عدّة ولا عتاد. في كلّ يوم يمرّ نسمع بفرار هذا الأمير أو ذاك الأتابك. وعندي ما يشبه اليقين أنّ السلطان فرج سيلحق قريباً بالهاربين المنسحبين خوفاً على نفسه من تيمور، ودرءاً لشرور المتآمرين عليه في مصر.

«مفاوضة الطاغية باتت إذن لا مناص منها. وحتى الإمام ابن تيمية، قدّس الله روحه، لو عاش ظرفنا العصيب هذا، لأباح التفاوض مع العدوّ التتريّ، كبحاً لجماح طغيانه وحفظاً لدماء المسلمين. التقيّة في

الأحوال القصوى سلاح المؤمن الأعزل الضعيف. ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

«المفاوضة، أراها بين علمائنا خاصّة وبين تيمور وجهاً لوجه. هدفنا تعهّد الغازي بتجنيب النّاس كلّ أذى مقابل تسليمه مفاتيح المدينة والقلعة.

«لكن قبل إبرام أيّ اتّفاق سيصرّ تيمور على مقابلتنا نحن معشر العلماء والقضاة، تماماً كما فعل منذ شهرين في حلب ما بين هزم جيشها وتخريب عمائرها. كلّ الشهادات التي أخذتها من المعطوبين والناجين في هذه المدينة تعبّر أكثر من غيرها عن وحشية التتر وميل زعيمهم إلى المكر والخديعة.

«على أي حال، لا بدّ من تمثّل الدرس الحلبي. ففي مناظرة تيمور مع علماء المدينة المهزومة سألهم، كما رُوي لي، سؤالاً محيّراً عويصاً. قال: أيّهم الشهداء، قتلانا أم قتلاكم؟ فانعقدت ألسنة الحضور وتفطّنوا إلى تمييز الجواب النافع الذي دونه الهلك المحقّق، فتجرّد للكلام الحافظ الخوارزمي مفتي حلب، وأنقذ الموقف بأن زعم أن السؤال نفسه طرحه أعرابي على النبيّ فكان جوابه عليه السلام: من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا ثم قُتل فهو الشهيد... وعليك، يا ولي الدين، أن تأتي بمثل هذا الحديث الموضوع حتى تسمع من تيمور خوب خوب، أي الصدق أساس النجاة، فتجنّب نفسك سوء العاقبة وتفتح أمامنا باب الرجاء.

«إن المعوّل عليك أنت يا أخي في إدارة المناظرة القادمة مع الطاغية، لأنّك في العلم حجّة، وفي السياسة داهية. فاستعدَ منذ الآن لكلّ الأسئلة الفخاخ، وانظر في التاريخ إلى السوابق والحالات الشبيهة.

«أمّا أنا فإنّي أعدّ العدّة لكل الطوارئ، بما فيها إخلال تيمور بالعهود والمواثيق، فأشرف مع بعض الإخوة في الدين على تدريب فرق الفتيان على حرب الأزقّة. والله المستعان ولا قاهر إلاّ هو».

كان وقع رسالة ابن مفلح على عبد الرحمن نفسه كوقع العبوة الموقظة. على ضوئها ارتأى أن وقت التحقيق قد حان، وكان فاتح جمادى الأخرى، فقام وركب بغلته وقصد بعض الأحياء القريبة والقلعة. كان لون الغبرة هو الغالب على كلّ شيء: الحرّ والمسالك والدواب والإنسان. أمّا الغبار المتكاثر فكأنّه آت من عجاج هزّات حامية الوطيس غرب المدينة. وأمّا الهواء فلا هواء إلاّ ما رطب منه ووخم، كأنّما جيش المغول المسيطر على الجَبل الثلجي يحبس الريح المطهّرة النقيّة عن القلعة والمدينة.

كانت وجوه النّاس وحركاتهم تشي بأنّهم ما اعتصموا خلف أسوار المدينة إلاّ من فرط عجزهم عن الفرار بأرواحهم بعيداً، وخوفهم عليها من طعنات البطش والسفك. لذا كانوا يبدون كالكائنات المضطهدة، يجرّبون آخر المربّعات للإفلات والنجاة. مدّخرين الماء والأقوات، تاركين القمامات المتراكمة في دروبهم غذاءً للحشرات والحيوانات الضالة.

حين وقف عبد الرحمن على أحد أبواب القلعة، ويسمى الباب الصغير، لم يلقَ مع الحرّاس أيّ صعوبة لولوجها، بل إنّ كبيرهم اقتاده

بالترحاب إلى ديوان نائبها، ويدعى أزدار، فتلقى منه عبارة الحفاوة والتقدير، وأدرك بعد حوار قصير معه أنّه عازم على الدفاع عن القلعة ضد المغول حتى وإن سلمت لهم دمشق، واستنتج أنّ الرجل متعصّب لموقفه، إمّا وفاءً لمولاه السلطان فرج، وإمّا لانتفاعه من حمايته للوافدين على القلعة، وهم بالتعيين من أهل الثراء والجاه. قال النائب قبل أن يودّع ضيفه ويضع في خدمته مملوكاً: «أبواب القلعة لن تفتح إلاّ صباح غد، فاختر خيمة تبيت فيها على الرحب والسعة. أمنيتي أن تكون على رأيي يوم الحسم».

اكتفى عبد الرحمن بالتسليم على الرجل، ثم ركب بغلته التي أمسك بلجامها المملوك وتقدّمها راجلاً.

في هذه القلعة المنيعة، حيث السيادة للعلوّ والحجر السميك، تقلّ الأمكنة الواطئة، ويظهر كلّ شيء مائلاً وقابلاً للتدحرج والطيش. كانت بكل فضاءاتها تبدو، من كثرة دبيب الحركة والسعي، كخليّة النحل أو الحشرات الكادحة. الدور المبنية قليلة، تعلوها دار حسنة الشكل والموقع، والخيام من كلّ الأحجام تنتشر على نحو عشوائي وتترنّح مقاومة الصّهد وهبوب الغبار.

بعيد منتصف النّهار، كان عبد الرحمن قد استقرّ في خيمة صغيرة وأدّى ما عليه من صلوات، واقتات بما تيسّر قائلاً في نفسه: « في هذا الوقت العصيب، لا مندوحة عن لقيمات الصوفية»، ثم استسلم لراحة لم يستفد منها إلاّ جسده دون ذهنه الملوّث بالهواجس والوساوس من كل جانب. غلب عليه التفكير في أسرته الصغيرة، بقدر ما طغى

عليه استذكار حالات الحصار التي سمع بها أو قرأ عنها. وفي زحمة الخواطر والصور تبدّى له أنّ عودته سالماً إلى أهله مرتبطة بنهاية الحصار المغولي الآخذ في الدنوّ من دمشق. وتلك النهاية، قياساً على تاريخ الحصارات، إما أن تكون باستسلام المدينة المشروط أو القسريّ، وإما بتمكّنها من التفاني في الصمود، إلى أن يتعب المغول ويُحدث الوقت بين صفوفهم شروخاً تحملهم على طيّ خيامهم وتحويل مدّهم. هل يقدر الدمشقيّون على قهر الجوع واجتياز المحن ما ظهر منها وما بطن؟

في غمرة إطلاق العنان لتيه التذكّر والتوقّع، قفزت إلى ذهن المستلقي بين اليقظة والإغفاء معلومة فذّة قرأها في كتاب نسي اسمه عن تاريخ اليونان القديم، مفادها أنّ جيش حلف بيلوبونيز بزعامة سبرتا اضطرّ إلى رفع حصاره عن أثينا في عهد بريكليس، وذلك بسبب خوفه من إصابته بعدوى الطاعون المتفشّي داخل أسوار المدينة المحاصرة. وبعد أن سلّط نظره على هذه المعلومة، لمعت بين عينيه كالضوء فكرة عجيبة: ماذا لو عمل المدافعون عن دمشق على تخويف المغول بنبإ انتشار وباء مزعوم بين أهالي المدينة؟ كرّر المتأمّل سؤاله، حتى إذا أخذته عيناه إلى نوم عارم، هاجت عليه رؤى لم يتبقّ له منها إلاّ طعم عنفها وفداحتها لما أيقظته في آخر الليل أصوات تصرخ قائلة: « قبّة يلبغا تحترق. السلطان وعسكره هربوا». وحين هرع إلى الخارج، كان الرجال يمرّون جماعات أو فرادى وهم يلهجون بالخبر المشؤوم نفسه. قد يتردّد المرء في تصديق نبأ انسحاب المماليك جميعهم، لكن انبعاث

ألسنة النيران وأعمدة الدخان من منازلهم وأحيائهم كانت ترى بالعين المجرّدة من مراقب الأسوار وثقوبها.

جلس عبد الرحمن على حجرة عريضة، يقرأ اللطيف ويفكّر. وحين بزغت أشعَة الشمس الأولى، استقام وقصد مرقباً عالياً، فاستخبر الخفير عمَا يراه خارج الأسوار، فأتاه جوابه: «ليس الخبر كالعيان يا شيخ. اصعد السلّم وقف إلى جنبي حتى تشاهد بنفسك».

على سفح الأسوار من جهة الشمال والغرب، كانت قوافل البغال والحمير ذات المحامل لا تفتر عن الحركة والسعي، وكانت طوابير من الرجال والفتيان تكدَ في حفر الخنادق وملئها بالفضلات وأكياس التبن والحلفاء وكلّ مواد الحرق. أمَا في حدود البصر، فكان الغبار الشديد وركض الخيل، وكانت بقايا النيران تأتي على آخر الخيام، وتسري في الهشيم بين النخيل السامق وعلى بعض ضفاف بردى والأنهار الأخرى.

سأل عبد الرحمن الخفير، وكان شابّاً عملاقاً قويَ البنية:

– هذه الخنادق تحتنا، من أمر بحفرها؟

– ليس الجيش المصري الذي انسحب كلّه، وليس السلطان فرج الذي يقال إنَه هرب. الآمرون بهذه الخنادق هم ثلَة من الأخوة في الدّين، يزكّيهم أمير هذه القلعة.

– وبرهان الدّين ابن مفلح، هل تعرفه؟

- هل أعرفه! من لا يعرف رئيس حنابلة الصالحية؟ إنه ولا شك بين فتيانه يدرّبهم على القتال ونصب الكمائن. إن نزلت إلى السفوح المحيطة بالقلعة فقد تجده.

شكر عبد الرحمن الرجل وحيّاه، ثم هب لطلب صديقه الذي يستطيع أكثر من غيره إطلاعه على أصدق الأنباء وأوثقها. وما إن تعدّى باب القلعة الغربيَ واختلط بفلول العاملين حتى عثر على ضالّته المنشودة من دون لأي ولا كثرة سؤال. كان الرجل معروفاً عند الجميع كما لو أنّه قائد أو إمام. تعانق الصديقان بشدّة وحرارة، وبادر برهان الدين إلى نعت بعض فرق الشباب المسلّح قائلاً:

- نفعل ما في جهدنا يا وليّ الدين، والبقيّة لها مدبّر حكيم... سر بنا إلى العادلية، فلنا فيها موعد مع أهل الحلّ والعقد.

في أحد بيوت المدرسة المهجورة، جلس الرجلان وجهاً لوجه يستريحان ويستحليان هدوء المكان، ثم صليّا معاً صلاة الصبح، وبعد قضاء وقت في قراءة القرآن والتفكير، قال عبد الرحمن:

- وصلتني رسالتك الأخيرة، وفهمت منها ما أطلب أن تؤكده لي الآن. هل المحنة المغولية لا محيد عنها؟ هل حقّاً انسحب السلطان وجيشه؟

أجاب برهان الدين وعلامات الاستغراب بادية عليه:

- رسالتي إذن وصلتك متأخّرة! ألم يأتك حديث فرار المماليك يا أخي؟ منذ أسبوع وهم يتلحفون ظلام الليل للعودة إلى مصر. معركتهم الأخيرة مع المغول كانت هزيمة نكراء، إذ سرّب تيمور أخباراً

عن تصدّع جيشه وتقهقره، فخرجوا إليه ببعض فصائلهم في واد سهل عيّنه الغازي، وهنا انهالت عليهم فيالقه من كلّ جانب معزّزة برماة الكور وفرق الفيلة.

- ويشبك، أين هو؟

- هذا الرجل الشهم أقنعني بحقيقة التمرّدات في مصر، وشاورني في أمره، فرأيت معه أنّ الأفضل أن يلتحق بالسّلطان حتى يعزّز دولته وينصح بالدفاع عن الشام. أمّا مطالبته بأخذك معه، فقد خالفته فيها، متذرّعاً برغبتك في البقاء مع القضاة قصد مفاوضة تيمور، كما وعدت.

- حسناً فعلت يا أخي، حسناً فعلت. ثم ماذا بعد؟ هرمي لا يمنعني من تلقّي بقية الأخبار.

ابتسم برهان الدين، كأنّه يستمهله في شيء. وبعد مدّة قضّياها في التأمّل والذكر أقبل عليهما جماعة من الفقهاء يتقدّمهم شيخ بخرقة الصوفية، فسلّموا وجالسوا المقيمين. تعرّف عبد الرحمن على جلّ الوافدين، وتظاهر بمعرفة الآخرين. وبينما أخذ قاضي القضاة محمود ابن العزّ الحنفي يتهيّأ لافتتاح المناظرة، بوصفه أكبر الحاضرين، اقتحم المكان نائب القلعة أزدار محاطاً برهطه، فأرغد وأزبد ويده على مقبض سيفه:

- اجتماعكم، يا سادة، غير شرعيّ وغير مقبول من طرف السلطان.

أحسَ برهان الدين ضرورة مواجهة النائب بصوت الحزم والتحدّي، قال:

- إلق ســـلام اللّه أوّلاً على هؤلاء الأكـــابر، وهدّئ من روعك يا أزدار.

- لا سلام على من يبغي تسليم المدينة للطاغوت.

- إن كانت لك أوامر من السلطان فاكشف عن رقاعها، أو أشهد عليها كاتب سرهّ القاضي ناصر الدّين ابن أبي الطيّب الحاضر بيننا. وإن كنت تطلب حماية القلعة فاعتصم بها مع رعيّتك من أهل المال والجاه.

- إذا سلّمتم دمشق، لا قدّر اللّه، عرّضتم قلعتها العتيدة لأعتى المخاطر، وأنت تعلم هذا. وأنتم كلّكم تعلمون أنّ تيمور لا إيمان له ولا أخلاق. قد يعطيكم وعد الأمان اليوم وينكثه متى شاء.

- نعلم هذا، ونعلم أيضاً أنّ المقاومة اليائسة أمام جيش كاسح جرّار ضرب من العبث وجلب المهالك. غاية هؤلاء الأبرار تطويق تيمور بأمر الحدّ من الأضرار، وغايتهم حفظ نفوس الأهالي العزّل. أمّا إن كانت لك غاية أخرى فاسع إليها.

- الاعتصام بالحجارة العالية، يا سادة، هذا ما تبقّى في وسع النسر الكسير الجناح، المطوّق بالوحوش المفترسة. حالنا كحال هذا النسر. لا زاد لنا إلاّ في الصبر على المكاره. الصمود الصمود، ولا شيء غيره حتى يقنط العدوّ منّا فيرفع الحصار ويرحل.

ارتأى عبد الرحمن، بعد تردَد، أن يقول كلمة عساها تخفَف من غضب أزدار وتعزَز رأي برهان الدَين.

- هب، أيَها النائب، أنَ دمشق بعد مقاومة سقطت، لا قدَر اللَه، بين أيدي المغول، وأنَ هؤلاد أخذوا في ضرب القلعة بالمجانيق من مراقب عالية يبنونها، فهل يبقى من سبيل آخر غير التفاوض؟

- فكَرت في أخطر الاحتمالات وأشرسها، لأنَي رجل سلاح وتدبير، فرأيت أنَها كلَها هينة، مادام سلطاننا سيعود إلى جهاد التتر فور أنْ يُخمد نار الفتنة في مصر.

- هذا افتراض ظنَي لا غير. ولو كانت لهؤلاء القضاة ضمانة واحدة في عودة فرج لنظروا في الأمر من هذه الوجهة.

- مقاومتنا المستميتة ستشجَعه على فعل كلَ شيء من أجل نجدتنا.

- لكن تصوَر أن تيمور دخل المدينة عنوة قبل عودة السلطان المزعومة، فماذا يبقى على الناس فعله؟

- القلعة منيعة هي مربعنا الباقي. مدَخراتها من الأقوات والماء تكفي للصمود شهرين أو أكثر. ويستحيل أن تنصرم هذه المدَة دون أن يصلنا العون من الجيش المصري.

رأى برهان الدين أن يصعَد الجدال مع أزدار حتى لا يغترَ بعض الفقهاء بأقواله، قال:

- يتناسى النائب، أيَها الأفاضل، ما حدث لمدن عراقية وشامية كثيرة من ويلات، من غير أن يحرَك المماليك ساكناً. ويريد الآن أن يقنعنا

بفروض أساسها توهّمات. قل لنا يا أزدار: هل تفتح يوم الشدّة أبواب قلعتك لكلّ الخائفين على أرواحهم، ولو كانوا من أهل الفاقة والإملاق؟

خطا النائب خطوات إلى الوراء، وأجاب مضطرباً:

- القلعة لا تتسع لكل الخلق... تيمور لا حاجة له بالمعدمين بل بالمترفين وأصحاب الجاه. وهؤلاء هم أذن من يجب درء الشرور عنهم.

عند سماع هذا التعليل، قام شيخ الفقراء، واسمه شديد الدين الأزدي، وصاح صيحة اهتزّت لها أركان المدرسة:

- لا تفاضلْ بين الأرواح بمتاع الدنيا، يا عديم التقوى.

اغتنم برهان الدين هلع النائب وأعوانه، فضيّق الخناق عليه:

-لديّ شهادات ، يا أزدار، تثبت أنّك تأخذ لنفسك من كلّ ثروة تحميها ثلثها.

خرج الشيخ ابن العزّ الحنفي من صمته، وقال كلمة واحدة باتجاه النائب: «اذهب». فاصطنع هذا الاحتفال بالأمر، فإذا بشيخ الفقراء يتقدّم نحوه ويصرخ في وجهه:

- سيّدي قال لك اذهب. اذهب وإلاّ ضربتك بكمّي.

عندئذ تراجع أزدار ورهطه وَجِلين، وانصرفوا من حيث أتوا، ثم عاد الصوفيّ إلى جلسة الجمع. اندهش عبد الرحمن لما رآه، ونظر برهان الدين، كأنّه يستفتيه، فسمعه يقول:

- الوقت ضيّق يا سادة، وأزدار لاريب أنّه سيستعدي علينا أتباعه. رأينا بالأمس، في غيبة العلاّمة ابن خلدون، كان أنْ أَنْزل بصحبة شديد إلى تيمور، قصد ترغيبه في توقيع رقاع الأمان على البيوت والحرم، مقابل تسلّمه مفاتيح المدينة. فإن رجعنا بالرقاع فذلك ما نودّ ونبغي، وإن قَتلنا الطاغية فعليكم بتحريك فرق الفتوّة في انتظار الفرج من الله. هذا ما استقرّ عليه رأي الجماعة، فما قولك يا وليَ الدّين؟

- نعْم الرأي رأيكم! لكن رجائي أن أكون مع الذاهبين إلى تيمور، حتى أضع على المحكّ علمي بسير الملوك وفن التفاوض.

- لقاؤك بالغازي، يا ولي الدّين، سيتحقق بحول الله إن رجعت من خيمته أنا وهذا الشيخ سالمين. سفارتنا الأولى إليه إنما هي لجسّ النبض. وهؤلاء الإخوة عيّنوا هذا الفقير فيها لطول باعه في استصغار الموت، وعيّنوني أنا لطول لساني في لغات يفهمها المغول أو من هم في خدمتهم... والآن علينا بصلاة الظهر والدّعاء بالتوفيق وحسن المآب.

في مساء اليوم نفسه، عاد برهان الدين من لقائه إلى جمع القضاة في العادلية، ومعه كتاب الأمان ودعوة شفوية من الغازي إليهم بالحضور بين يديه. وأخبر العلاّمة أن تيمور ذكره بالإسم، وعلّل ذلك بكون أحد خواصه، هو عبد الجبّار ابن النعمان الحنفي المعتزلي، ملمّاً بلغات كثيرة وعارفاً بعلوم المسلمين وأعلامهم شرقاً وغرباً. فاتّفق الفقهاء على تلبية الدعوة فجر الغد، وتواعدوا على اللقاء بباب الجابية.

راود عبد الرحمن النوم، فلم يستطع. وازداد أرقه لما أتاه حارس المدرسة بخبر عراك بالعصي والسكاكين في الجامع الأموي بين فتيان برهان الدين وجماعات نائب القلعة. فقام من حينه، وأوصد باب بيته، وأوصى الحارس بإحكام إغلاق باب المدرسة، ثم حاول مغالبة وجله وثقل انقضاء الوقت بالقراءة، فما وُفِّق. ولم يتحسّن حاله إلاّ بعد أن تجرد للنوافل تلو النوافل حتى مطلع الفجر، فأدى صلاته، وسارع إلى ملاقاة أصحابه سَحَراً في موعدهم.

كان برهان الدين أوّل القادمين، متبوعاً بالآخرين. وتحادث القضاة في فتنة أزدار وتوعّده لطالبي الأمان من تيمور بالقتل، وفي وقوع قاضي القضاة الشافعية صدر الدين المناوي أسيراً بين أيدي المغول بشقحب، ثم طلبوا من عبد الرحمن التريّث يوماً أو يومين حتى تتبيَن الأمور، فأبي وألحَ على التدلّي من السور قبل غيره، فأنجز بغيته برهان الدَين بواسطة حبال وقطع من الكتّان. وما إن وقف حذاء باب الجابية حتى أحاط به بعض الجند وأخذوه إلى نائب تيمور على دمشق، واسمه شاه ملك، فاستقبله بالترحاب، وكلّف من يرافقه إلى حيَ الخان. وخلال انتظار مليء بالتوهّمات والهواجس، لمح في الخارج جندياً يقتاد رجلاً نصف عار مكبّلاً بالأصفاد، فلم يشك أنّه قاضي الشافعية المأسور. وبعد هنيهة سمع صوتاً ينادي باسمه ويعرّف بكونه القاضي المالكي المغربي. عندئذ قرأ في نفسه سورتي العصر والشرح، وثبّت برنسه على كتفيه، ثم دخل على تيمور في خيمة جلوسه. ولمّا رآه همس في نفسه: « هو ذا إذن الكائن العجيب كما تصوّرته دائماً! هو ذا بعينه الخزراء، وشعره الرطب الكثيف، ولحيته الشيطانية، وجبهته المتنطّعة

فوق أنفه الأفطس. من قسماته وهيئته تبرز حصّته الوافرة من عنفوان الطبيعة وعنفها».

كان الكائن في جلسته بين نمارق سريره أشبه ما يكون بالأسد في عرينه، يشمل بنظراته كلَّ شيء، ويسود على كلَّ شيء؛ حتى صحون الطعام كانت تعرض عليه قبل أن تنقل إلى أرهاط المغول المتحلّقين أمام بابه كالغيلان المفترسة. وحين اقترب عبد الرحمن من السرير قرأ سلام اللّه مطرق الرأس، واضطرَّ إلى تمرير ذقنه على يد الكائن الممدودة إليه. وبعد ذلك استقرَّ حيث تلقّى الإشارة بالجلوس، ثم نودي على الترجمان فإذا به بعد التعريف الفقيه عبد الجبّار ابن النعمان الحنفي الخوارزمي السابق ذكره.

كانت أسئلة تيمور عبارة عن استنطاق منهجيّ حول مأتى العلاّمة من أين ومتى ولِمَ وكيف. فكانت أجوبته مقتضبة وأوصافه لإنعامات الظاهر برقوق عليه مبرَزة، مع أنّه ذكر قتل هذا السلطان لسفراء الخان الأعظم تيمور في باب الزلاّت الفادحة. أمّا حين وقع السؤال عن المغرب الداخلي وعن موقعه وأمصاره وأقوامه، فطن المسؤول إلى انتفاخ أوداج السائل واحمرار عينيه فضولاً وطمعاً، فأجاب بالإشارة والدمغ، منبّهاً إلى وعورة تلك البلاد وبأس ساكنيها. لكنّه لم يفلح في صدّ تيمور عن اهتمامه بالموضوع، بل سمع الترجمان ينقل أمره قائلاً: «مولاي تشوّق إلى قطر حسن البروز بين بحرين وقارّتين، ويريد أن تكتب له عنه حتى تجعله وكأنّه يراه، ويخترق آفاقه ويطوي سهوله وجباله من تحت قدميه». وأجاب العلاّمة مكرها بالسمع والطاعة، فقال الطاغية «خوب خوب»، ودعا ضيفه إلى تناول الطعام بين يديه، فأمر

بإحضار إحدى الأكلات المغولية المفضلة واسمها الرشتة، وعرضت صحونها أمام المدعو، فقام ونال منها لقماً كثيرة عساه يظهر إعجابه بالطبخ التتري، ويتلف خوفه من لقاء مصير قاضي الشافعية المعذَب. فقد تذكَر أنَ بعض أقوام الشمال تُتخم بالأكل المحكوم عليه بالقتل قبل طعنه. ولم يخفَ روعه إلاَ بعد أن أشار عليه تيمور بالجلوس، وتلقّى منه نظرات مبهمة ظنَ أنها قد تنجلي وتنشرح بتزوير الكلام في التقريظ والمدح. قال بنوع من التأنّي حتى يمكّن الترجمان من المتابعة وإحسان النقل:

[أيدك الله! إلى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة وأنا أتمنى لقاءك. لأنك سلطان العالم. وملكُ الدُّنيا. وما أعتقد أنّه ظَهر في الخليفة منذ آدم لهذا العهد مَلكٌ مثلُك. ولستُ مَن يقول في الأمور بالجُزاف. فإنّي من أهل العلم. وأبيِّن ذلك فأقول: إن الملك يكون بالعَصبيّة. وعلى كثرتها يكون قدرُ المُلك: واتّفق أهل العلم من قبلُ ومن بعدُ. أنّ أكثر أمم البشر فرقتان: العَرب والترك. وأنتم تعلمون مُلك العَرب كيف كان لمّا اجتمعوا في دينهم على نبيِّهم. وأما الترك ففي مُزاحمتهم لملوك الفُرس. وانتزاع مَلكهم أفراسيَاب خُراسان من أيديهم شاهدٌ بنصابهم من المُلك. ولا يساويهم في عَصَبيّتهم أحدٌ من ملوك الأرض من كسْرَى. أو قيصَر. أو الاسكندر. أو بُختنَصّر. أما كسرَى فكبير الفُرس ومليكهم: وأين الفرس من الترك؟ وأما قيصر والاسكندر فملوك الروم. وأين الروم من الترك؟ وأما بُختنَصّر فكبير أهل بَابل. والنَّبَط. وأين هؤلاء من الترك؟ وهذا برهان ظاهر على ما ادّعيتُه في هذا الملك] .

كشر تيمور عن أسنانه وغابت حدقتا عينيه وراء أجفانها، ثم أطلق ضحكة متقطّعة أوّلها العلاّمة تأويلاً حسناً. ولم يعد إلى حالته العادية

إلاّ بعد أن جاءه حاجبه بخبر وجود قضاة دمشق في خيمة الانتظار، فأمر بإدخالهم، ومشى نحوهم يجرّ خلفه رجله المعطوبة. أمّا عبد الرحمن فقد تبعه مع الترجمان، واختلط بزملائه، مركِّزاً نظره على برهان الدين والشيخ محمد ابن العزّ لاختفاء تيمور بهما ومكالمته بكلمات كان ابن النعمان ييسّر فهمها للحاضرين، ومفادها أن الخان الأعظم يحب ذوي الألباب من العلماء، ويتشوّق إلى مناظرتهم في أمور الدين والدنيا، وأن الكلام بعد الطعام أوضح وأجدى.

خرج تيمور فتبعه القضاة وبعض أكابر الدولة، فعرج بهم على خيمة أميرية بداخلها سماط المآكل، وأكثرها لحوم الخرفان السليقة، فأكل الجميع كل حسب شهيّته وطاقته، وتحادث البعض همساً، وتراسل آخرون رمزاً؛ وتيمور جالس على كرسيّه يرمقهم ويشير على المتعففين بالأكل. وكان من حين إلى آخر يُسمع صوت من خارج الخيمة ينشد مكرّراً:

كلوا أكل منْ إنْ عاش أخبرَ أهله ۔ وإنْ ماتَ يلقَ اللّهَ وهو بطينُ

اغتنم عبد الرحمن فرصة استعداد تيمور للوقوف بمساعدة خدمه، فدنا من برهان واستخبره عن مفاتيح دمشق: هل سُلّمت إلى الغازي، وعن سرّ اختفاء شيخ الفقراء شديد الدّين. أجابه صديقه همساً أنّ الشيخ موجود بين الجماعة كالشعرة في العجين، وأن تيمور لن يطلب المفاتيح الآن، بل بعد أن يسير بالقضاة إلى باب المدينة ليُشهد على تسلّمها منهم الجمهرة.

حين وقف الطاغية مدعماً رجله الناقصة بصندوق ذهبي، جدج الجمع بنظرات فاحصة ثاقبة، ثم نعت من خلفهم رجلاً متلبّساً بعمود،

فصوّت نحوه بم يفهم منه النهر والأمر . قال الترجمان وقد التحق بمقام الأمير : «مولاي يأمر المتخفّي بأن يأكل»، فصاح المأمور صيحة اهتزَت لها أركان الخيمة ، وأتبعها برد صاخب : « قلْ له ما أنا بآكل» . انتبه الجمع مدهوشين وراءً ، فإذا بالرجل هو شيخ الفقراء بوجه البدائي ، وعينيه الحمئتين ، وهزله الخرافي . ثم صار يعارض التهديدات التيموريَة بالإنشاد : [ولستُ أبالي حين أُقتلُ مسلماً / على أيَ جنبٍ كان للّه مصرعي] . وأيقن الجمع أنَ الشيخ لا محالة هالك ، غير أنَ الطاغية سرعان ما هدأ غضبه ، وأخذ يلقي الكلام تلو الكلام ، ويوقّعه بشتَى الإشارات والتكشيرات المتأرجحة بين المدّ المتأجج والزجر المتهكّم . وحين أنهى خطبته اقتعد كرسيه ، فقال الترجمان :

«الحمد لمن لا حمد إلاَ له . يهب الملك لمن يشاء ، وينصر من يشاء . . . شيخكم الفقير هذا تركته وحاله ، وأخليت سبيله . فله اللغو كلّه والهذيان . هل علمتم لمَ أجنّب المعدمين عقابي ؟ لأنَ خيط تعلّقه بالحياة أضعف من خيط العنكبوت ، لأنَ حبّ البقاء ليس لهم منه ذرة . وهذا الشيخ الملتحم بعمود خيمتي من أولئك المعدمين ، بل من أصلبهم وأقساهم . فهل يعقل أن أشقّه نصفين وهو كالسائل أو الزئبق؟ لا ، دعوني من زهّاد الدنيا وكل ضعاف الأجسام والأزودة . دعوني منهم وممَنْ سيوفي في أعناقهم لا تروم ولا تغور . وعليه ، إليَ من العصاة بالسلاطين والأكابر ، هؤلاء الذين ألقاهم في مسالكي وممالكي أضداداً ، فأسلط الغربان على رؤوسهم قبل سقوطها ، وأجعلهم يقذفون دمهم برمته قذفةً . هرب الجركسي فرج ابن برقوق منّي خوفاً من أن أذيقه عذابي ؛ أمّا نائبه على قلعة دمشق ، فأنذروه بحلولي في ربعه

كالسيل الجارف والصاعقة الماحقة. سأدمِّر قلعة هذا الخارجي، كما دمَّرت قلاعاً أخرى. سأرهقه مخضاً وقصفاً، جزاء على ما ارتكبه من علو واعتصام. وليعلم المستعلون المعتصمون، الكانزون الذهب والفضّة، أن أجلهم انتهى. فلينفضوا أذيالهم من الجاه، وليغسلوا أيديهم من الحياة.

«﴿يا أيّها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأولي الأمرِ منكمْ﴾. صدق العزيز الحكيم. طاعتي فرض عين على كلّ من نالته فتوحاتي، لأنّي المعروف وما سواي منكر، لأنَّ العصر عصر المغول من بني جغطاي دون غيرهم، وولايتي الأمر مثبوتة شرعاً ومعزّزة بقراءات المنجمّين في أفلاك السماء. أخبرني بهذا عالمكم ابن خلدون. فأكّد لي ما أعلمه وتعلمونه كلّكم، حيّاكم الله وبيّاكم...

«أيّها القضاة، إذا كنت إنما بعثتُ لتجديد طاعة الخالق بطاعتي، فلِمَ اللّج والعناد في عصياني؟

«أيقاومُ من غزا الممالك والأمصار؟!

«أيقاوم من أخضع الشعوب والأمم؟!

«أيقاوم من ألجم الملوك والسلاطين وأسقط التيجان والعروش؟!

«كان على المملوك فرج وجيشه أن يفرشوا طرقي إليهم بالورد والرياحين. كان عليهم أن يرشقوني بالأرز ويرشّوني بالعطر وماء الزهر. كان عليهم أن يلقوني بالتمر والحليب، وبالتقبيل والضم. لكنِ ابن العبد المعتوق استكبر واستنفر، حتى إذا أقبل عليّ محارباً كسرتُ

عساكره ورددتهم على أعقابهم خاسرين. فكانت ﴿أعمالهمْ كسرابٍ بقيعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماءً﴾، صدق الديان العظيم.

«ألا إن موتانا هم وحدهم الشهداء الأبرار المتَقون.

«أكفكم أكفكم يا سادة، وقولوا آمين.

«اللَهم أسكن شهداءنا جنّة الرضوان.

«اللَهم أمطر عليهم شآبيب الرحمة والغفران.

«اللَهم أطل عمر أميرنا تيمور المؤيّد.

«اللَهم عزّز خطاه وانصره على المماليك وكل العصاة.

«اللَهم بارك في ممالكه واحفظ دولته الجغطية من الجناة والطغاة. آمين، والحمد للّه رب العالمين».

ترنّح القضاة في مواقفهم وتنفّسوا الصعداء، كأنّهم خرجوا من امتحان عسير كان عليهم أن يتسربلوا فيه بدروع الممالأة والتقيّة، فيرفعوا أكفّ الضراعة ويجاروا أدعية الفقيه الترجمان ابن النعمان أنى هبّت مساعيها. مال برهان الدّين على أذن عبد الرحمن فقال: «أراك مثلي متلهّفاً إلي تصويب أمور وتخطيء أخرى، ولربّما لاحظت معي أنَ الترجمان زاد في الخطبة أشياء من بنات أفكاره. لكنّ الكلام في وضعنا مبثوت بالمزالق والفخاخ. فادْعُ اللّه أن يرفع عنّا صراط الطاغية».

كانت هتافات المغول خارج الخيمة قد بلغت أوج هديرها وهياجها، وكان تيمور كأنّه متربّع فوقها على قارب سكران من فرط الخيلاء والنشوة. وفجأة بإشارة منه خيّم صمت رهيب، ثم بإشارة أخرى رفع

محمله الركابية، فذهبوا به إلى فسطاط حريمه. وطلب النائب شاه ملك من القضاة سبق الخان إلى باب الجابية لانتظار مجيئه إليهم في وقت العشيّ.

* *

كان الوقت ظهراً. الحرّ وعسر الهضم، وزحمة الجنود الأفظاظ الخشنين في الحيّ المغولي، وإحجام تيمور في خطبته عن تأكيد رقاع أمانه، كلّ ذلك جعل القضاة شبه دائخين وقليلي الرغبة في الوصل والكلام. لذا هرول كلّ منهم إلى مسكنه، قصد الراحة وترقّب الموعد التيموري في هذا التاسع عشر من جمادى الآخرة للسنة الثالثة من القرن التاسع.

في تربة منجك عند باب الجابية ارتجّ فضاء دمشق لقرع الطبول والنفخ في القرون والأبواق، فتنادى السكّان بخبر وصول الطاغية إلى مدينتهم وقرب دخول جيوشه إليها. كان شعور التوجّس والخوف أغلب على نفوسهم، لا تلطّفه تطمينات بعض الخطباء والقضاة، ولا مرويّات الكلام عن رقاع الأمان التيموري. كان سوادهم يدرك بالفطرة أنّ المغول لا يمكن أن يلغوا طبيعتهم العدوانية على أعتاب دمشق، فيعفوا هذه المدينة المستسلمة من أهوالهم وحرائقهم. لكنهم كانوا، من جهة أخرى، يعون أنّ المقاومة أو التشبّث بالقلعة ضرب من بلاغة اليأس وطلب الموت المحقّق. لذا لم يبق في وسعهم سوى قراءة اللطيف والدعاء من أجل ألاّ تأتي الزوبعة المغولية على العمارة جملةً وعلى كلّ الحرث والنسل.

تجمّع الدمشقيّون في مكان حلول تيمور وحاشيته، يحدوهم نزوع الفضول والمعاينة. وتقدّمهم القضاة وأعيان البلد متحلّين بكل سمات الهيبة والوقار، متبنّين شعار برهان الدين ابن مفلح: «نسلم مفاتيح أسوارنا وليس مفاتيح أرواحنا». كانت الموسيقي مازالت ترهب النّاس بصخبها، بينما تيمور الجالس في فسطاطه يتقبّل التحايا من الوافدين، ويوزّع الإشارات بالجلوس. وحين استقام المجلس تماماً حلّ الصمت فجأة في الربع، فنادى شاه ملك بالاسم على قاضي القضاة المحمود بن العزّ الحنفي للمثول أمام الأمير، ثم أطلعه على صندوق ضخم مليء بالمفاتيح، ونقل إليه الأمر الأميريّ بوضع رموز استسلام دمشق في صندوق المغازي المغولية. وفي هذه اللحظة المشهودة أقبل برهان الدين ابن مفلح فحيّا الأمير، واستلّ من كمّه لفافة قرطاس، وقال بصوت جهوري سمعه الحضور داخل الفسطاط: «في داخل هذه الرقاع مفاتحينا، هي ذي رموز طلبنا الأمان؛ أمّا هذه فهي رقاع أماننا بختم أمير الخان الأعظم وراعي أرواح المسلمين وحرمهم ومتاعهم، تيمور بن جغطاي الصادق الأمين». وكرّر القاضي ابن مفلح نفسه كلامه بالتركيّة القريبة إلى اللسان المغولي. لم يكن تيمور يتوقّع إقدام أحد القضاة على مثل هذا الإشهاد الطردي العلني، لكنّه كظم غيظه وحدج برهان الدين بنظرة شزراء أتبعها بضحكة مبهمة في اتّجاه الحضور، ثم أشار إلى القضاة بالانصراف، بعد أن ذكّرهم ابن النعمان بوجوب إلقاء خطب الجُمع والأعياد باسم الخان الأعظم صاحب قران تيمور الأمجد. أمّا العلاّمة فقد أبقاه الطاغية بصحبة عرفاء البنيان الدمشقيين، وذلك بغية مناظرتهم في طريقة قطع الماء عن القلعة تمهيداً

لإسقاطها. وحين طال الكلام في الموضوع وعصلج أمره، بفعل اختلاف الآراء في موقع النبع، أمر تيمور، باقتراح من الترجمان، بأن يهيِّء العرفاء تصميماً يتفقون عليه ويسلّمونه إياه في ظرف يومين، ثم أذن للجمع بالذهاب.

* *

حين رجع العلاّمة إلى مأواه واختلى بنفسه، عاوده القلق الشديد من انقطاع أخبار أسرته عنه، وقوي حنينه إلى بيته بمصر، فتصبّر وذكر اللّه كثيراً، وأدرك أنّ بدء الخلاص من تيمور يكمن في تلبية طلبه تقييداً في وصف المغرب. وهكذا عكف أيّاماً على تحرير التقييد مركزاً على وعورة أراضي القطر وشدّة ساكنيه، لعلّه بهذا يطرد من ذهن الطاغية فكرة اجتياح المغرب وإلحاقه بالممالك المغولية الشرقية الشاسعة. وفيما هو منهمك في ضبط التقييد وسبكه، وصله خبر سقوط قلعة دمشق، بعد أن هدّها المغول بضربات المجانيق والعرادات والنفاطات، وغيرها من آلات النقب والهدم، وقيل مدافع البارود؛ كما أُخبر من طرف بعض القضاة أنّ نائب القلعة تمكّن من الفرار، وأنّ ابن مفلح ألقى المغول عليه القبض لما احتجّ أمام أميرهم على شططه في جباية الأهالي وتعرّض أناس القلعة المستسلمين للنهب والقتل. ولم يمض يومان حتّى أتاه أولائك القضاة بخبر أفدح وأعتى، مفاده أنّ جنود المغول آخذون في العبث بسكّان دمشق، بعد أن هدّها المغول بضربات المجانيق والعرادات والنفاطات، وغيرها من آلات النقب والهدم، وقيل مدافع البارود؛ كما أُخبر من طرف بعض القضاة أنّ نائب القلعة تمكّن

من الفرار، وأنّ ابن مفلح ألقى المغول عليه القبض لما احتجّ أمام أميرهم على شططه في جباية الأهالي وتعرّض أناس القلعة المستسلمين للنهب والقتل. ولم يمض يومان حتّى أتاه أولائك القضاة بخبر أفدح وأعتى، مفاده أنّ جنود المغول آخذون في العبث بسكّان دمشق نفسها واستصفاء أموالهم ومتاعهم، وأنّ النيران التي أضرموها في الدور والأسواق قد لحقت بجدران الجامع الأعظم ومرمره وسقوفه، وأتت على منارته الشرقية تماماً.

«تيمور إذن نكث عهده، قبّحه الله! لا بدّ أن نسير إليه فوراً غاضبين محتجّين». هكذا تكلّم الشيخ محمود ابن العزّ ومن معه، فلم يسع عبد الرحمن إلاّ أن يؤيّد سعيهم، لا سيما وقد عاين من سطح المدرسة العادلية بعض وجوه الخراب النازل بالمدينة.

توجّه الوفد على عجل إلى القصر الأبلق حيث استقرّ الطاغية، فطلبوا لقاءه من نائبه شاه ملك، لكن من غير أن يفلحوا، ثم توجّهوا إلى ديوان ترجمانه القاضي ابن النعمان، فاستقبلهم بالبشاشة والترحاب، وكأنّ أحداث الفظاعة والبطش لم تصله بعد أخبارها. عندئذ تعنّى شيخ القضاة- مغالباً الهرم والإرهاق- إطلاعه عليها بصوت ملؤه السخط والاستنكار. وحين لاحظ القاضي شمس الدين محمد الحنبلي النابلسي أنّ الترجمان لا ينفعل بكلام الشيخ ولا يأبه، صاح في وجهه متذمّراً:

- هل عاهدنا مولاك على الأمان أم على الدمار؟ دين الإسلام بريء من المغول وممّا تفعلون. ﴿**ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾. صدق الله الذي يمهل ولا يهمل.

شعر ابن النعمان بضرورة التجرّد للكلام، خصوصاً وقد أدرك أنّ القضاة بأكملهم كانوا على وشك تصعيد لهجة الذمّ والتقريع، قال:

- رويدكم أيّها الأفاضل، رويدكم. ما تخبرونني به أعلمه ولا استطاعة لي عليه. ولكي أهدّئ من روعكم، سأتعدّى سلطتي فأنبئكم بما تجهلون أو تغفلون. السياسة التي تجري مجرى الشرع وعلى قدّ مُثله، لا وجود لها إلاّ في فجر الإسلام وبعض اللحظات القصيرة النادرة. أمّا السياسة الزمنية، وهي الأغلب والأطغى، فمحرّكها هو ما جرت به عادات التغلّب والهيمنة والمصالح الدنوية المرسلة. وإن أردتم كلّ الأنوار حول هذا الأمر، فاطلبوها من عالمكم الفقيه المؤرخ ابن خلدون هذا. وحتى أترجم لكم مقالتي بما نحن فيّه اليوم، اعلموا، أيّدكم الله، أنّ الخان الأعظم تيمور إنّما يمشي في فتوحاته على سنن الفاتحين الكبار من قبله. يكتب الأمان ويوقّع المواثيق متى فرضت عليه الضرورة الوقتيّة ذلك، ويتحلّل من العهود وكلّ القراطيس عند اقتضاء مصلحته ومصلحة جنده من بني قومه. ولئن رأيتم أنّ الوازع الديني فيما جرى بات يتيماً مقهوراً، فلأنّ منطق الغلبة والقوة أقرّ ذلك. هذا المنطق، أيّها الأفاضل، هو ما عليكم أن تعوه وتفهموه حتى تتمثّلوا السياسة بما هي كائنة لا بما يلزم أن تكون، وأن تناظروا فيها لا من حيث صفاتها المثلى في رؤوسكم وأحلامكم، بل من حيث طبائع العمران والمادّة التي للأشياء. أليس الأمر كذلك يا ابن خلدون؟

أحسّ عبد الرحمن حرج موقفه بين هذا الترجمان العارف المحيط وبين زملائه القضاة. لكنه سرعان ما آثر مؤازرة هؤلاء في هذا الظرف الموجع الأليم، قال:

- وصف المنكر، يا ابن النعمان، ليس في حدّ ذاته منكراً، والكلام في طبائع السياسة الزمنيّة لا يستتبع بالضرورة تأييدها، وضعف الوازع الديني في ما تسمّيه منطق الغلبة والقوّة ليس حجّة على ذاك الوازع نفسه، بل على سائسي البلاد والعباد طوع الرغبات والشهوات الدنيويّة الزائلة. لكن بربّك دعنا من كلام لا يناسب مقام ما يعانيه النّاس من مناكر وويلات، وكلّمنا فقط عن أمر يحيّر الألباب وينهكها: إذا كان الخان قد حقّق الغلبة كلّها على دمشق، كما حقّقها على مدن الشام الأخرى قبلها، فلأيّ غاية معقولة يجري نكثه لعهد الأمان، وكيف تبرّر جرائم الجند المغولي في حق المسلمين العزّل؟

تردّد ابن النعمان قليلاً، ثم حكّ قفاه وقال:

- إذا أجبتك أيّها العالم، فمعناه أنّ لقاءنا هذا لا بدّ أن يبقى سرّاً بيننا، وإلاّ أهلكنا فُشُوُّه جميعاً. إنّه شرطي الأكيد، أيّها الفضلاء، كيما أبثّ في آذانكم علّة ما ترونه وأراه من قبيل الأفعال الشرّيرة عند تيمور. فهذا الخان الغازي ينظر إلى تلك الأفعال من وجهة وجوبها خدمةً لغايتين: الأولى أنّ بينه وبين جيوشه الجرّارة عقداً مكنوناً يُلزم الجند بالوفاء والنصرة، مقابل انطلاق أيديهم في متاع المغلوبين وأموالهم؛ والثانية أنّ الخان يخوض الحروب ليس بالمناجرة والقتال فحسب، وإنّما أيضاً بالإشاعة والحيلة، كما بتطعيم الأخبار المدوّية المرعبة. إضعاف العدوّ قبل ملاقاته، هذا ما يرومه تيمور من زلازله وخروقاته.

وصدقوني أنه، في حالة دمشق دون قلعتها، أوصى الأجناد بالاقتصاد في الفتك بالعباد.

قام القاضي شمس الدين الحنبلي، قال:

- كلّ كلامك هذا يا ابن النعمان مرفوض شرعاً وعقلاً. ولكن خبَر الخان أنَنا سندعو عليه في المساجد والديار، ونفوّض أمره إلى الواحد القهار.

- تهديدك أيّها الفقيه، رأفةً بك وخوفاً عليك وعلى أصحابك، لن أترجمه للخان الأعظم. فاتّقوا الله في أنفسكم والزموا الصبر.

غادر القضاة الديوان فالقصر مسرعين، وتخلّف عنهم عبد الرحمن الذي أحبّ أن يستخبر عن حال صديقه برهان الدّين ابن مفلح. أجابه ابن النعمان:

- لقد أغلظ صاحبك الكلام لتيمور، وتجاسر على عصابته، وقتّر في تحديد الجباية. فأمر الخان بوضعه رهن الاعتقال الاحتياطي في مكان آمن مستور... لكن ثق أنّ أيّ أذى لن يلحقه ما دمت أرفق به. هل تدرك إذن لِم اتّفقت مع شاه ملك علي منع القضاة من الدخول على تيمور؟

انصرف عبد الرحمن عن القصر إلى الجامع الأموي قصد معاينة خسائره. كان النّاس داخله يطفئون النيران الأخيرة، ويخلصون مقصوراته ورواقاته المتضرّرة من كتل الأرمدة والردوم. كانت نظراتهم مفزوعة، لا تحجبها حركاتهم الحثيثة الكثيفة. وبين الفينة والأخرى، كان بعضهم يردّدون بأصوات منهكة: «بأيّ وجه يلقى الله من يحرق بيوت الله!».

جلس عبد الرحمن يفكر في الطاغية يوم الحساب، ويسمعه يتذرع بكونه لم يحرق الجامع متعمداً، وإنما هي النار لا يدري من يضرمها أين تنتهي. وفي ركن تعبره أحياناً خيوط دخان، قام فصلّى كثيراً، ثم رجع إلى بيته مكباً على وجهه.

* *

كيف الفكاك من ظلّ تيمور؟

سؤال بات يشغل بال العلاّمة ويؤرقه. سؤال نظريّ عويص لأنّ التجربة أثبتت أنّ من حصل في ربقة الطاغية لا يتحرّر منها إلاّ بمعجزة أو أعجوبة. فعادته أن يأخذ في ركابه العرفاء والحرفيين المهرة لاستعمالهم في مدنه المفضّلة، كما يأخذ العلماء لتزيين مجالسه وأسماره بكلامهم ولطائفهم، وعبد الرحمن، الذي صاحب فرج إلى دمشق على مضض، لم يعد في سنّ من يتربّص الأسفار ومغامراتها، ولو كان ذلك إلى سمرقند في شروط من التبجيل والتكريم. رغبته الوحيدة التي لا شريك لها هي أن يعود أدراجه إلى القاهرة بين أهله وخلاّنه وكتبه. لكن كيف يعبّر لتيمور عن هذه الرغبة ويفهمه حقيقتها ولهيبها؟

الأساليب المفتوحة المباشرة، يعلم أنها لا تفيد: بل قد تضعف الطالب والشيء المطلوب. لذا لا رجـــاء إلاّ في المناورة واللفّ والدوران، وفي المجاز والكناية والتشبيه، وهذه الطرق غير الصدامية قد تؤتي أكلها وتفي بالمقصود إن صاحبها ما تستدعيه من احتياطات لسانية وترتيبات بلاغية.

ارتأى الباحث عن الفكاك من ظلّ تيمور أن يمهّد للكلام الرقيق الدقيق بإتحاف الخان ببعض الهدايا الرمزية المؤثّرة، كانت نسخة مصحف فاخرة، وسجّادة بهيّة رائعة، ونموذجاً من قصيدة البردة للبوصيري الصنهاجي، وبضع علب حلاوة مصر المشهورة. في سوق الكتب أطلعته جولته على مدى تذمرّ الباعة من الحلب الجبائي الذي يسلّطه عليهم المغول. قال أحدهم: «بطون الغزاة لا قاع لها ولا قرار. كلّما أطعمتها طلبت المزيد». وقال آخر: «صرنا عبيدهم الملجمين. نجوع ليشبعوا، ونشقى ليرغدوا». لم يكن في وسع متلقّي هذه الشكاوى وغيرها سوى الوصاية بالصبر والوعد بانفراج الغمّة.

«سيري على بركة اللّه. اللّهم اجعل خطى هذه البغلة الوفيّة محفوفة بأسباب الخلاص والانعتاق. اللهم جد عليّ بلطفك ويسّر ولا تعسّر يا رحمن يا رحيم».

في الإيوان الكبير بالقصر الأبلق قدّم عبد الرحمن هداياه إلى تيمور، فرآه ينهض من كرسيّه ويضع المصحف على رأسه، ثم يجلس على السجّادة مظهراً إعجابه بها. وحين قدّم قصيدة البردة طلب من الترجمان أن ينقل إلى الخان تعريفه بها وبصاحبها. وأخيراً أكل من الحلاوة قدراً حتى يطمئن مضيفه على خلوصها وسلامتها. عندئذ أخذها تيمور إليه، فراح يزدردها ويصوّب نحو العلاّمة نظرات استفسار ومطالبة، لم يفتأ أن ترجمها ابن النعمان:

– التقييد في قطر المغرب، يا وليّ الدّين، التقييد!

أجاب العلاّمة بشيء من الانزعاج والتعثّر:

- التقييد، إيه! ما سمي الإنسان إنسانا إلاّ لنسيه... التقييد، نعم التقييد ﴿وما أنسانيهُ إلاّ الشيطانُ أنْ أذكره﴾. ها هو ذا من دفء برنسي إلى يد صاحب قران الخان الأعظم.

وضع تيمور حزمة الكاغد على راحة يده كأنّه يزنها، فقال بصوت فاتر «خوب خوب»، ثم خاطب ترجمانه بكلام يستشفُ منه الأمر بنقل التقييد إلى اللّغة المغولية. فتنفّس عبد الرحمن الصعداء وصار يتربّص فرصة البوح بما في نفسه. كان الحاضرون من أعيان الدولة يجسون على مقربة من باب الإيوان، يتجاوبون مع كلام عظيمهم بالإشارات وكلمات التأييد والموافقة. وأمامهم، أمام عيونهم المستنيمة الغائرة، أخذ تيمور - وملء فمه الحلوى- يقول كلاما يغلب عليه الشَّجْو والأنين، ويتوزّعه العلوّ والخفوت. ولما انتهى، أمر الأعيان والقوّاد بالانصراف والحاجب بتقديم شابين قويّين إلى العلاّمة، قيل له إنهما ابنا الخان، وهما ميران شاه وشاه رخ، فسلّما عليه ثم ذهبا. وحين أبدى عبد الرحمن تعطّشه إلى فهم خطاب جليسه، مال عليه ابن النعمان فقال:

- ما قاله الأمير خفتا هوذا فحواه: إنه متألّم لما حدث لدمشق وقلعتها من شدائد، وألمه أكبر للحريق الذي نال الجامع الأموي عرضاً. وكيف لا يتألّم وهو الذي سجّل في مذكّراته: «لقد عملتُ على الإمساك عن الابتزاز والقهر، لأنّ هذه الأفعال تحدث المجاعات وشتّى الأهوال التي تحصد أجناساً كاملة»؟ لكن ما حيلته إذا كانت أوامره إلى جنده بالتلطّف واللّين لا تطاع دائماً في حقول النهب والبطش. القوّاد قادرون على زعزعته إن ألزمهم بكبح جماح أتباعهم

وحرمانهم من جني الغنائم من الغزوات والمخاطرة بالنفس. سنّة الحروب لا رادع لها ولا بديل... أمّا ما قاله الخان جهراً فهو أنّ الشاميين يستحقّون ما لاقوه من محن على أيدي المغول، جزاء على ما اقترفوه مع بني أميّة من جرائم في حقّ علي وابنيه قدّس اللّه أرواحهم.

لم يكن عبد الرحمن يتوقّع مثل هذا الكلام من تيمور، إن صحّت ترجمة ابن النعمان، فاغتنم الفرصة وطلب من ابن النعمان أن يشجب باسمه أعمال الجنود المنافية لقواعد الإسلام وروح الفتوحات الإسلامية. غير أنّ الترجمان اعتذر عن نقل عبارات الشجب لما تحبل به من مخاطر، وأخذ يترجم كلاماً آخر كان الخان يهمهم به بعد أن أحضر بين رجليه شاباً عربيّ الصورة، شاحب الوجه، غامض العينين. قال:

– هذا الفتى منذ استقراري في القصر، صار يكثر في طرق الأبواب عليّ مدّعياً أنّه الخليفة العبّاسي لهذا العهد، وأنّ سرير بغداد يرجع إليه شرعاً. وشاورت بعض القضاة في الأمر فأنكروه عليه، ثم قلت لن يستقيم لي رأي إلاّ باستفتاء المؤرّخ العلاّمة العارف بشجرات الأنساب وخبايا الأشياء. إني أنيطك يا ابن خلدون بتشريف عظيم ينسيك أهوال دمشق ويعوّضك عنها: هذا الفتى المتوسّل إليّ أن أعيد إليه عرشه، هل من واجبي أن أجلسه عليه أم لا؟ قضية كبرى أفوض لك الحلّ والعقد فيها، وعليّ أنا أن أنفّذ حكمك.

لم يطل عبد الرحمن تأمّله في عبث السؤال ومهزلته فبادر إلى الردّ:

- كتبت كثيرا في الخلافة، أيها الخان الأعظم. ومنذ ما يقرب من خمسة قرون، مع قيام إمرة بني بويه، لا أراها إلاّ كالشجرة الهرمة المنخورة، لم يبق منها إلاّ شيء من البركة. أو كالعجوز التي تشي ملامحها بذكرى جمال غابر وقوّة سالفة. وهي اليوم، أكثر من أيّ وقت مضى، صورة بلا معنى، وشكل بلا مبنى، يستظلّ بشرعيتها السلاطين، ويحملونها بين أحيائهم شارة ورمزاً. أمّا القابض عليها لهذا العهد في شخص الخليفة الواثق بالله فهو السلطان فرج، الذي وجدها في القاهرة بعد أن نقلها إليها من بغداد حوالي ستمائة وستين مؤسس دولة المماليك البحرية ركن الدين بيبرس، وقصّة هذا السلطان مشهورة. هذا ما أعلمه عن حال الخلافة، ﴿وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم﴾.

ضحك تيمور ضحكة مروّعة، وتجشأ في فم الفتى الراكع بين رجليه باصقاً فيه، ثم أخذ يعصر أذنيه تارة ويضربه على قفاه طوراً، وقال على لسان الترجمان.

- هل سمعت حكم العلاّمة يا دجّال؟ أغرب عن عينيَ ودونك الخلافة. إيّاك أن تعود إليَ ثانية طالباً حماية أو عرشاً، اذهب فإنّي لا أحب العبد الملحاح... تراني يا ابن خلدون قصّرت في تنفيذ فتواك؟ واللّه لو طلبت منّي قتل الفتى لفعلت. هل من حاجة أعظم من هذه أقضيها لك؟

ردّ عبد الرحمن بصوت ملْؤه الشجو والحنين:

- *[أنا غريب بهذه البلاد غربتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأي، وأخرى*

من مصر وأهل عيلي بها. وقد حصلت في ظلّك. وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي.

- قل الذي تريد أفعله لك.

- حال الغربة أنستني ما أريد. وعساك - أيّدك الله- أن تعرف لي ما أريد.]

- حكّمتك في مصير الخلافة، فكيف لا أرخّص لك بالعودة إلى أهلك. اغتنم حسن مزاجي وقل لي ما بقي لك.

- أن تطلق، جزاك الله، سراح برهان الدين ابن مفلح، وتنعم على الكتّاب والعمّال الدمشقيين بميثاق أمان يحفظ لهم حياتهم ورتبهم.

- أما صاحبك العاصي فلن أطلقه إلاّ بعد رحيلي عن هذه المدينة، وأمّا مكتوب الأمان فهو لك.

عبّر عبد الرحمن للخان عن امتنانه وشكره. ودعا له دعاء كثيراً، حتى إذا استعدّ للانصراف سأله الطاغية:

- حدّثوني أنّك تتنقّل على بغلة رمادية حسنة الوزن والقوام. هل تبيعها لي؟

- تشتريها منّي، معاذ الله! لو كان لي إسطبل بغال عتاق ووهبتك إيّاه لما عدلت إحسانك لي وإكرامك. البغلة لك على الرحب والسعة ... أستأذنك بالذهاب كيما أبشّر القوم بأمان الخان الأعظم.

قصد عبد الرحمن إيوان شاه ملك، فأخذ منه ميثاق الأمان بخاتم تيمور، ثم عطف على مربض الخيل بباب القصر، فلم يجد لبغلته أثراً، ففهم أنّ لجدران الإيوان آذاناً وفوّض أمره إلى الله.

* *

في يوم الجمعة، الحادي والعشرين من رجب من السنة المذكورة، استيقظ العلاّمة بنيّة الرحيل العاجل إلى مصر قبل أن ينسخ الطاغية إذنه. فانقطاع أخبار أمّ البتول أمر مقلق لا بدّ من اختراق سرّه. جمع حوائجه وذهب إلى بعض القضاة والكتّاب، فسلمهم رقعة أمان الخان وودّعهم بودّ وحرارة، ثم يمّم القصر الأبلق راجلاً يتبعه خادمه. في الإيوان كان تيمور جالسا بين ابنيه ورجاله، فاستعجل الزائرَ في الاقتراب منه، وبثّ في أذنه كلمات لم يفهمها، فطلب عون الترجمان:

– إنّها ولاشك امرأة وراء استنفارك وطلبك الرحيل عنّا. كم أفهمك وأعذرك يا ابن خلدون! حتى أنا لي في سمرقند زوجة تحبّني وأحبّها. لا الغزوات تنسيني صورتها ولا الحريم ولا نساء الدنيا. أنت وأنا في السبعين من العمر تقريباً، ومازال في قلوبنا متّسع لحب امرأة واحدة لا شريك لها. سبحان الخالق المكوّر! قم إذن واطو المسافة من أقرب وجهة إلى مبتغاك. هذا كتاب بخاتمي، تسير به في ممالكي، وتقصدني إلى عاصمتي إن تقطّع بك الحبل يوماً وأردت أن تحصل في ظلّي، وهذا ابني شاه رخ ذاهب إلى شقحب لمرباع دوابي، فرافقه إن شئت محروسا معافى. حدّث عني من لاقيته من السلاطين والأمراء، وادع لي ربّك أن يهبني مقاليد الدنيا وسعادة الآخرة.

بادل عبد الرحمن تيمور بعض العناق، وأحجم عن الكلام خوفاً من إطالة الجلسة أو التيه في مزالق اللسان، فاستأذن الخان في تقصّد صفد أقرب السواحل، وكان له ما أراد.

في الساعات الأولى من اليوم نفسه كان السفر في قافلة مع بعض من صحَت فيهم شفاعة عبد الرحمن، وأغلبهم من مماليك رتب القلم. وبعد مسيرة يوم متَصل اعترض الأعراب القافلة، فجرَدوا أفرادها من كلّ متاعهم، وتركوهم عرايا إلاّ من سراويلهم. وهكذا دخلوا إلى الصبيبة بعد يومين من السير الحثيث، فعوَضوا الملبوس، وقصدوا صفد حيث استراحوا أيَاماً معدودة، حتى إذا أقبل مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الروم، أقلَهم إلى غزَة ثم جازوا براً إلى مصر.

صباح الفاتح من شعبان: انفصل عبد الرحمن عن رفاقه، وحثَ الجمَال على كدّ السير إلى المحمودية، حي سكناه...

تذييل

في المحمودية قصدت منزلي راجلا بلا برنس ولا متاع، تقودني أشواقي الحرّى إلى ضم زوجتي وابنتي إليّ في دفء الحب والأنس. حين فتح شعبان الباب لي، أنا الطارق المتعجّل اللهفان، شخص أمامي شاحب الوجه، فاغرًا فاه جاحظ العينين، يكاد الإغماء يأتيه من فرط الحيرة والذهول. عانقته بقوّة وهو يحيي مقدمي ويشكر الخالق ويحمده على نعمه وكراماته. سألته عن الستّ والصبيّة. ظلّ يردّد:

– كرامة! معجزة من الله، كرامة! دعوتك يا ربّ أن تحفظ سيّدي من أنباء السوء وترجعه إلى ذويه حيّاً فأجبتني:

– الست، يا شعبان، أين هي؟

– صعب عليّ الوقوف، اجلس إلى جنبي يا حاج واسمعني... منذ رجوع الجيش المصري إلى القاهرة والأخبار تروج بين النّاس هنا عن هلاكك. قالوا العلاّمة المغربي أكله الذئب المغولي. والست انهارت أعصابها تماماً تحت الصدمة، فأقنعها أخوها، الله يلعنه، بالرحيل معه إلى أهلها في فاس. لمته على فعله، فكان يردّد عليّ راقصا هذا الكلام: «لُمني يا عجوز وزد في لومي. اللوم يعجبني ويحييني». وحين اعترضت طريقه يوم الرحيل قهرني بقوّته وطغيه.

- والصبية، يا شعبان، كيف هي؟

- ككلّ الأطفال في سنّها أصابها مرض خفيف، وشجّع هذا أمّها على الرحيل لتعرضها على طبيبة في فاس. لكني واثق أنّ الصبيّة بخير.

تزاحمت الأسئلة وتشابكت في ذهني أنا العائد المصدوم، فآثرت إرجاءها حتى أعتصم بمكتبي وأفكّر في ما حلّ به. في كلّ يوم كنت أطرح بعضها على شعبان، فأنال منه تدقيقات نافعة تارة، وكثيراً من الإجابات المكرورة تارة أخرى. ومرّ شهر تقريباً وأنا لا أبرح بيتي. ولا أجد بعض التفريج عن كربتي إلاّ في الصلوات والنوافل والدّعاء المسترسل بالتخفيف والتيسير. وفي هذا الشهر أخذت أغالب انهياري بعقد العزم على تهيئة سفري إلى فاس بحثاً عن زوجتي المختفية. لكن مثولي للانتفاض هذا عاكسته زيارة مباغتة لأحد مبعوثي السلطان فرج، جاء يخبرني عن سفارته إلى تيمور لإبلاغه موافقة المماليك على طلبه الصلح، كما أنبأني بتحريق دمشق وجامعها مجدّداً قبيل رحيل المغولي عنها. وحين تأهّب للخروج، حثّني بلهجة خبيثة على تسلّم صرّة مال من قبل الطاغية، ثمنا للغلة التي ابتعاها منّي، غير أنّي رفضت أخذها حتى أشاور السلطان في أمرها.

في ظهيرة اليوم نفسه تمكّنت من قهر عيائي ونكدي، فتوجّهت إلى القصر الأبلق، كيما أرفع عنّي عاجلاً شبهات الخيانة والارتشاء، وأنزع فتيل الدسائس والتحرّشات.

في انتظار مقابلة السلطان، سألت الحاجب - وكان حديث الخدمة - عن يشبك، فأخبرني بتعيينه نائباً على الأسكندرية. خبر آخر يزيد في

الطِّين بلّة، ويضعف أسباب الرجاء. حين دخلت على فرج وجدته منشغلاً بالكلام مع ندمانه، فاقتربت منه وحيّيته، ثم كلّمته بصوت يصل إلى الآذان عن البغلة وانتزاعها منّي من طرف تيمور، وعن صرّة ثمنها وبراءة ذمتي منها، وطلبت أن ترجع إلى صاحبها أو أن تقيّد في بيت المال. « بل هي لك »، قالها السلطان بفم مخمور يستهجن القصّة كلّها وزيارتي في موضوعها.

أبداً لن تنطبع علاقتي بالسلطان بالدفء والحفاوة. الحاجز النفسي بيننا لا أمل في إبطاله، وأنا لم يعد يهمّني الدوران في فلك القصر وبين أعتابه. كبري واشتغال ذهني بحالتي الجديدة وعوائق أخرى صارت تزهدني في ذلك. لهذا حمدت اللّه على خلاصي من بوادر الورطة البغلية، لما تلقيت صرّة المبلغ بخصمٍ لفائدة حاملها.

* *

كان شهر شعبان موشكا على نهايته، ولا خبر من جهة فاس وأمّ البتول، ولا هدوء في روعي وقلقي. لذا كاتبت السلطان المملوكي أستأذنه في الذهاب إلى المغرب، مكتفياً بذكر شوقي إلى أهلي وموطني. إلاّ أنّ الجواب أتاني بظهير تعييني للمرّة الثالثة قاضي المالكية بالقاهرة. ورأيت في هذا التكليف الجديد إرادة السلطان في إبقائي رهن إشارة الدولة وحاصلاً في ظلّها، فلم يكن في وسعي غير الرضوخ مع التفكير في طريق آخر للخلاص والإفلات. وبدا لي هذا الطريق في التشبّث باتّباع إحقاق الحق، ورفض الكيل بمكيالين، والإعراض عن الوصايا والشفاعات في معالجة القضايا والشكاوى. فلم

تمض سنة حتى عزلت عن الخطَة، وبيع منصبها لمتكالب عليها بالمال الثقيل، المدعو جمال الدين البساطي، المتضلّع في فن الدَس والرشوة. غير أنَي لم أنتظر عزلي المحتوم كيما أجرِب مسلكاً آخر للنجاة.

ففي صفر أربع وثمانمائة، ظهر لي أن أكاتب السلطان المريني لهذا الوقت أبو سعيد، الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً لبعد الشقَة وانهمار سيل الحادثات. وارتأيت أن أركِز كتابي على إخباره بالخطر التتري وإشعاره بواجب الاحتراس والحذر من مطامع الغزو والتوسَع عند من آلت إليه الخانية والهيمنة كلّها، المغولي تيمور الأعرج. وبعد أن حكيت له حصولي في ظلّ هذا الخان بدمشق، متجنَباً الكلام عن التقييد الذي حررته للطاغية في وصف المغرب. ألقيت نبذة عن تاريخ التتر الخارجين من المفازة وراء النهر منذ ملكهم جنكيز خان إلى بنيه المتقاسمين ممالكه الشاسعة بين الشرق وآسيا الصغرى والوسطى، وكلّها حصلها تيمور بن جغطاي، مهلك الحرث والنسل، الذي زاد في توطيدها وتوسيعها. وشبّهت في الرسالة التتر بالأعراب من حيث البداوة والبأس، لعلّي أحفز قارئها على تعبئة أعراب المغرب والاستغلاظ بهم تهيّؤاً للطوارئ والفاجعات.

لم أكن أتوخَى من كتابي إلى المريني التكفير عن تقييدي لتيمور فحسب، وإنَما أيضاً استدراج السلطان إلى مكاتبة المملوك فرج من أجل الترخيص لي بالعودة إلى المغرب. فكان عليّ أن أجد ساعي بريد، وكان عليّ أن أنتظر محصول الجواب.

مرَ على بعث الرسالة تلك مع تاجر جوّاب آفاق أكثر من ثمانية أشهر، ولا كتاب من المغرب ولا إشارة. حتى إذا أظلم الجوّ في عيني

ويئست من الانتظار، كاتبت السلطان فرج أستعطفه في تخلية سبيلي والسماح لي بالحركة والسفر. إلاَ أنَ الردَ أتاني مرة أخرى في شكل مرسوم جديد بتعييني قاضي المالكية. فقبلت الخطة مكرها، حتى لا أعاكس السلطان وأقطع كلَ أسباب الرجاء، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة المذكورة.

لم أرَ شبه الماضي بالحاضر كالماء بالماء مثلما رأيت في ولاياتي مهنة القضاء. المشاهد والثوابت والزّلات تعيد نفسها، مع تطوَر أكيد في إتقان فنون النصب والتلبيس والاحتيال. كم كان بودّي، والحالة هاته، أن أكسر الطوق وأخرج *من الحلقات والدوائر كلّها إلى بريّة يعيش* أهلها على الفطرة بين الحيوانات النافعة والأرض المعطاء! لو كنت في سن الفتوّة والخفّة، لما تردّدت لحظة في ركوب السفن والجمال، والذهاب بعيداً في اختراق الآفاق وطيّ المناظر والرحاب. لكن من شاخ ووهن العظم منه، وساخ نصفه في القبر، ما له من حيلة إلاَ في مضغ حشيشة الترقب والصبر، أو في التمرّد والنقض، ممتطياً صهوات الرؤيا والوهم. وهكذا تناوبت عليَ رؤى منامية ثائرة منتفضة. كنت أستيقظ ولساني مازال رطباً من ذكر كلماتها الصادعة المتأجّجة. وتذكرت يوماً إحداها متناً ومبنى؛ قلت فيها للسلطان فرج المترنّح سكراً بين ندمانه وغلمانه: «قد حملتني معك إلى حرب رديئة هربت منها، وتركتني في ظلَ عدوّك مفقوداً، حتى شاع خبر هلاكي وتشتّت أهلي، فما تقول؟». وإذا بالسلطان يطلق ضحكة منكرة ويردّ مستهتراً: «هل من هو في سنّك أيها القاضي العجوز مازال يعشق ويهوى! زوجتك الشابّة وجدت قرينها ولا شكّ، فاطو صفحتها

وانسَ». وكانت كلمتي الأخيرة أنا الحالم: «قبّح الله السكَارى المستهترين، عديمي الحياء والدّين».

* *

في فاتح ذي الحجّة، وأنا في أوج الكمد واليأس، أتاني شعبان، ووجهه مستبشر ريّان، قال:

- يعزّ عليَّ، يا مولاي، أن أراك ممعناً في الحزن والانعزال، رحيل الستّ مصاب فادح أقدر وقعه عليك، لكن ألست أنت القائل دوما: " لا تقنطوا من رحمة الله" ! في موسم الحج الماضي، أوصيت حاجاً مغربياً، كان في طريق عودته إلى فاس من القاهرة، أن يبحث عن الستَ ويخبرها بوجودك على قيد الحياة ورغبتك في رجوعها إليك، لكن شبكتي لم تطلع بشيء، وأريد أن أرميها مرّة ثانية بين الحجّاج الفاسيين العائدين هذا العام عبر هذه الديار، فهيّئ لي يا أفندي رسائل شتّى إلى أمّ البنين بنت صالح التازي، وعليَّ أنا بالمساعي الباقية.

لمعت عيناي بما يشبه بريق أمل، فقبلت شعبان مرحّباً بفكرته، ووعدته بالرسائل.

هي رسالة واحدة موجزة في نسخ عدّة، أخبرت فيها زوجتي بأنّي مازلت حيّا أرزق، وأن أمنيتي الأغلى أن ترجع إليّ قريباً برفقة الصبية. سلّم شعبان النسخ إلى سبعة حجاج، وأوصاهم بالكدّ في البحث وتأدية الأمانة؛ ودعوت أنا ربّي أن يستجيب لشبكتي ويجعل محصّلها خيراً. ومرّ شهران وأكثر، ولا خبر من جهة المغرب الأقصى. أمّا أنا فقد ظللت أقيس الوقت بخفقات قلبي واهتزازت كياني، لا

يصدّني عن انتظاري عزلي عن القضاء مرّة رابعة، ولا سماعي بموت السلطان بايزيد في أحد أقفاص تيمور الأعرج.

ربيع الأوّل من ست وثمانمائة انقضى وتبعه ربيع الآخر، وشعبان يغالب عود الاكفهرار إليّ بشتّى الوعود والتطمينات، وحتى بالأيمان المغلّظة على تعنّي مشقّة السفر - بعد مهلة شهرين أو ثلاثة لإحضار الستّ والصبية. وكان يقول: «لست حاصلاً مثلك في ربقة السلطان يا سيّدي، وعليّ أن أسخّر هذا الفضل في سبيلك اعترافاً بجميلك وإحسانك».

كانت كلمات شعبان الوضّاءة الصادقة تنزل على صدري دفئاً وسلاماً، فأسعد بها وأستبشر خيراً، ثم أعود، وإن بنوع من الجهد، إلى قراءة كتب انتظرتني طويلاً على مائدتي، أو إلى إغناء أماليّ على المرحوم حمو في الليالي السبع، بإضافة حواش في مراسلاتي مع المغفور له ابن الخطيب، وفي سفارتي إلى طاغية قشتالة بطره بن الهنشة بن أذفونش منذ أربعة عقود خلت.

في متّم شهر رجب الخير من السنة المذكورة، عند منتصف النهار، سمع شعبان نقراً خفيفاً لطيفاً على الباب، فهبّ لفتحه مرتعشاً منفعلاً، فإذا به وجهاً لوجه أمام أمّ البنين بجلبابها ولثامها وكلّ أماراتها الأخرى. لم يتمالك أن قبّل جبهتها ويديها وهتف باسمها راقصاً مرحّباً وشاكراً اللّه أن أجاب دعاءه. وحين قادها إلى بيت اعتصامي، ألفياني منصرفاً إلى صلواتي، فجلسا يترقبان تسليمي، لكنّني تعمّدت تمديد حبل الانتظار، إلى أن خيّم صمت بليغ لم تكن تشوبه إلاّ همهماتي أنا المصلّي. عندئذ قصد شعبان المطبخ لإحضار المشروبات

والحلويات وإعداد صحون الغداء. ولما عاد بصينيّته كنت مسترسلا في صلواتي ونوافلي، حتى إذا سلمت شرعت في قراءة قصار السور بصوت مسموع، ثم أتبعتها ببعض الأذكار والدعوات. وأخيراً أدرت وجهي نحو زوجتي، ونظرت إليها بعينين دامعتين، قلت:

- عيب ما فعلته في حقّي يا ستّي! صدّقت خبر موتي، وكان عليك أن تنتظري عودة جثماني. كان عليك أن تعدّي مراسم دفني بما يليق بمقامي. عيب ما فعلته في حقّي يا ست!

انقضّت المرأة على يدي تقبّلهما، وشهقت باكية، وأشهدت شعبان المنسحب إلى المطبخ على دور أخيها في ترحيلها وأقوال النّاس بفناء كلّ ضحايا الغول المغولي في بطنه من دون رجعة.

وأخبرتني أنها ما إن وصلتها رسالتي حتى قرّرت شدّ الرحال إليّ بصحبة أسرتين من أشراف فاس، كانوا قاصدين الديار المقدّسة للعمرة.

- والبتول ابنتي، أين هي؟

- بين أيدي أمّي يا حاج، حالتها الصحية ساءت هنا بعد سفرك، وتحسّنت في فاس بفضل أعشاب جدّتي. نصيحة الأحباب كانت أن لا أحمّلها مشقّة الطريق.

- لكن لا بد أن تعود البنت بيننا. هذا البيت من دونك ومن دونها موحش لا يطاق.

- وبيتنا في فاس من دونك، يا سيّد الرجال، ما فيه طعم ولا لذّة... جئت إليك كي تراني كما عرفتني، جئت كي أتشفّع لك بمولاي إدريس أن ترحل معي إلى مدينة هذا الولي الصالح.

- هذا أمر صعب يلزمه تفكير طويل، يا أم البتول.

بعد فترة من الصمت والتردّد، قالت بأنّها تواعدت مع الأشراف على العودة معهم بالبحر من الأسكندرية في آخر ذي الحجّة، وأنّ خمسة شهور أمامنا كافية كي نهيّء رحيلنا. لم تكن لي رغبة في النظر إلى الموضوع حالاً، فقلت:

- من هنا إلى ثمة لها مدبّر حكيم... يا شعبان، هات الغداء.

أقبل الخادم بالصحون مبتسماً شاكراً ربّه، فعرضها بيننا وبرّر كثرتها بكون هذا اليوم يوم عيد. تفتّحت شهيّتي للأكل إعلاناً عن عودة الروح إليّ، وصرت أدعو زوجتي إلى الطعام وأمسح عن وجهي علامات الكدر والتّجهم. وحين بدرت منّي ابتسامة أولى، غابت لحظة ورجعت بهدايا كانت برنسا وسجّادة ومسبحة وقوارير كثيرة. اكتفيت بأخذ البرنس الشبيه ببرنسي المسروق، وأهديت شعبان الباقي شاكراً لأمّ البتول صنيعها.

* *

قضيت الأشهر الخمسة المتبقيّة من ست وثمانمائة في انقطاع تامّ إلى شؤون بيتي، وعملت في إنجازها كأني أموت غداً. بعت من متاعي ما اسطعت، ورّثت شعبان داري وأثاثها بحيلة شرعية دامغة. كما رغبت في ترضية حاجات أمّ البتول، وحوّلت كلّ ليلة في رفقتها إلى ليلة ليلاء.

كنت كلّ يوم أقضيه في حمى حرمي، أكدّ في إخلاء ذهني من شعور الاقتراب من نهاية محتومة! وكانت هي لا تفتر عن ذكر ابنتنا

وتشويقي إلى فاس ويسر العيش فيها. ولما حان موعد إيابها، رافقتها إلى الأسكندرية حيث قبّلتها كثيراً، وعاهدتها على الالتحاق بها بعد أشهر قليلة، ثم أوصيت بها خيراً كلّ الأشراف راكبي البحر.

* *

في الأسبوع الأول من شعبان من السنة الموالية، وأنا أهيّء رحيلي وأضع لمساته الأخيرة، أتاني خبر موت تيمور، فلم أحفل به. ثم تلقيت بمرسوم جديد تعييني للمرّة الخامسة في خطّة القضاء، فلم يسعني إلاّ أن أستجيب له على أمل أن أعزل في أقرب الآجال. وفعلاً، لم تمض أربعة شهور تقريباً حتى تمّ خلعي مجدّداً، فحمدت الله، وكاتبت زوجتي في دنوّ سفري إليها.

في مطلع ذي الحجّة كان محمل متاعي من الكتب واللباس مهيّأ للنقل، وفكرت في استئذان السلطان في الحجّ، ونيّتي أن أرجع منه قاصداً المغرب على وجه السرعة والتخفّي. غير أن الرياح جرت بغير ما اشتهيت، إذ ألزمتني وعكة صحيّة الفراش من دون رأفة ولا سبق إنذار. كانت وطأة المرض شديدة على نفسي الغائصة في وحل الهواجس والأبخرة الرديئة. ولولا شعبان وتفانيه في خدمتي وإسعافي، لكنت تركت حبل حالي على الغارب، منتظراً حكم الأقدار.

الشهور الخمسة الأولى من سبع وثمانمائة قضيتها بين تناوب الحمى والبرد عليّ وبين أوجاع شتّى يتبوّأها وجع المفاصل. في عيون زوّاري القلائل كنت ألمح صورة سوء صحّتي، فأقصر الكلام معهم وأوصيهم بالتستّر على مرضي، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

في أوائل شهر رجب الخير وصلتني رسالة من أم البتول تطمئنني فيها على حالها وحال بنتنا، وترجوني أن أعجّل سفري. كانت كلماتها العزيزة النيّرة إيذاناً بدخولي في نقاهة تشبه التماثل للشفاء. ورويدا رويداً استرجعت قدرتي على الوضوء وأداء الصلوات في أوقاتها، وعاودتني شهية الطعام بل شهية القراءة. ولو كنت قادراً على الكتابة، لسجّلت ما بقي في ذهني الضبابي من شظايا صور متدافعة متلاطمة لعالم منظور إليه بعيني امرئ متعب مريض، لا يتعدّى مجاله الحيوي فراشه ومساحة بيته. وهذه فكرة مشروع لرسالة قد أحرّرها قريباً إن أسعفني الوقت وأطال الله العُمر.

عند مطلع شهر شعبان أصبحت قادراً على الحركة وحتى ارتياد الأحياء القريبة من بيتي. صرت صباح كلّ يوم أمشي ساعة أو ساعتين في بعض الأزقّة والأسواق، وأنا أنظر إلى الكائنات والأشياء بنوع من الفضول والاشتياق، كأنّي أعيد اكتشافها من جديد بعد غيبة قاهرة مديدة. كان شعبان كثيراً ما يصحبني للسهر على راحتي وتوفير شروط سلامتي بالوعظ الحسن والنصيحة الثمينة. وحين شعرت بعودة الصحّة إليّ، قصدت فرج، فأخبرته بنيّتي في قضاء فريضة الحجّ وبشوقي إلى الكعبة الشريفة والبقاع المقدّسة. إلاّ أنّ السلطان المخمور واجهني بضحكة عريضة، وقال: «المرض باد عليك يا وليّ الدين! ورغبتي أن أزيل عنك غمّتك بأن أعيد إليك القضاء. سترجع إليك صحّتك بفضلي، ولا تطلب منّي غيرها». لو لم ينصرف عنّي بغتة، لأظهرته على زهدي في الوظيفة وتوقي إلى الفكاك من ربقة ظلّه.

* *

منذ ست وسبعين سنة خلت، في فاتح شهر الصوم ونزول القرآن كان خروجي إلى الدنيا. واليوم إذ حلَّ هذا الشهر المبارك من جديد، دعوت ربي، وقد استأثر بي المرض أكثر من ذي قبل وانعدم عندي طعم الحياة، دعوته أن يلحقني بجواره، وتشفعت له برسوله الأكرم، الذي صحَّ قوله: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار». حدثت شعبان الدائخ المذهول في أمر اقتراب أجلي، وأوصيته بإرسال كتاب حررته إلى زوجتي بتيسير دفني بمقبرة الصوفية خارج باب النصر، ثم تمددت في فراشي منتظراً إقبال ملك الموت على إخماد حرارتي الغريزية المتبقية، منتظراً إقبال يد خيرة على تغميض عينيَّ برفق منقطع النظير...

* *

هو انتظارُ التورطِ فالغوصِ العويصِ الصاعقِ في لجِ الهذيان والغمّ!

هو انتظار انصرام حبل الوريد وكلِّ عروق الضخ والنبض!

احتضارٌ هو أيقنتُ أنَّ منتهاه لا لبس فيه ولا ريب. أيقنني صوت جواني ناطق بين أعضائي وجوارحي بلسان التصدّع والفتك...

نغلٌ في رجليَّ كأنه لنمل، بل لديدان دموية تزحف في العروق والعظم. تزحف ببطء شديد، لكن تحت ألوية العزم والحزم.

أمّا الرأس ففي الحمى آنستهُ ومثواه.

الشهادة قبل أن تتخطفني المنية على حين غرّة!

رددتُ الشهادة همهمة. وخللتها بأدعية لي ولوالدي وأهلي ولكلَ من سيعيش بعدي من الأحبَة. رددت ما وسعني الترديد، ومنَيت أمَ البتول، ريحانة روحي، بانقلابها إليَ مسرورةً في جنات عدن، بعد أن تجتاز سالمة غانمة امتحان الصراط ويوم الحشر، حتى إذا غشيني بعض التلف الذهني وثقل لساني وانهدَ، بدا لي طائري ينعتُ عنقي ويئنّ في أذني هامساً: أعتقني من هذا القيد...

عطبٌ مَا في عينيَ أدركتُه من تحول شعبان في مدى بصري إلى كائن كالبخار رقيقٍ دقيق. شعرتُ به ينحني على وجهي فيهرق دمعةً، أو يحاول عبثاً إطعامي بما لان وخفَ؛ وشعرتُ به أيضاً يدثر رجليَ الجامدتين الضامرتين بأغطية الصوف والخزَ.

سبحان الحيَ!

حياتي كلّها تتراءى لي قوافل صور مدغمة، نيرة، متلاحقة. وحين ألوي على نتفها ببوادي وحواضر الغرب والشرق، سرعان ما تتطاير جمراً وشظايا، مخلّفةً في ناظريَ ضباباً كثيفاً تحفَ به ملائكة باسمة. لعلّها ملائكة الرحمة والفهم.

سبحان الحيّ!

نصفي التحتيُ كلّه آخذ في تلقَي الموت شروخاً وانكسارات. لا شكَ أنّها تروم تحرير الروح من بؤرة الفساد والسقم...

هي السكرات الهذيانية يفرزها الإدمان على ترقب انتهاء الأنفاس إلى الزفرة الأخيرة أو الهيعة العظمى. وفي دوار الترقّب ورسوب الوقت في الدهمة الكبرى، آه من الرؤى الكابوسية العاتية:

بحارٌ محترقة تقذف الأمواج دماءً وأوحالاً !

سماءٌ واطئة تحفل بالرياح والأرمدة، وتمطر الأرض بوابل من الجراد والضفادع والقمّل !

مرج أمري وتقلقلت، فبصري الآن حديد.

تراءى لي عزرائيل واقفاً خلفي، يرتدي سلهاماً نورانياً، كأنَّ طرفيه جناحان من حرير.

ليس لمفاوضتي في موتي أتاني، بل لحثّي على طيِّ شراعي ونفض يديَ من هذه الدنيا الدنية.

قال لي: أنزفتك السنون يا هذا، وكدحتَ إلى ربّك كدحاً، فأنت قريباً ملاقيه.

وقال لي: هل الدم إذا سال من شريانه يعود إليه ! هل الفاكهة إذا فارقت غصنها تؤوب إليه !

قلت: محال.

قال: أنت إذن مثل هذه الفاكهة أو ذاك الدم، أو إن شئتَ أنت كاللبن إذا غادر الضرع، لا يملك إلاّ أن يغيب في جوف شاربه، أو أن ينتن حتى يتبخَّر.

قلت: هل تسمح لي، أنا خرّيجُ هذا العصر العصيب، أن أكتب وصيّتي الأخيرة ؟

قال: ليس الوقت وقتها، وأنت كجذع نخل خاوية، طريح فراش الشلل والسكرات المحمومة العاتية.

ثم انقطع صوت الملك فجأة، فرجوت الله أن يعجّل في صرم الحبل.

ولعلّ الذي له البقاء وحده استجاب لي، إذ بتّ أراني أتوغل في خندق متشعّب غميق، كثير المتاهات، كثير الظلمة والمخض؛ وأراني في منتهاه أسقط في هوة سحيقة، لها السلطانُ كلّه في الجذب والضمّ، وعليها في قعرها بين الصلب والترائب أن تعيد جسم الساقط إلى طينه وصلصاله، فلا تخلص منه إلاّ الرّوح الماسكة في معراجها بحبل الله الممدود من السّماء إلى الأرض.

فهـــرس

فاتـحـة 9

الفصـل الأول: الإملاء في الليالي السبع................................ 25

الفصل الثاني: بين الوقوع في الحب والحصول في ظل الحكم......... 104

الفصل الثالث: الرحلة إلى تيمور الأعرج، جائحة القرن............ 184

تذيـيـل.. 269

المؤلف

بالعربية :

❑ الإبداعات :

* **كناش إيش تقول** (شعر كاليغرافي)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1977.
* **ثورة الشتاء والصيف** (شعر كاليغرافي)، منشورات البديل، الرباط، 1983.
* **كتاب الجرح والحكمة**. بيروت، دار الطليعة، (ط.2)، 1988.
* **مجنون الحكم** (جائزة الناقد للرواية) لندن، دار رياض الريس، 1990.
* **محن الفتى زين شامة**. بيروت، دار الآداب، 1993.
* **سماسرة السراب**. المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 1995.
* **أبيات سكنتها وأخرى** (شعر)، دار الطليعة، بيروت، 1997.
* **ديوان الانتفاض** (شعر)، دار شراع، طنجة، 2000.
* **العلامة**. مطبعة المعارف الجديدة (الطبعة المغربية) الرباط 2000-2001، (جائزة الأطلس الكبير 2000).
* **فتنة الرؤوس والنسوة**. دار الآداب، بيروت، 2000.

❑ الدراسات :

* **في نقد الحاجة إلى ماركس**. بيروت، دار التنوير، 1983.
* **معهم حيث هم** (حوارات فكرية)، بيروت، دار الفارابي، (ط.2)، 1987.
* **التشكيلات الايديولوجية في الإسلام ــ الاجتهادات والتاريخ**.، بيروت، دار المنتخب العربي، (ط.2)، 1990.

* الاستشراق في أفق انسداده. الرباط، المجلس القومي للثقافة، 1992.
* في الغمة المغربية. طنجة، دار شراع، 1997.
* الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ. دار الطليعة، بيروت، 1998.
* التراكم السلبي والعلم النافع. دار إفريقيا- الشرق، الدار البيضاء،2001.
* الفرنكفونية ومأساة "أدبنا" الفرنسي. دار المعرفة للجميع، الرباط، 2001.
* الوجود والجدوى. (قيد الطبع).

بالفرنسية :

* **De la formation idéologique en Islam**, Anthropos, Paris,1981
* **Partant d'Ibn Khaldûn, penser la dépression**, Anthropos-Edino, Paris/ Rabat, 1987.
* **Le livre des fièvres et des sagesses**, Rabat, Okad, 1992.
* **Au pays de nos crises. Essai sur le mal marocain**, Afrique-Orient, Casablanca, 1977.
* **Calife de l'épouvante,** Le Serpent à Plumes, Paris, 1999; Afrique-Orient (édition marocaine), 2000.

صدر من هذه السلسلة

1- عيون الغرباء .... فتحى غانم

2- السرداب رقم ٢ .... يوسف الصائغ

3- حكايات للأمير .... يحيى الطاهر عبد الله

4- مجنون الورد .... محمد شكرى

5- نجمة .... كاتب ياسين

6- نهر المجرة .... عبد الوهاب البياتى

7 - السد .... محمود المسعدى

8- بناية ماتيلد .... حسن داوود

9- سرير لعزلة السنبلة .... محمد الأشعرى

10- حجر الضحك .... هدى بركات

11- سأهبك غزالة .... مالك حداد

12- الخماسين .... غالب هلسا

13- حزن فى ضوء القمر .... محمد الماغوط

14- مختارات .... وديع سعادة

15- سباق المسافات الطويلة .... عبد الرحمن منيف

16- دعوا الشقاء سالمًا (مختارات) .... عباس بيضون

17- أف ! (مختارات) .... زكريا تامر

18- مجنون الحكم .... بنسالم حميش
19- مختارات من القصة المغربية : اختيار وتقديم أحمد بوزفور
20- يغير البحر ألوانه .... نازك الملائكة
21- مختارات من القصة العراقية .... ياسين النصير
22- ملحمة السراب .... سعد الله ونوس
23- عليك تتكئ الحياة .... ممدوح عدوان
24- حكاية زهرة .... حنان الشيخ
25- ليس فى رصيف الأزهار من يجيب .... مالك حداد
26- أهل الهوى .... هدى بركات
27- النحنحات ورائحة الخطو الثقيل .... إبراهيم صموئيل
28- ممالك ضائعة .... على جعفر العلاق
29- قمر شيراز .... عبد الوهاب البياتى
30- عزيزى السيد كواباتا .... رشيد الضعيف
31- سهل الغرباء .... صلاح الدين بوجاه
32- صيف لن يتكرر .... محمد برادة
33- كتاب الأيام والأنام .... جمال أبو حمدان
34- طيور الحذر .... إبراهيم نصر الله
35- وليمة لأعشاب البحر .... حيدر حيدر
36- ضو البيت - مريود - دومة حامد .... الطيب صالح

37- صيف إفريقى .... محمد ديب

38- مخطوط فى العشق .... محمد القيسى

39- إنه جسدى .... نبيلة الزبير

40- أنشودة المطر .... بدر شاكر السياب

41- الست ماري روز .... إيتل عدنان

42- الفراشة الزرقاء .... ربيع جابر

43- الحى اللاتينى .... د. سهيل إدريس

44- الظاهرة القرآنية .... لمالك بن نبى

ترجمة : د. عبد الصبور شاهين

45- قرطاج .... عز الدين المدنى

46- قرارة الموجة .... نازك الملائكة

47- قصائد متمرِّدة .... شعر : أحمد مشَاوي العَدواني

اختيار وتقديم : د. محمد حسن عبد الله

48- الوردة تموت .... شعر : محمد عزيز الحبابى

ترجمة : أحمد عثمان

49- المصابيح الزرق .... حنا مينه

50- السفينة .... جبرا إبراهيم جبرا

51- أغانى الحياة .... لأبى القاسم الشابى

52- اللهب المقدس .... لمفدى زكريا

53- رأيت رام الله .... الشاعر : مريد البرغوثى
54- حُنُو الضمة .. سُمُو الكَسرة .... محمد الفقيه صالح
55- حدث أبو هريرة ... قال .... محمود المسعدى
56- النبوءة .. مسرحية شعرية .... د. خالد محيى الدين البرادعى
57- القصة السعودية المعاصرة .... اختيار وتقديم : د. طه وادى
58- زهرة الصندل .... وليد إخلاصى
59- العَلاّمة .... بنسالم حِميش

من أعدادنا القادمة

١ - إشراقة . . . . ديوان التيجانى يوسف بشير

٢ - النهر المسافر . . . . البيلى عبد الحميد

٣ - قصائد الوجد والدم . . . . . مختارات من شعر فدوى طوفان

اختارها : د. محمد زكريا عنانى

٤ - رحلة الغرناطى . . . . ربيع جابر

أفاق عربية

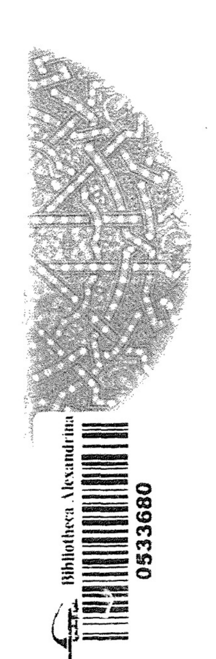
قالوا .. عن الرواية :

« وفق الأديب بنسالم حميش في روايته **العلاّمة** على مستوى التشكيل الجمالي في دفع التقريري إلى التصويري ، والمباشر إلى المجازي ، والمجازي إلى الرمزي، وبذلك يفصح عن تحريك الموقف الذي يتبدى في الشخصية من المحلي إلى المشترك الفكري والثقافي الإنساني » .

د.عبد المنعم تليمة

« يستنطق الأديب بنسالم حميش روايته **العلاّمة** قناعات المفكر العربي الكبير ابن خلدون . ونتعرف عبر سرده الفني المتميز بالسهولة الممتنعة على شخصية تاريخية فذة بجوانبها الإنسانية الحميمة وفلسفتها في التاريخ والاجتماع وتفاعلها مع التصدعات الكبرى في عصرها » .

فريال غزّول



الشركة الدولية للطباعة